المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

التناسق الموضوعي في سورة الأحزاب

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير

إعداد الطالب / محمد بن عزيز بن عبد الرحمن القرشي
الرقم الجامعي: ٤٣٠٨٨٠٤٣

إشراف
فضيلة الأستاذ الدكتور/ زياد بن خليل الدغامين

(١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده :

فقد اشتملت رسالة التناسق الموضوعى في سورة الأحزاب على أمرين:-

الأول :

مقدمات تتعلق بالسورة وهي كالآتي :-

- اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها .
- مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به.
- أسباب نزول السورة ومقاصدها.

الثاني :

ما احتوت عليه السورة في داخلها مثل :-

- مناسبات السورة لموضوعها .
- ومناسبة فاتحتها لموضوعاتها .
- موضوعات السورة وتناسقها .
- تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي .

ثم خلصت إلى نتائج من دراستي الكلية للسورة .

والله الموفق

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المشرف — **الباحث**

د/ زياد الدغامين — **محمد بن عزيز القرشي**

Abstract

Praise be to God, prayer and peace be upon from Al Nabi and after :
The message included a subjective consistency in Surat Al Ahzab on two things: -

١- Introductions related to Al Surah as follows:

- Surah name, and number of verses and the date of descent.
- Makki Surah and Mdnitha and suitability to the face before and what is unique to its jurisdiction.
- The reasons for the descent of Surah and its purposes.

٢- What it contained within it: -

- Surah appropriate of its subject
- appropriate for the subject matter for its opening
- Surah topics and consistency
- Interpretation of the verses of Surah in the light of the consistency of the objective

Then I concluded the results of my total study

May Allaah bless our Prophet Muhammad and his family

Supervisor
Dr Ziad Aldgamin

Graduator
Mohammed Aziz al-Qurashi

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيرا .

أما بعد: فإن الله بمنته وحكمته اختار لهذه الأمة أفضل الكتب وأعظمها ،وكلف بإنزاله أفضل الملائكة ، وأنزله على محمد ﷺ أفضل الرسل ، وجعله مهيمنا على ما سبقه من كتب ، كل ذلك لما يحمل بين دفتيه من أوامر وتوجيهات رسم فيها منهج حياة البشرية جمعاء إلى أن يلقوا ربهم تبارك وتعالى .

أنزله تبارك وتعالى ليكون واقعاً حياً في حياتهم ، فيحلوا حلاله ، ويحرموا حرامه ، فيمتثلوا الأوامر ، ويجتنبوا النواهي ، فباتباعه والأخذ بما جاء فيه يأمن الإنسان من الضلالة والشقاء ، وبالبعد عنه يعيش معيشة ضنكا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة طه : آية (١٢٣-١٢٦).

لكن أحكام القرآن وتوجيهاته ،ودروسه وعبره ،لا يتأتى العمل بها إلا بأن يعقل العبد ما اشتملت عليه .

لذا ندب سبحانه إلى التدبر في آيات الكتاب العزيز فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ (١)

فالتدبر يقود إلى الهدف من إنزال القرآن وهو العمل به ، كما فيه إبراز لإعجاز القرآن من جميع الوجوه ، فكلما زاد الإنسان تدبراً زاد معرفة وحباً وإقبالاً على كتاب الله تعالى ، وكلما نظر في القرآن من أي النواحي : سواء من ناحية أسلوبه ،أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم أو غير ذلك ، كلما زاده الرغبة في الحرص على التدبر ، والتزود منه ، وازداد فهماً له، ولن يبلغ النهاية في ذلك .

أثر عن بعض السلف أن العبد لو أعطي بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه .لأنه كلام الله الذي تكلم به أودع فيه من الحِكم والأسرار مالا يستطيع عبد إحصاءها أوفهمه.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ، ووقعت على معناه محدوداً ، هذا ولو رجعت إليه كرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك : حتى ترى للجملة

---

(١) سورة ص : آية (٢٩)

الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عِدَّة كلها صحيحة أو محتملة للصحة ...وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كلٌّ منه ما يُسِّرَ له ، بل ترى محيطاً مترامي الأطراف ، لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال » [1].

وقد هيأ الله لنا أن نكون ممن يدلون بدلوهم في تدبر سورة من سور القرآن من خلال التناسق الموضوعي في السورة ، لنخوض في بحر لجيّ ، يتسم بالجِدّة في الطرح ، والشح في المصادر المتخصصة ، والدراسات العلمية المؤصَّلة ، ولكن قد يسر الله لي ذلك بعد قناعتي بأهمية الموضوع وصعوبته ، علّنا نغرس غرساً يسقى بماءٍ واحد ، ليستوي على سوقه ،يُعجب به الزراع ، ويغتاظ منه أهل الزيغ والريب والنفاق ، نصل به إلى قلوب أهل الإيمان ليزدادوا به إيماناً مع إيمانهم، وترتوي منه أفئدة عطشى لتستنير به في حوالك ظلم التجديدية المعاصرة، وتثبت به أقدام تتجاذبها رياح الشبهات والشهوات ، ليعودوا إلى كتاب ربهم فيستقر إيمانهم ، وتحسن أخلاقهم ، وتُدرك عقولهم عظم دينهم ، وشموليته لأحوالهم ، ومواكبته لمتطلباتهم ، لتنعم بتلك النعم التي تحققت للجيل الأول عند إقبالهم على الكتاب العزيز ،بأن فتح الله عليهم في علوم دينهم وعلوم دنياهم النافعة ، فأثمرت معرفة علمية وعملية تربوية حقيقية ، غيرت وجه الأرض كله، بل أعدّت عقلية هذه الأمة ، لتكون أقوى عقلية منهجية مرتبة ظهرت على الأرض، رتبتها آيات القرآن العظيم ، لتظهر على جميع الحضارات ، وتبصر

---

(١) انظر : دراز ، النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ، دار طيبة ، صـ١٤٥.

أهل الوجود بنعمة الموجِد سبحانه ، ورعايته لخلقه في شتى مجالات حياتهم ليحققوا حضارة للأمة ولكل فرد من أفرادها ليكون ناجحاً في دنياه وأخراه ، حضارة تتميز بالوسطية، ومراعاة متطلبات الروح والجسد معاً ، والعقل والعاطفة معاً ، بدون تغليب جانبٍ على جانب ، وكل ذلك بتطبيق منهج القرآن الذي هو منهج حياة، من طبقه هداه إلى أقوم الطرق وأصوبها ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (١) .

ودراسة النسق القرآني في السور من أعظم الوسائل للوصول إلى هداية القرآن الكريم في شتى المجالات التي يحتاج إليها المسلم من خلال إدراك ما احتوت عليه السور من قضايا متعددة ، تتعلق بموضوع واحد يرتبط أوله بآخره ، وآخره بأوله ، ويترامى بجملته إلى غرض واحد ، يجمع كل أغراض السورة لتمثل لنا المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الإنسان ليلقى الله وقد أدى ما أوجبه الله عليه من حقوق فيكون من الفائزين . واخترت لذلك الموضوع التالي (التناسق الموضوعي في سورة الأحزاب) .

أولاً / أهميّة الموضوع :

١-لإبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ومعرفة شيءٍ من أسراره وبلاغته .

---

(١) سورة الإسراء: آية (٩)

٢-إنّ فهم آيات السّورة في ضوء التّرابط والتّناسق الموضوعيّ فيها يعطي شمولية في الفكر والنّظر ، حيث تظهر دلالة هذا الفهم عند إرادة التّطبيق الواقعي لمنهج القرآن الكريم في حياة النّاس، وعند تصحيح المفاهيم الخاطئة التي تعارفوا عليها وتشبّثوا بها دون الاستهداء بنصوص الوحي .

٣ –إن الوقوف على معاني كلام الله ، وإظهار التناسق البياني والمعنوي يدفع المسلم لمعرفة معاني كتاب الله جل وعلا مما يبرز أثر ذلك في سلوكه وتعاملاته .

٤- في تقرير التناسق الموضوعي شحذ للهمم للتمسك بتعاليم هذا الدين لأنه يبرز للمتأمل في ذلك التناسق ،عظمة هذا الدين وهيمنته على الأديان كلها بما في ذلك أنظمتها وقوانينها ، لأنه مخاطبٌ به كل مسلم على مر العصور والدهور .

٥-إن إبراز التناسق الموضوعي في السورة يعد دعوة إلى مزيد من التأمل والتدبر لآيات الذكر الحكيم من أجل الوقوف على هداية القرآن المجيد في المجالات المختلفة التي تحتاج فيها الأمة إلى حلولٍ مناسبة وصالحة للتطبيق .

٦- بالتناسق الموضوعي يدرك العبد المسلم عظم كل لفظة وكل جملة بل كل حرف من حروف القرآن الكريم ، ويعطيه تذوقاً مرهفاً يؤثر في الإحساس والشعور عند سماعه لكلام ربه العزيز .

ثانياً :أسباب اختيار الموضوع :

١-قناعتي بأهمية هذا الموضوع كما سبق .

٢- جدة هذا الموضوع وقلة المؤلفات فيه مع مسيس الحاجة إلى دراسة تجلي التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم ، للوقوف على مقاصد الكتاب العزيز .

٣-الرغبة الملحة للعيش في كنف كتاب الله تعالى ، والاشتغال بما فيه منفعة لدنيانا وأخرانا .

٤- لما اشتملت عليه سورة الأحزاب من مميزات تتمثل في الأتي :

١-أنها أول سورة بدأت بنداء النبي ﷺ في القرآن الكريم.

٢-أكثر سورة ورد فيها لفظ النبي في القرآن الكريم فقد ورد في القرآن كله ما يقارب من ٢٨ مرة منها١٢ مرة في سورة الأحزاب وحدها .

٣-أنها اختصت بموضوعات لم ترد في غيرها من سور القرآن مثل:

-إبطال عادة التبني التي كانت في الجاهلية .

-الحديث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة .

-زواج النبي ﷺ بزينب أي أباحت زوجة المتبنى.

-ذكر الأحكام التي تتعلق بأزواج النبي ﷺ مثل القسم بينهن وتخييرهن والزواج بغيرهن وحرمة زواجهن بغيره ﷺ.

-فرض الحجاب على نساء النبي ﷺونساء المؤمنين .

-انعقاد الزواج له ﷺبالهبة ودون مهر . وموضوعات أخرى.

ثالثاً : أهداف البحث في الموضوع :

١-إظهار التناسق الموضوعي لسورة الأحزاب .

٢-إبراز بعض الفوائد والفرائد التي لم تظهر من خلال بعض البحوث والدراسات التي أُعدِّت في السورة .

٣-إيضاح بعض أسرار الإعجاز القرآني في سورة الأحزاب .

رابعاً :الدراسات السابقة :

أولاً/ في ظلال القرآن لسيد قطب «رحمه الله» تعالى .

-لا يخفى على أحد ما آختطه سيد -رحمه الله- في كتابه من منهج آهتم فيه بإبراز مقدّمه تتحدث عن أغراض السورة و محورها الرئيسي، وبعض القضايا المهمة التي تشير إليها الآيات مما له مساس بواقع الناس المعاصر ، ثم يعرض السورة كلها عرضاً إجمالياً، ثم يقسمها إلى مقاطع يتحدث عن كل مقطع بقدر من التفصيل .

_أمتاز بالأسلوب الأدبي والتأمل وربط المعاني بقضايا الواقع كما هو بيِّن من عنوان الكتاب .

ومن خلال اطلاعي على سورة الأحزاب في هذا الكتاب ظهر لي الأتي :

- بدأ بمقدمة عن السورة ذكر فيها المقصد الأساس الذي تدور آيات وأحداث السورة حوله ، وهذا حسب رؤيته واجتهاده رحمه الله .

-قسم السورة إلى ستة مقاطع تحتاج إلى إعادة نظر و تمحيص .

-لقد أفدت منه في بعض المواطن فوائد جميلة وفريدة جزاه الله خير الجزاء .

ثانياً / كتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، أعده نخبة من علماء التفسير وعلومه بإشراف أ.د مصطفى مسلم ذكر في مقدمة الكتاب منهج البحث

الخاص بجامعة الشارقة على تقسيم « التفسير الموضوعي للسورة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : بين يدي السورة ، ومما تضمّن هذا القسم ذكر اسم السورة ومحور السورة والمناسبات .

الثاني : التفسير الإجمالي للسورة .

الثالث : الهدايات المستنبطة من المقطع .

-وقد اطّلعت على تفسير سورة الأحزاب في هذا الكتاب وتبين لي الآتي :

١-ذكر الباحث مقدمة بين يدي السورة للتعريف باسمها وعدد آياتها ومرحلة نزولها ومحور السورة والمناسبات في خمس صفحات .

٢-قسم الباحث السورة إلى واحد وعشرين مقطعًا بخلاف بحثي فقد قسمته إلى ثلاثة موضوعات رئيسية .

٣- يلاحظ أن هناك فصلاً واضحاً بين التفسير وذكر المناسبات ، حيث إن القارئ لا يشعر بالتناسق الموضوعي في الآيات أو في السورة .

٤- اعتمد كثيراً في تفسير الآيات كلياً على كتاب (في ظلال القرآن) ففي بداية تفسير كل مقطع ، يقول المؤلف : قال صاحب الظلال : ... ثم ينقل عنه نقلاً مطولاً بنصه .

٥-لم يذكر مقاصد السورة وأهدافها ودلالتها على الموضوع الكلي في السورة .

ثالثاً : أطلعت على بحث تكميلي للماجستير للباحث: عبد المحسن بن عبدالكريم الغميز بعنوان : التوجيهات التربوية للأسرة المسلمة من خلال سورة الأحزاب .

مقدم لقسم التربية الإسلامية والمقارنة ، كلية التربية بجامعة أم القرى ، بإشراف د محمود عطا محمد علي عام ١٤٢٠ هـ.

وقد بين الباحث منهجه في البحث . حيث اشتملت الدراسة على خمسة فصول .ذكر في الفصل الأول أن موضوع الدراسة حول التوجيهات الربانية التي تسهم بدور كبير في بناء الأسرة المسلمة.

كما بين أن هدف الدراسة هو إبراز التوجيهات التربوية للأسرة المسلمة المستنبطة من السورة .

وبهذا يتضح أن الدراسة بعيدة جدا عن موضوع التناسق الموضوعي في السورة .

رابعاً : كما أطلعت على كتاب بعنوان بغية الطلاب في موضوعات سورة الأحزاب اشتمل على بحوث علمية محكمة في التفسير الموضوعي للدكتور : محمد بن عبد العزيز العواجي .طبع بدار طيبة الخضراء عام ١٤٣٠هـ.

دون الباحث منهجه في بحوثه من خلال المقدمة ذكر من منهجيته التالي:

١ -اتبعت الطريقة الموضوعية في الموضوع ، ولم التزم ترتيب آيات السورة وتتابعها ، بل الطريقة الموضوعية ، فأجمع الحديث عن الموضوع الواحد في السورة .

٢-حاولت عرض المعنى الإجمالي للآيات ، والتركيز في المعنى على الفوائد العلمية .

٣-حاولت تبيين بعض الكلمات الغريبة .

و مما يلاحظ على الدراسة أنها ليس لها صلة بالتناسق الموضوعي للسورة ويبرز ذلك في النقاط الآتية :

١-أن الباحث فصل بين آيات السورة لإبراز مواضيعها .

٢-كما أنه لم يلتزم بالترتيب للآيات ، وكلا الأمرين السابقين خارجان عن المنهج العلمي في بيان التناسق الموضوعي للسورة .

٣-فقدان البحوث للمناسبات في السورة ، ومقاصدها وأهدافها .

٤-أن الموضوعات التي ذكرها الباحث لم يُشر فيها للتناسق الموضوعي ولو تلويحاً .

٥-اكتفى الباحث بالإشارة للوحدة الموضوعية في بداية السورة ثم بالموضوعات التي تضمنتها السورة.

٦- أن الكتاب عبارة عن بحوث متفرقة ولم يكن رسالة علمية .

خامساً : كما اطلعت على كتاب من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب :د / محمد محمد أبو موسي :

-قد شرع المؤلف جزاه الله خيراً في تفسير السورة ولم يذكر مقدمات عنها إلا شيئًا يسيرًا جداً .

- كما أنه نهج في كلامه عن السورة إلى أقل من منتصفها منهج التفسير التحليلي ، ثم بعد ذلك تغير منهجه التحليلي إلى معنى إجمالي .

- بعد تفسيره لمجموعة من الآيات يتكلم عما اشتملت عليه من لطائف بلاغيه يبرز من خلالها تناسق بعض الآيات أو الألفاظ بكلام جميل مفيد .

-لم يعز الأحاديث وإن كانت قليلة جداً .

-لم يشر لكلام المفسرين إلا قليلا.

الكتاب بعمومه مفيد وقد بذل فيه الشيخ حفظه الله جهداً رائعاً ، أفدت منه في مواطن من تفسيري لآيات السورة ، جزاه الله عني وعن الإسلام خير الجزاء .

خامساً : هيكل الرسالة :

المقدمة:

الباب الأول: التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية، ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً.

الفصل الأول: اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة .

المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك.

المبحث الرابع: تاريخ نزول السورة الكريمة.

الفصل الثاني: مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به.

المبحث الأول: المكي والمدني في السورة .

المبحث الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات.

الفصل الثالث: أسباب نزول السورة ومقاصدها.

المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في السورة.

المبحث الثاني :مقاصد السورة.

الباب الثاني، التناسق الموضوعي : دراسة تطبيقية.

الفصل الأول: مناسبات السورة الكريمة، ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعها.

المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.

الفصل الثاني: موضوعات السورة الكريمة وتناسقها ، ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول :توجيهات خاصة بالنبي ﷺ فيما يتصل بنفسه ،وبالمؤمنين. ويشمل الآيات (١ – ٢٧).

المبحث الثاني : بناء بيت النبوة وبيوت المؤمنين . ويشمل الآيات (٢٨ – ٥٥).

المبحث الثالث :مكانة النبي ﷺ وعظم إثم إيذائه وإيذاء المؤمنين . ويشمل الآيات (٥٦ – ٧٣).

الفصل الثالث : تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي .

الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية .

سادساً : منهجي في إعداد البحث :

سأتبع في كتابة البحث المنهج الاستنباطي التحليلي وفق المنهج العلمي الآتي :

- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية ، وأكتفي بالعزو لما في الصحيحين ،أو أحدهما ، وإذا كان في غيرهما فأعزوه إلى مصادره الأصلية مع ذكر أقوال أهل العلم فيه .

- توثيق الأقوال ، وعزوها إلى مصادرها الأصلية .

- تزويد الرسالة بالفهارس العلمية المساعدة ليصل القارئ إلى ما يريده .

- أما المنهج التطبيقي :

- دلفت إلى جمع من كتب التفسير ،وعلوم القرآن بالإطلاع والتأمل فيما يتعلق بالسورة من مقدمات لها أثر في فهم نسق السورة ، ومناسباتها .

- أدمت النظر في آيات السورة من خلال ترديدها والتأمل فيها .حتى وصلت إلى تقسيمها إلى مقاطع .

- جمعت قدراً كبيراً من كلام أهل العلم في مناسبات السورة الكريمة، ثم مقاطعها ثم آياتها .

- أجمع الأقوال في كل مبحث ثم أخلص فيه بذكر ما صح أو رجح عند أهل العلم وما ظهر لي فيه من قول راجح .

- تناولت الحديث عن مقاطع السورة من خلال ما ظهر لي من كلام أهل العلم ، مستشهداً بما يناسب المقام .

- شرعت في تفسير آيات السورة راسماً منهجا في ذلك :

- أولاً : ذكر المناسبة بين الآية وسابقتها مستشهداً بكلام أهل العلم إن تيسر ذلك .

- ثانياً: أقوم بتفسير ألفاظ الآية ، ونقل كلام المفسرين فيها .

- ثالثاً : أدون ما لمح لي من تناسق بين ألفاظ الآية ، وما أشار إليه المفسرون قدر الإمكان .

- رابعاً : في كل المقاطع أربط ما مر فيها بإجمال .

وفي الختام أحمد الله العظيم ، وأشكره على نعمه العظام ، وآلائه الجسام، وأسأله التوفيق والسداد في أمور كلها .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل والدعاء الخالص لوالدي الجليلين ، واسأل الله أن يمد أبي بالصحة والعافية ، والعمل الصالح ، وأن يرحم أمي برحمته الواسعة ، وأن يسكنها الفردوس الأعلى في الجنة ، وأن يجزيهما عني خير ما جزا محسناً على إحسانه .

كما أشكر جامعة أم القرى متمثلة في كلية الدعوة وعمادة الدراسات العليا ، وعلى وجه الخصوص قسم الكتاب والسنة الذي أتاح لي هذه الفرصة .

كما أشكر لشيخي الفاضل الدكتور زياد الدغامين الذي كان عوناً لي بعد الله في تذليل صعوبات البحث ، مع تشجيعه وتحفيزه الدءوبين ، وتصويباته المسددة ، وسماحة نفسه ، وعلو أخلاقه ، فجزاه الله خير الجزاء ، ونفع به الإسلام والمسلمين ، والشكر موصول إلى فضيلة الشيخين الكريمين المناقشين لهذه الأطروحة ، وتفضلهما بقراءتها وإبداء ملاحظاتهما وتوجيهاتهما المفيدة ، فجزاهما الله خير الجزاء .

وأخيراً أختم بالشكر لرفيقة دربي وأبنائي الأعزاء ، وكل من شاركني وأعانني من زملاء ومشايخ فضلاء ، كتب الله للجميع الأجر والمثوبة ، وتقبل مني هذا العمل المتواضع ، وغفر لي ما وقع من زلل أو خطأ . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

مقدمه الطالب / محمد بن عزيز القرشي

الباب الأول

التناسق الموضوعي: مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول:

التمهيد: **التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحا**.

الفصل الأول: **اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها**.

الفصل الثاني: **مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به**.

الفصل الثالث: **أسباب نزول السورة ومقاصدها وأهدافها**.

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً

التناسق في اللغة:

«نسق» النَّسَقُ من كل شيء ما كان على طريقة نِظامٍ واحد عامٌّ في الأشياء وقد نَسقْتُه تَنْسِيقاً ويخفف ابن سيده نَسَقَ الشيء يَنْسُقهُ نَسْقاً ونَسَّقه نظَّمه على السواء وانْتَسَق هو وتَناسَق والاسم النَّسَقُ وقد انْتَسَقت هذه الأَشياء بعضُها إلى بعض أَي تَنَسَّقَتْ والنحويون يسمون حروف العطف حروف النَّسَقِ لأَن الشيء إذا عطفْت عليه شيئاً بعده جَرى مجرًى واحداً، وروي عن عمر رضي الله عنه أَنه قال: «ناسِقوا بين الحج والعمرة» قال شمر: معنى ناسِقوا وواتِرُوا يقال: ناسَقَ بين الأَمرين أي تابع بينهما، وثَغْر نَسَق إذا كانت الأَسنان مستوية، ونَسَقُ الأَسنان انتظامها في النِّبْتِةِ وحسن تركيبها، والنَّسْق العطف على الأول، والفعل كالفعل وثغر نَسَق وخَرزُ نَسَق أَي منتظم قال أَبو زبيد:

بجِيدِ رِيْمٍ كريم زانَهُ نَسَقٌ ... يكاد يُلْهِبه الياقوتُ إلهابا

والتَّنْسِيقُ التنظيم والنَّسَق ما جاء من الكلام على نِظام واحد، والنَّسْق بالتسكين مصدر نَسَقْتُ الكلام إذا عطفت بعضه على بعض ويقال نَسَقْتُ بين الشيئين وناسَقْتُ»(١).

---

(١)ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري.لسان العرب، =

والنَّسَقُ محرَّكَةً: «ما جاءَ من الكلامِ على نِظامٍ واحدٍ و من الثُّغورِ: المُسْتَوِيَةُ، و منَ الخرَزِ: المُنَظَّمُ، وكَواكِب الجَوْزاءِ،أو هي بضَمَّتَيْنِ، و من كُلِّ شيءٍ: ما كانَ على طَريقَةِ نِظامٍ عامٍّ.

والتَّنْسيقُ: التَّنْظيمُ. وناسَقَ بَيْنَهُما: تابَعَ. وتَناسَقَتِ الأَشْياءُ، وانْتَسَقَتْ، وتَنَسَّقَتْ بعضُها إلى بعضٍ: بمَعْنًى»[1].

نخلص إلى أن النسق في اللغة:ما جاء من الكلام على نظام واحد متتابع، معطوف بعضه على بعض، ليخرج الكلام بوحدة متناسقة.

التناسق في الاصطلاح:

تسلسل الألفاظ، والمعاني الواردة في السورة، وتتاليها بحيث تكون كل جملة آخذة بعنق الأخرى إلى أن يتلاحم بعضها ببعض فلا يكون منها شيء خارج السياق.

أو هو بناء الكلام الذي يتسم بالتناسق بين أجزائه، والترابط المعنوي بين ألفاظه .

الموضوع في اللغة:

«وضع» الوَضْعُ ضدّ الرفع، وضَعَه يَضَعُه وَضْعاً ومَوْضُوعاً، وأَنشد ثعلب بيتين فيهما :

بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠م ج١٤ صـ ٢٤٧، المعجم الوسيط ج٢ صـ ٩١٩.

(١) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ ج٢ صـ ١٢٢٦.

«مَوْضُوعُ جُودِكَ ومَرْفوعُه»

عنى بالموضوع ما أَضمره ولم يتكلم به والمرفوع ما أَظهره وتكلم به والمواضِعُ معروفة واحدها مَوْضِعٌ واسم المكان المَوْضِعُ [1] .

الموضوع في الاصطلاح:

«الموضوع» المادة التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه [2] .

السورة في اللغة:

للسورة في لغة العرب معنيان: **أولهما**: «السورة» بلا همز، وهي الأشهر، **والثانية**: (السؤرة) مهموزة .

أما الأولى التي لا تهمز: فقد قالوا في اشتقاقها أقوالاً عديدة :

أولاً: السورة: الرفعة والمنزلة والشرف، وهي مأخوذة من سورة البناء وهي «منزلة بعد منزلة» وبه سميت سورة القرآن لجلاله ورفعته» [3] .

---

(١)ابن منظور، لسان العرب، ج١٥ص ٢٣٠

(٢)إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، المعجم الوسيط، دار النشر: دار الدعوة ،تحقيق مجمع اللغة العربية ج٢ صـ ١٠٤٠.

(٣) الأزهري، أبومنصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، مادة (س و ر) في تهذيب اللغة ج١٣ صـ٥٠، الجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطاء، دار العلم –بيروت ، ١٤٠٧هـ، ج٢ صـ٦٧، ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م. ج٣ صـ ١١٥، اللسان ج٤ صـ ٣٨٦، الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، الزبيدي، تاج العروس، =

أَلَمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَـــاكَ ســـورَةً تَـرى كُـلَّ مَلْـكٍ دُونَهـا يَتَذَبْـذَبُ

يريد: رفعة ومنزلة [١].

ثانياً: وقيل:سميت سورة القرآن تشبيهاً لها بسور المدينة، لكونها محيطة بآيات وأحكام[٢].

ثالثاً: وقيل لتركيب بعضها على بعض، من التسور بمعنى التصاعد والتركب[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾[٤].

رابعاً: وقيل: السورة العلامة[٥].

وأما الثانية: أي التي تهمز فهي من «أسأرت» أي أفضلت من السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، فالسورة سميت سؤرة، لأنها قطعة من القرآن على حدة [٦].

تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية. ج١٢ صـ١٠٢، مفردات الأصفهاني صـ٢٥٤، ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن قتيبة، تفسير غريب القرآن القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٣هـ-١٩٨١م، صـ٣٤.

(١) للنابغة الذبياني، انظر ديوان النابغة الذبياني صـ١٨.

(٢)تهذيب اللغة ج١٣ صـ٤٩، وتاج العروس ج ١٢ صـ ١٠٢

(٣)السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. الإتقان، بيروت:المكتبة العصرية،١٤٢٤هـ ج١ صـ ١٥٠.

(٤) سورة ص، الآية: ٢١.

(٥)تاج العروس ج ١٢صـ ١٠٢.

(٦)تهذيب اللغة ج١٣ صـ ٥٠ ، اللسان ج٤ صـ ٣٨٦، وتاج العروس ج ١٢ صـ ١٠٢.

السورة في الاصطلاح:

طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع [١].

قال الجعبري [٢] : حدَ السورة قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات. [٣]

(١)الزرقاني، محمد عبد العظيم الزرقاني. مناهل العرفان، دار إحياء الكتب العربية،ج١ صـ ٣٥٠.

(٢) الجعبري: إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل، برهان الدين، أبو محمد الجعبري، الخليلي الشافعي، صاحب المصنفات الكثيرة في القراءات وغيرها ت سنة ٧٣٢هـ. انظر: طبقات القراء ج١صـ٢١، البداية والنهاية ج١٤صـ ١٦٧.

(٣)الإتقان ج١ صـ ١٥٠.

الفصل الأول

اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: **اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء** .

المبحث الثاني: **ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها** .

المبحث الثالث: **عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك** .

المبحث الرابع: **تاريخ نزول السورة الكريمة** .

المبحث الأول

اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء.

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

المطلب الأول: **الفوائد والحِكم من تسوير السور.**

المطلب الثاني: **مصدر أسماء السور** .

المطلب الثالث: **اسم السورة** .

تمهيد

إن المتأمل في الكتاب العزيز يجد أنه قد بلغ شأواً عظيماً في إعجازه بلغت كل جزئية فيه، حتى أصبح يتحدى بأسلوبه المعجز وروعة بيانه أهل اللغة وأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، فكانت أسماء سوره رمز التحدي والإعجاز .

ولهذا أعطى الإسلام للأسماء أهمية كبيرة، لأنها تحمل قدراً كبيراً من المعاني للمسميات ؛ وقد كانت أسماء السور في القرآن الكريم نموذج للإيحاء بالمعاني الجليلة التي ذكر بعضها وتُرك بعضها، ولذلك لكل سوره من سورة اسم يميزها عن غيرها .

قال الزركشي: «وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير مثل (الأعراف، وهود، والفرقان... وغيرها)، وربما اسمان كسورة البقرة يقال لها:فسطاط القرآن لعظمها وبهائها، وسورة النحل تسمى سورة النعم، وسورة فاطر تسمى سورة الملائكة.

وقد يكون لها ثلاثة أسماء كسورة المائدة، والعقود، والمنقذة. وقد يكون لها أكثر من ذلك كسورة براءة، والتوبة، والفاضحة، والحافرة.ثم قال : ينبغي البحث عن تعدد الأسامي: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات ؟ فإن كان الثاني فلن يُعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد» (١) .

---

(١)الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي. البرهان في علوم القرآن، دار الفكر،١٤٠٠هـ ج١ صـ٢٦٩- ٢٧٠.

المطلب الأول

الفوائد والحِكم من تسوير السور

تبرز أهميتها في الفوائد والحِكم التي تضمنتها:

منها: «التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وحفظه لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه وأعياهم أن يخوضوا عباب هذا البحر الخضم الذي لا يشاهدون فيه عن كثب مرافئ ولا شواطئ.

ومنها: الدلالة على موضوع الحديث و محور الكلام فإن في كل سورة موضوعا بارزا تتحدث عنه كسورة البقرة وسورة يوسف وسورة النمل وسورة الجن.

ومنها: الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطا في إعجازها بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر.

ومنها: أن القارئ إذا أتم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخا نفّس ذلك عنه ونشط للسير ومن ثم جزئ القرآن أجزاء وأخماسًا.

ومنها: أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله

طائفةمستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ومنه حديث أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا»[١]. ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل.

ومنها: أن التفصيل بحسب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحق المعاني والنظم إلى غير ذلك من الفوائد» اهـ[٢].

فالحاجة إلى تسوير السور أكيدة لما شملت من فوائد جمّة تبرز وجه من الإعجاز لكلام الله تعالى.

---

(١) رواه ابن حيان في صحيحه كما في الإحسان كتاب الرقائق باب قراءة القرآن ج ٣ صـ٧٤٤ فيه «عُدّ فينا» بدل «جدَّ فينا» وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط وكذا صححه هو ومن معه في تحقيق مسند أحمد برقم ١٢٢١٥ج ١٩ صـ٢٤٧ عند تعليقهم على هذا الحديث.

(٢)مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١ صـ ٣٥١-٣٥٢.

المطلب الثاني

مصدر أسماء السور

جمهور أهل العلم من أهل القرآن وعلومه على أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفية من النبي ﷺ حيث جعل ﷺ لكل سورة اسماً خاصًّا بها، ودليله أن تسمية السور قد اشتهرت فيها الروايات الكثيرة التي تفيد أن جبريل عليه السلام كان يعلِّم الرسول ﷺ القرآن ويبين له موضع السور ويأمره بوضع الآيات المنزلة في سورتها المذكورة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

والرسول ﷺ أمر أصحابه أن يضعوها في مكانها من سورة كذا ويسميها باسمها، وذلك أمر لازم لإثبات الآيات وتمييزها عن غيرها. من ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه لما نزلت آخر آية وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾[2] قال جبريل للنبي ﷺ: «**ضعها في رأس ثمانين ومائتين من سورة البقرة**»[3]،وكذا الأحاديث

---

(١) سورة الحجر: آية (٩)

(٢) سورة البقرة: آية (٢٨١)

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧١) حديث رقم (١٢٠٤٠) عن محمد بن السائب، وذكره القرطبي في تفسيره عن أبي صالح (٣/ ٣٧٥) على القول بأنها من آخر ما نزل. انظر:

=

الصحيحة الـواردة في فـضائل الـسورة،والتي سـماها النبـي ﷺ بأسـمائها،كل ذلـك يعضد ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن أسـماء الـسور تـوقيفي لا مجـال فيـه للاجتهاد.

الدوسري: د/ منيرة بنت ناصر الدوسري. أسماء سور القرآن وفضائلها، رسالة دكتوراه، مطبـوع، دار ابن الجوزي،١٤٢٦هـ صـ٧٣-٧٤.

المطلب الثالث

اسم السورة

سورة الأحزاب ليس لها اسم غير هذا الاسم. قال ابن عاشور: «هكذا سميت سورة الأحزاب في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة، وكذا رويت عن ابن عباس وأبي بن كعب بأسانيد مقبولة. ولا يعرف لها اسم غيره»(١).

فعن زر قال: «قال لي أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب أو كائن تعدها ؟ قال: قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. قال: قطّ، لقد رأيتها وإنها لتعدل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله، والله عزيز حكيم)»(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الأحزاب بالمدينة» (٣)

---

(١)ابن عاشور: محمد بن الطاهر ابن عاشور. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون، ج٨ صـ٢٤٥.

(٢)ابن حنبل: أحمد أبو عبد الله الشيباني. مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة ، حديث رقم(٢١٢٠٧) ج٣٥ صـ ١٣٤،والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب، حديث رقم (٣٥٥٤) ج٢ صـ ٤٥٠.

(٣)ابن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط قال«إسناده ضعيف»، مؤسسة الرسالة ،ج٥ صـ ١٣٢. النسائي: السنن الكبرى كتاب الرجم نسخ الجلد عن الثيب برقم ٧١٥٠ ج٤ ص٢٧١، ج٤ صـ٢٧١ ،ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي. صحيح بن حبان، =

وكذلك ما جاء في صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: «فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف»[1].

أما ما ذكره وهبة الزحيلي بأن لها اسم آخر (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين وأبانت شدة إيذائهم للرسول ﷺ وللمؤمنين،و تألبهم في وقعة الأحزاب.[2] فقوله هذا مبني على الاستنتاج والاجتهاد وذلك بالنظر إلى موضوع السورة إلا أنه لم يرد أثر يؤيده.

ترتيب علي بن بلبان، مؤسسة الرسالة، رقم ٤٤٢٩ ،ج١٠ صـ ٢٧٤ ، الحاكم: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٩٠م، رقم ،٥٥٤ج٢ صـ٤٥٠ . البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي. سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤، ج٨ صـ ٢١١رقم ١٦٦٨٨ .والبيهقي أيضاً من طريق عاصم .

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري،في (باب غزوة أحد) رقم (٣٨٢٣) وفي (باب جمع القرآن) برقم (٤٩٨٨) بيروت: مكتبة عباس أحمد الباز. مكة المكرمة ج٣صـ٣٤٤

(٢) انظر: الزحيلي: د وهبة. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق:دار الفكر، ٢٠٠٣م ج ١١ صـ ٢٤٤.

المبحث الثاني

ما ورد في فضل السورة

من البديهيات المسلم بها ،أن النفس البشرية جبلت على حب الفضيلة،والترغيب فيها مع احتياجها بين الفينة والأخرى للمرغبات والمحفزات، ومن أعظم ما تحفز إليه النفس البشرية وترغب فيه القرآن الكريم تلاوةً وحفظاً وتدبراً وعملا. لذا اهتم جمع من أهل العلم بالتصنيف في فضائل الكتاب العزيز وسوره لإدراكهم رحمهم الله جميعاً بأنه دافع عظيم للمسلم ليقبل على كتاب ربه، ومن هنا اكتسبت الفضائل الأهمية والخصوصية بين علوم القرآن الكريم.

أما عن ما جاء في فضل سورة الأحزاب فلم أقف بعد البحث في ما كتب في فضائل سور القرآن وما أورده بعض المفسرين إلا على الحديثين التاليين:-

١-قال الثعلبي : أخبرني محمد بن القاسم بن أحمد بقراءتي عليه قال: حدّثنا عبدالله بن أحمد بن جعفر قال: أخبرني أبو عمرو الحميري وعمرو بن عبدالله البصري قالا: قال محمد بن عبد الوهاب العبدي، عن أحمد بن عبدالله بن يونس، عن سلام بن سليم، عن هارون بن كثير، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن (أبي أُمامة) عن أُبَي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة الأحزاب وعلَّمها أهله وما ملكت يمينه أُعطي الأمان من عذاب القبر**». [1]

---

١)الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري. الكشف والبيان، دار إحياء

=

التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م ج٨ صـ ٥ وانظر: النعماني: أبو حفص عمر بن علي. تفسير اللباب في علوم الكتاب، مكتبة الباز، مكة المكرمة، تحقيق عادل أحمد، وعلي محمد، ج١٥ صـ ٥٩٩. وانظر: أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث الإسلامي، ج٧ صـ١١٧. وانظر:البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين، عبدالله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ، ج٤ صـ ٣٨٩.والحديث موضوع .

وحديث أبي ابن كعب من قرأ سورة كذا، اعطي من الآخر كذا فذكرفضل سور القرآن سورة سورة من أوله الى آخره، كما ذكر من سبق ذكرهم وهو من الأحاديث الموضوعة في فضائل القرآن، وله طرق كلها باطلة وموضوعه وقد أورده ابن الجوزي في كفاية الموضوعات وقال«وقد فرق هذا الحديث أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره فذكر عن كل سورة منه ما يخصها وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داوود كيف فرقه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث محال، ولكن نشره جمهور المحدثين فإن من عادتهم تنفيق حديثهم ولو بالبواطيل، وهذا قبيح منه لأنه قد صح عن رسول اللهﷺ أنه قال «من حدث عني حديثا يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»، وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفي إسناد الطريق الأول بديع ابن حبان وقد قال عنه الدار قطني: إنه متروك،وفي الطريق الثاني: مخلد ابن عبد الواحد وقال عنه ابن حبان: منكر الحديث جدا لينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة وقد روى البديع والمخلد هذا الحديث عن علي ابن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي ابن زيد ليس بشيء، حتى قال في متن الحديث: ونفس الحديث يدل على أنه مصنوع، فإنه قد استنفذ السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها في الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة لا يناسب كلام رسول اللهﷺ، وقد روى في فضائل السور أيضا ميسرة بن عبد ربه قال عبد الرحمن بن مهدي قلت لميسرة من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا، قال وضعته أرغب الناس فيه، ونقل عن ابن المبارك أنه قال أظن الزنادقة وضعته ،وروى عن علي بن أحمد الحماهي عن محمود بن غيلان يقول سمعت مؤملا يقول حدثني شيخ بفضائل سور القرآن الذي يروى

=

٢-حديث علي: «**يا عليّ مَنْ قرأَ سورة الأَحزاب قال الله لملائكته: اشهدوا أَنَّ هذا قد أَعتقتُه من النَّار، وكان يوم القيامة تحت ظلِّ جناح جَبْرائيل، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب البارِّ بوالديه**»[(١)]

والحديثان قد قدح فيهما أهل العلم كما يتبين من تخريجهما،

وبهذايتبين أن هذه السورة وآياتها لم يرد فيها حديث صحيح يخصها بالفضل عن غيرها من سور القرآن وأنها من ضمن سور القرآن التي ورد الفضل فيها في الكتاب العزيز وعلى لسان النبي ﷺ لما اشتملت عليه من مقاصد وأحكام وتوجيهات.

عن أبي ابن كعب،فقلت للشيخ من حدثك؟ فقال حدثني رجل بالمداين وهو حي فصرت إليه فقلت من حدثك؟ قال حدثني شيخ بواسط وهو حي فصرت إليه حتى قال حدثني شيخ بعبادان فصرت إليه، فأخذ بيدي فأدخلني بيتاً فإذا فيه قوم من المتصوفة ومعهم شيخ فقال: هذا الشيخ حدثني، فقلت يا شيخ من حدثك؟ فقال لم يحدثني أحد ولكن رأيت الناس قدرغبوا من القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا وجوههم إلى القرآن/ ابن الجوزي :أبو الفرج عبد الرحمن محمد بن عثمان القرشي ،الموضوعات،تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ،المكتبة السلفية –المدينة ، ج١ ص٣٩-٤٠-٢٤١ . والكناني، علي بن محمد بن عرّاف، تنزيه الشريعة المرفعة من الأحاديث الشنيعة الموضوعة، حققه عبدالوهاب عبداللطيف عبدالله الغماري، دار الكتب العلمية، ج١ ص٣٢٣.

(١) الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد النجار، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٣٨٣هـ، ج١ ٢٦٦ قال فيه: الأحاديث الموضوعة التي نذكرها للتنبيه عليها وذكر الحديث السابق وهذا الحديث، والحديث لم أقف عليه في كتب الحديث.

المبحث الثالث

عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك

وفيه تمهيد وخمسة مطالب :

المطلب الأول: **تعريف الآية في اللغة والاصطلاح**

المطلب الثاني: **فائدة علم عد الآيات**

المطلب الثالث: **ترتيب آيات القرآن**

المطلب الرابع: **سبب اختلاف العلماء في عد الآيات**

المطلب الخامس: **عدد آيات سورة الأحزاب**

تمهيد

يمكن القول بأن علم عدد آي السور قد أشار إليه القرآن،كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾(١).

فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّى قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي**» فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «**أَلَمْ يَقُلْ اللهُ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾» ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ**» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنْ المَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ فَقَالَ: «﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(٢) .

فقوله ﷺ: «**هي السبع المثاني**»، أي عدد آياتها سبع.

كما أشارت إليه السنة في جملة أحاديث منها:

ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْف عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ**»(٣).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

(٢) صحيح البخاري،كتاب التفسير، باب﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾،برقم ٤٧٠٣،ج٣ص٢١٩.

٣) صحيح مسلم،كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، دار ابن حزم-بيروت، دار الصميعي-الرياض،١٤١٦، برقم ٨٠٩،ج١ ص٤٦٥ .

المطلب الأول

تعريف الآية في اللغة والاصطلاح

في اللغة:

الآية تطلق على عدة معانٍ منها:

١-**العلامة**: ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] أي علامة ملكه.

والأصل أَوَيَةٌ بالتحريك. وجمع الآيةِ آيٌ وآياءٌ وآياتٌ وأنشد أبو زيد:

لم يُبْقِ هذا الدهرُ من آيائه غَيْرَ أَثَافيهِ وأرمدائه

٢-**الشخص والجماعة**: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم لم يدعوا وراءهم شيئ ،وآية الرجل شخصه إذا قصدت آيته وتعمدته. [2]

٣- **المعجزة**: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[3] أي معجزة واضحة.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٨

(٢) انظر الصحاح في اللغة ج١صـ ٢٩ وانظر: المعجم الوسيط،ج ١ صـ٣٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١١.

٤- **العبرة**. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾[١] أي عبرة لمن يعتبر.

٥- **البرهان والدليل**: نحو قوله جل ذكره: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[٢] والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان تلك كلها إطلاقات لغوية وقد يستلزم بعضها بعضا. [٣]

وفي الاصطلاح:

قال الجعبري: «حد الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديرا ذو مبدإ أو مقطع مندرج في سورة»[٤]

وقال غيره: «الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها»[٥].

وقال غيره: «طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن»[٦]

---

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الروم آية ٢٢.

(٣)مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١ صـ٣٨- ٣٣٩. وانظر: عبد الرزاق موسى: عبدالرزاق على موسى.المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز، مكتبة المعارف، الرياض صـ٤١.

(٤)الإتقان في علوم القرآن، ج١، صـ١٨٧.

(٥) المصدر نفسه صـ١٨٨.

(٦)مناهل العرفان، ج١ صـ٣٣٩

المطلب الثاني

فائدة علم عدّ الآي

١- قال السيوطي ما نصه: «يترتب على معرفة الآي وعددها وفواصلها أحكام فقهية منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات، ومنها اعتبارها في الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة وكذا الطويلة على ما حققه الجمهور .

ثم قال: ومنها اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها وفي الصحيح أنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة، ومنها اعتبارها في قراءة قيام الليل إلى آخر ما قال»[1]. اهـ.

٢- العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ، وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدي بالسورة الواحدة فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2] والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر وهي ثلاث آيات قصار. فثبت أن كل ثلاث

---

(١) السيوطي، الإتقان، ج١، صـ ١٩٦.

(٢)سورة البقرة آية رقم ٢٣.

آيات قصار معجزة وفي قوتها الآية الواحدة الطويلة التي تكافئها»[1].

٣-«أنه لو لم يُعرف العدد لما عُلم الناسخ والمنسوخ.

٤-اعتبار علم العدد في باب الإمالة، وبخاصة عند من له الإمالة في رؤوس الآي في السورة المخصوصة، وأعني أبا عمرو البصري وورشاً حيث لهما التقليل في ذلك.

فلو لم يعرف الطالب أو القارئ رؤوس الآي عند المدني الثاني والبصري لما استطاع ما يقلل باتفاق أو بالخلاف»[2].

(١) الزرقاني: مناهل العرفان ج١ صـ٣٤٤-٣٤٦.

(٢)عبد الكافي: عمر بن محمد بن عبد الكافي. عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، تحقيق:خالد حسن أبو الجود، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، رسالة علمية إشراف أد أحمد المعصراوي،صـ ١٧-١٨.

المطلب الثالث

ترتيب آيات القرآن

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله تعالى وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه. بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها. ثم يقرؤها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معينا لهم السورة التي تكون فيها الآية وموضع الآية من هذه السورة. وكان ﷺ يقول: «**ضعوا آية كذا في سورة كذا**»[1] وكان يتلوه عليهم مرارا وتكرارا في صلاته وعظاته وفي حكمه وأحكامه.

وكان يعارض به جبريل كل عام مرة وعارضه به في العام الأخير مرتين.

---

(١) ابن حنبل: مسند أحمد برقم ٤٩٨ ج١ صـ ٥٢٩، رقم ٤٩٩ ضعفه الأرنؤوط، انظر: وأبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي دواود، دار الكتاب العربي –بيروت، برقم ٧٨٦، ج١صـ ٢٠٨، ضعفه الألباني. انظر: الترمذي: محمد بن عيسى السلمي، سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، تحقيق أحمد محمد شاكر كتاب التفسير، باب ١٠، من سورة التوبة، برقم ٣٠٨٦، ج٥ صـ٢٥٤، ضعفه الألباني، والنسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٩١م كتاب فضائل القرآن، السورة التي يذكر فيها كذا برقم ٨٠٠٧ ج٥ صـ١٠ . هذا الحديث يدور إسناده على يزيد الفهرسي الذي رواه عن ابن عباس تفرد به عنه عوف ابن أبي جميلة وهو ثقة ويزيد ذكره البخاري في الضعفاء فلا يقبل تفرده واختلف فيه هل هو يزيد بن هرمز الذي وثقه ابن شهاب أم لا. الجرح والتعديل ٩/ ٢٩٣

كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف. وممن حكى هذا الإجماع جماعة منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصه: « ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين». واستند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ما سبق لك قريبا ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: «**أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة:** ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾» [1] إلى آخرها.[2] ومنها ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءة النبي ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء،وغير ذلك على الترتيب المعروف وذلك بمشهد من الصحابة الذين أخذوا عنه ونُقل ذلك عنهم نقلاً متواتراً [3].

---

(١) سورة النحل آية (٩٠)

(٢)ابن حنبل: المسند، برقم ١٧٩١٨ ج٢٩ ص٤٤١. وانظر: الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ج٦ صـ٤١٩، قال: رواه أحمد والطبراني،وشهر وثقه أحمد وجماعة وفيه ضعف لا يضر، وبقية رجاله ثقات، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد ومجموعة، دار عالم الكتب بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة، ج٨ صـ ٣٤٦، قال وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين والله أعلم.

(٣)السيوطي: الإتقان ج١ صـ ١٨٨،وانظر: الزرقاني: مناهل العرفان: ج١ ٣٤٦-٣٤٧.

المطلب الرابع

سبب اختلاف العلماء في عدّ الآي

قال الإمام السيوطي -رحمه الله - نقلاً عن بعض العلماء: «سبب اختلاف السلف في عدّ الآي أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا عُلم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة ». [1]

«فمن نظر إلى الوقف قال إنها رأس آية، ومن نظر إلى الوصل لم يقل إنها آية، فما ثبت أن النبي ﷺ كان يقف دائماً عليه يعتبر فاصلة، وما وصله دائماً ليس فاصلةً، والذي وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوجهين، أعني احتمل الوقف للفاصلة أو للاستراحة، واحتمال الوصل لغير الفاصلة، أو أنها فاصلةٌ وُصِلت، وهذا كلّه لا غضاضة فيه ولا محظور، لأنه لا يؤدي إلى الزيادة ولا النقصان في القرآن الكريم، إذ هو لا يدل إلا على تعيين محلّ الفصل أو الوصل والقرآن الكريم محفوظٌ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل».[2]

---

١) المرجع السابق ج١ صـ ١٨٩.

٢) عبد الكافي: عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، صـ ٢٤-٢٥.

المطلب الخامس

عدد آيات سورة الأحزاب

سورة الأحزاب عدد آياتها ثلاثة وسبعون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف [١].

أما الروايات التي وردت في عدد آيات السورة يمكن حصرها في روايتين:

الأولى: قال عبدالله بن أحمد : نا خلف بن هشام نا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر قال: «قال لي أبي بن كعب كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدها قال : قلت له : ثلاثا وسبعين آية ، فقال : قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عليم حكيم)» [٢]

---

(١)الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي. البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث – الكويت – ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م صـ ٢٠٨.وانظر:الرازي: أبوعبدالله محمد بن عمر.التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار إحياء التراث، ج١ صـ ٣٦٢٣. وانظر: البيضاوي، تفسير البيضاوي، ج٤ صـ٣٦٢. وانظر: الشربيني: محمد بن أحمد الخطيب. تفسير السراج المنير،ج٣ صـ١٣٣. وانظر: القرطبي:أبو عبدالله محمد بن أحمد.الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ج١٤ صـ١٣٣. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١١ صـ١١١. وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،ج٢١ صـ١٧٥.وغيرها.

(٢) سبقتخريجه ص ٣٣

الثانية: عن ابن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت:« كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن». [١]

ويمكن مناقشة الروايتين على النحو التالي:

الرواية الأولى:أولاً من حيث السند فسنده كما قال الحاكم في المستدرك هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الذهبي في تعليقه على التلخيص: «صحيح »[٢]،وقال ابن كثير : «وهذا إسناد حسن »[٣]، وقال ابن حزم : قال علي: «هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه فهذا سفيان الثوري ، ومنصور: شهدا على عاصم وما كذبا ، فهما الثقتان ، الإمامان ، البدران – وما كذب عاصم على زر ، ولا كذب زر على أبي» [٤]

وبهذا كله فإن سند هذه الرواية حسن لذاته لأنه قد شهد بعض أهل العلم

(١)ابن سلام: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. فضائل القرآن، حققه مروان العطية وآخرون، دار ابن كثير –دمشق –بيروت، صـ ٣٢٠. السيوطي: الإتقان، ج٣ صـ٧٢. انظر:القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤ صـ٧٦.وانظر: الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير، دار عالم الكتب للنشر – الرياض، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م،ج٤ صـ ٢٥٩. انظر: ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. المحلى،دار الفكر للنشر، ج ١١ صـ ٢٣٦.

(٢)الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج٢ صـ ٤٥٠.

(٣)ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،ج ١١ صـ ١١١.

(٤)ابن حزم، المحلى، ج ١١ صـ ٢٣٦.

بأن عاصم روايته ترتقي إلى الحسن والله أعلم.

ثانياً:المراد من قول أُبي في النسخ فقد وجه جمع من أهل العلم قوله كالقرطبي حيث قال: «أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن» (١)،وابن حزم يقول: «ولكنها نسخ لفظها وبقي حكمها ، ولو لم ينسخ لفظها لأقرأها أبي بن كعب زرا بلا شك ، ولكنه أخبره بأنها كانت تعدل سورة البقرة ، ولم يقل له: إنها تعدل الآن – فصح نسخ لفظها» (٢).

ويقول ابن كثير: «وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم »(٣).

ويقول ابن عاشور: «و محمل الخبر عند أهل العلم أن أبيا حدث عن سورة الأحزاب قبل أن ينسخ منها ما نسخ. فمنه ما نسخت تلاوته وحكمه ومنه ما نسخت تلاوته خاصة مثل آية الرجم»(٤).

الرواية الثانية: أولاً: هذه الرواية التي رواها القرطبي وغيرها في سندها عبد الله بن لهيعة ولا يخفى على طلاب العلم حال الرواية إذا كانت عن طريق بن لهيعة.

فقد قال البخاري، عن الحُمَيديِّ قال: «كان يحيى بن سعيد لا يراهُ شيئاً».

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤ صـ٧٦.

(٢)ابن حزم، المحلى، ج ١١ صـ ٢٣٦.

(٣)ابن كثير:تفسير القرآن العظيم،ج ١١ صـ ١١١ .

(٤)ابن عاشور: التحرير والتنوير،ج٢١ صـ ٢٤٦.

ويحي بن سعيد هو: القطان... أمير المؤمنين في الحديث.... شيخ الإمام أحمد، ويحيى بن معين.

وقال يحي بن معين: «ابن لهيعة ضعيف الحديث».

وقال النسائي: «عبد الله بن لهيعة ضعيف». [١]. [٢] [٣]

١) الجرجاني: عبد الله بن عدي الجرجاني أبو أحمد الكامل في ضعفاء الرجال ،المحقق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، المكتبة الوقفية، ج ٤ صـ ١٤٤-١٤٥.

(٢)المزي: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي. تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٠ه- ١٩٨٠م، ج١٥ صـ ٤٨٧.

(٣) قال الذين حققوا كتاب الإتقان للسيوطي بمركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف ج٤ صـ١٤٥٦: «في إسناده ابن لهيعة اختلط بعد احتراق كتبه وهو ضعيف إلا أن طول سورة الأحزاب يشهد له حديث أبي رضي الله عنه السابق، لكن آخر الحديث ضعيف ليس له شاهد ولا متابع. وهو يوهم أنها كانت موجودة ولم يقدر عثمان عند جمعه للقرآن إلا على القدر الموجود الآن، ويرد هذا الوهم ما صرح العلماء به وهو نسخ ما زاد على ما في المصحف من سورة الأحزاب تلاوةً وحكماً ما عدا آية الرجم فإنها نسخت تلاوتها وبقي حكمها كما في الصحيحين وغيرهما من الكتب الستة. قال البيهقي « آية الرجم حكمها ثابت وتلاوتها منسوخة وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً » السنن الكبرى. وانظر: مكي: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي. الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المنار، جده، صـ ٥٣. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.نواسخ القرآن،تحقيق: محمد أشرف علي الملباري،الجامعة الإسلامية بالمدينة، رسالة ماجستير، أشراف د: أحمد إبراهيم مهنا، صـ١١٤. وانظر: ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني. فتح الباري، دار الريان، القاهرة، ج١٢ صـ١٤٤. ثم إن هذا مخالف لما وعد الله من تكفله بحفظ القرآن وبأن النسخ لا يقع إلا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يتصور أن يذهب بعض القرآن على الصحابة ؟ (هذا باطلٌ من القول).

ثانياً: وأما ما يحكى أن تلك الزيادة التي رويت عن عائشة كانت مكتوبة في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن، أي الشاة، فمن تأليفات الملاحدة والروافض[١].

ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي ﷺ أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ[٢].

---

(١)الزمخشري:أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري. الكشاف، ج٥ صـ ٣٠٦، القرطبي: جامع أحكام القرآن، ج١٤ صـ ١١٣.

(٢)ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢١ صـ ٢٤٥.

المبحث الرابع

تاريخ نزول السورة الكريمة

لقد عاشت الجزيرة العربية قبل مبعث النبي ﷺ في جاهلية جهلاء، وعصبية مقيتة، وقتل وسفك للدماء، وانتهاكٍ للحريات مما أشاع التعبد لغير الله، والتعلق بالأصنام والأشجار والأحجار، مع ما يعيش الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي من استبدادٍ وظلمٍ للحقوق، ونشر للرذيلة حتى سمي ذلك المجتمع بالمجتمع الجاهلي .

فهيأ الله تبارك وتعالى بقدرته وحكمته وما سبق في علمه مبعث النبي الأمي العربي محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي الذي جاء بالنور المبين، فهدى الله به من الجهالة، وأنقذ به من الضلالة، فبدأ بصيص النور يشع من مهبط الوحي مكة المكرمة، ثم ينتقل إلى مهاجر النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، بعد أن قذف الله الإيمان في قلوب فتية آمنوا بالله ربهم ووحدوه وعبدوه،ونذروا أنفسهم لتبليغ دين ربهم، ونصرة نبيهم ﷺ، فكتب الله على أيديهم زرع نواة الإسلام الأولى في يثرب التي هي جزء من الجزيرة العربية وقد أصابها ما أصاب الجزيرة إلا أنها تفضل عنها بدين اليهودية المحرف الذي وفد إليها، وزرع بين أهلها وسكانها التناحر، والتباغض والاختلاف الذي سطرته كتب التاريخ وخاصة ما وقع بين الأوس والخزرج والتي كان آخرها الواقعة العظيمة التي بسببها تم الاتفاق على تسويد ابن أُبي عليهم.

ولكن بمقدم نبي الهدى والرحمة المسداة الذي فرح بمقدمه مؤمنوها فقابلوه بالفرح والاستبشار، أزاح الله عنهم التناحر والتباغض بدخولهم في

الإسلام واستجابتهم لدعوة رسوله ﷺ فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ودعاةً إلى الحق ونصرته كما أصبحوا أعواناً له لتأسيس دولة الإسلام في المدينة النبوية.

مع ما وجد ﷺ من أصنافٍ أخر أظهرت الإسلام وأبطنت الكفر اشتدت عداوتها وحسدها على النبي ﷺ وصحابته الكرام وسعيهم في نشر الفرقة والتخذيل بين صفوف المسلمين وقد برز ذلك في أكثر من واقعة، وصنف آخر وهم اليهود أهل الحقد الدفين على الإسلام وأهله.

فكان من سياسته ﷺ لقيام دولة الإسلام حسن التصرف مع أهل النفاق، وعقد المعاهدات مع اليهود، ليتمكن من تأسيس دولته ونشر رسالته، ورد كيد مشركي مكة فوقعت بدر الكبرى وانتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه، فلم يهدأ لكفار قريش الأمر بل ازدادوا حنقاً وعداوةً على الإسلام وأهله.

فأعادوا الكرة في العزم على قتال المسلمين في غزوة أحد التي خرجوا منها منتصرين. فطمعوا في العودة ولكن خرج لهم النبي ﷺ ومن معه من الصحابة الكرام في حمراء الأسد مما أشعرهم بقوة المسلمين فولوا هاربين إلى مكة.

ثم توالت السرايا والبعوث في تلك الفترة وكان منها غزوة بني قينقاع وغزوة بني النضير التي كانت بسبب نقض يهود للعهود والمواثيق فتم إجلاؤهم من المدينة إلى خيبر.

وقد وصف المباركفوري تلك الفترة فقال: «فبعد أن عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود ـ الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم ـ لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا، ولم يتعظوا

بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر. فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين، ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم ـ تحرق هؤلاء اليهود أي تحرق.

وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة»[١].

روى ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبيد الله بن كعب بن مالك، ومحمد بن كعب القرظي، والزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، وغيرهم من علمائنا، وبعضهم يحدث مالا يحدث بعض قالوا: «أنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري[٢]، وحيي بن أخطب النضري[٣]، وكنانة بن الربيع بن أبي

---

(١) المباركفوري: صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مكتبة الرشد، الرياض، صـ٣١٤.

(٢) سلام بن أبي الحقيق النضري أبو رافع قتله الصحابة من الخزرج، وذلك بقيادة عبد الله بن عتيك الخزرجي الأنصاري، وكان أبو رافع عدواً لله ولرسوله، وكان قتله في خيبر بعد وقعة بني قريظة ذلك لأن الأوس قتلوا كعب بن الأشراف وكانت الطائفتان الأوس والخزرج تتسابقان في الخيرات. السيرة النبوية لابن حزم ٢/ ٢٧٤.

(٣) حيي بن أخطب بن سعية، وقيل سعنة بن عامر بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير

=

الحقيق [١]، وهوذة بن قيس الوائلي [٢]، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ.خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله» فقالت لهم قريش: «يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن و محمد أفديننا خير أم دينه؟» قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ

بن النحام بن ينحوم من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه السلام وهو من سبط لاوي بن يعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم. الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٠، أسد الغابة ٥/ ٤٩٠، الإصابة ٤/ ٣٤٦، كلهم ذكر ترجمته عند ذكر صفية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -.

١) كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق هو أحد اليهود من بني النضير، وكان قد خلف على صفية بعد سلام بن مسلمة القرظي، وقد جيء به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أيام خيبر وكان عنده كنز بني النضير فسأله عنه فجحده فأتى رجل من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة فأنكر وحفرت تلك الخربة فوجد بعض كنزهم، وأخيراً دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. السيرة النبوية ٤/ ٣٣٦، والمعارف لابن قتيبة ١٣٨.

٢) هوذة بن قيس الوائلي لم أجد له ترجمة في غير هذا المكان. السيرة النبوية ٣/ ١٤، وتفسير القرآن العظيم، وهو هناك هودة ١/ ٥١٣.

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ »[1].

قال ابن إسحاق: «فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واستعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ، وأنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه»[2].

كما أشار للسبب نفسه ابن القيم - رحمه الله -: حيث قال: «وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحد وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل فقد خرج أشراف اليهود إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ وحربه. وكان القرشيون قد جربوها واكتووا بنارها فصاروا يتهيبونها ويزهدون فيها. فزينها الوفد اليهودي وهون أمرها وقالوا: إنا سنكون معكم حتى نستأصله ».[3]

---

(١) سورة النساء الآية: ٥١.

(٢)ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري.السيرة النبوية، دار الجيل بيروت، ١٤١١هـ ج٤ صـ١٧١.

وقد أورد الطبري هذا الأثر في تفسيره «عن محمد بن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق بهذا الإسناد».ج١٩ صـ٣٠-٣١، كما أورده ابن كثير ج١١ صـ ١٢٢-١٢٣.عن ابن إسحاق أيضاً. وكذا ذكره جميع أصحاب المغازي والسير والتفاسير. وقد نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ج٧ صـ٣٩٣ هذا القول من مغازي موسى بن عقبة مما يؤيد ويقوي حديث الباب.

(٣)ابن القيم: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي. زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، ج٣ صـ٢٧٠-٢٧١.

ولعل ما سبق وصف موجز للجو الذي نزلت فيه سورة الأحزاب وبيان مجمل لسبب غزوة الأحزاب.

وقد عالجت سورة الأحزاب عدة قضايا في الواقع كانت بحاجة للمعالجة وإبداء المنهج الرباني الذي يتلهف الناس لمعرفته والعمل به لتهنأ لهم حياة يرفأ فيها أهلها برضا الرحمان الرحيم.

قال صاحب الظلال: «إن هذه السورة تتناول قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحديبية، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويراً واقعياً مباشراً. وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ.

ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة، فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة وفي حياة الدولة؛ ولم يتم استقرارها بعد ولا سيطرتها الكاملة. كالذي تم بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية، وللنظام الإسلامي.

والسورة تتولى جانباً من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة، وإبراز تلك الملامح وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة؛ وبيان أصولها من العقيدة والتشريع؛ كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها؛ وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي الجديد.

وفي ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة

الأحزاب، وغزوة بني قريظة، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما»[(١)] .

أما عن نزول سورة الأحزاب فهي من السور المدنية وعلى ذلك الإجماع، قال القرطبي: «مدنية في قول جميعهم» [(٢)] .

وهي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف كان نزولها بعد سورة آل عمران [(٣)]، أي أنها من أوائل السور المدنية إذ لم يسبقها في النزول سوى سورة البقرة والأنفال وآل عمران [(٤)]. قال ابن عاشور: «وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال، وقبل سورة المائدة وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة وهو الذي جرى عليه ابن رشد في «البيان والتحصيل». وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: أنها كانت سنة أربع وهي سنة غزوة الأحزاب » [(٥)].

ويبدو أن نزولها كان في الفترة التي أعقبت غزوة بدر إلى ما قبل صلح الحديبية .

ويمكن تحديد سنة نزولها من خلال تحديد زمن غزوة الخندق. التي قد

---

(١)سيد: سيد قطب. في ظلال القرآن،دار الشروق، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م،ج٥ صـ٢٨١٧-٢٨١٨.

(٢)القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٧ صـ ٧٦.

(٣)انظر :الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج١ صـ١٩٤. وانظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن،ج١ صـ ٢٧.

(٤)المرجع السابق.

(٥)ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢١ صـ ٢٤٥.

اختلف العلماء فيها وانحصرت أقوالهم فيما بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة النبوية الشريفة.

وقد ساق المدخلي [1] رأي كل فريق مع أدلته وترجيح ما يظهر بالدليل بعد المناقشة والتحليل حسب الإمكان فقال :

«أ- القائلون بأنها كانت سنة أربع:

الزهري ثم تابعه موسى بن عقبة صاحب المغازي قال ابن كثير : «وقد روى موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال : ثم كانت وقعة الأحزاب في شوال سنة أربع، وكذلك قال الإمام مالك بن أنس فيما رواه أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عنه»[2].

وقد ذكر البخاري رأي موسى بن عقبة في صحيحه فقال : «قال موسى بن عقبة : كانت في شوال سنة أربع» هكذا رواه تعليقاً وبه قال [3] أثبت ذلك الحافظ حيث قال: «ومال المصنف إلى قول موسى بن عقبة »[4]

١) المدخلي: إبراهيم بن محمد المدخلي. مرويات غزوة الخندق، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ١٤٢٤، رسالة ماجستير بإشراف د / عبد المحسن العباد،ج١ صـ ٦١- ٨٤.

(٢)ابن كثير. البداية والنهاية،تحقيق د/ أحمد أبو ملحم ومجموعة،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ه، ج٤ صـ٩٤.

(٣)البخاري: صحيح البخاري، (باب غزوة الأحزاب وهي الخندق) ج٣ صـ٤٤.

(٤)ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر السقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار السلام- الرياض ١٤٢١هـ ج٧ صـ٤٩٠.

وقد تابع هؤلاء في ذلك «ابن قتيبة والفسوي وابن حزم والنووي وابن خلدون» (١).

ولذلك قال ابن حزم: «والثابت أنها في الرابعة بلا شك مستدلاً بحديث ابن عمر الآتي. ثم عقب قائلاً فصح أنه لم يكن بينهما - أي بين أحد والخندق - إلا سنة واحدة فقط» (٢).

والقائلون بأنها كانت سنة أربع جميعهم يستدلون بحديث ابن عمر وهذا سياقه. قال البخاري رحمه الله : «حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله ، قال : أخبرني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه» (٣).

ب - القائلون بأن هذه الغزوة كانت في شوال سنة خمس:

أما الذين قالوا بأنها كانت سنة خمس فهم كثيرون وهم الجمهور كما قال

---

(١)ابن خلدون الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد الحضرمي الأشبيلي، تاريخ ابن خلدون،ج٢صـ٢٩.

(٢)ابن حزم:جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس،دار المعارف، صـ١٨٥.

(٣)روايته عند البخاري: في صحيحه، في (باب غزوة الأحزاب وهي الخندق) برقم (٤٠٩٧) ج٣ صـ٤٤.ورواه مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، شرح صحيح مسلم للنووي، في (باب بيان سن البيوع) برقم ١٨٦٨ج٣ صـ١١٨٤ وغيرهما.

ابن كثير[١]. ويتقدمهم إمام أهل المغازي ابن إسحاق، وعروة ابن الزبير، وقتادة، والبيهقي، وابن هشام، وغير واحد من العلماء سلفاً وخلفاً[٢].

وممن قال به من المعاصرين محمد محمد أبو شهبة[٣]، ومصطفى السباعي[٤].

وهكذا يتبين أن الكثرة الكاثرة هم القائلون بأنها كانت سنة خمس. قال الذهبي: «وهو المقطوع به»، وقال ابن القيم: «وهو الأصح»، وقال الحافظ: «وهو المعتمد» حكى ذلك كله القسطلاني[٥]. وقد أجابوا عن حديث عرض ابن عمر المتقدم مأولين له وقالوا: «يحتمل أنه عرض في أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الأحزاب في أواخر الخامسة عشرة، وهذا هو جواب البيهقي»[٦].

وعقب ابن كثير[٧] على قول ابن حزم المتقدم، والثابت أنها في الرابعة بلا شك بقوله: «هذا الحديث مخرج في الصحيحين، وليس يدل على ما ادعاه ابن

---

(١) ابن كثير: عماد الدين أبو النداء اسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دار أحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ ج٤ صـ٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق ج٤ صـ٧٤.

(٣)ابن أبي شهبه، السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة ج٢ صـ٢٢٨.

(٤) السباعي. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، صـ٨٨.

(٥) القسطلاني هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك.المواهب اللدنية، ج٢ صـ١٠٣.

(٦) البيهقي، دلائل النبوة، ج٣ صـ٣٩٥.

(٧) ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول صـ ٥٦، البداية والنهاية ٤/ ٩٤.

حزم، لأن مناط إجازة الحرب كان عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه. فلما كان ابن عمر يوم أحد ممن لم يبلغها لم يجزه. ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه».

وليس ينفي هذا أن يكون قد زاد عليها بسنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر من ذلك فكأنه قال: وعرضت عليه يوم الخندق، وأنا بالغ أو من ابناء الحرب.

وقال البيهقي: «ولا اختلاف بينهم في الحقيقة لأن مرادهم أن ذلك بعد مضي أربع سنين وقبل استكمال خمس» (١).

وقد أورد ابن حجر هذا الجواب عن البيهقي ومفاده: «بأن قول ابن عمر عرضت يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة أي دخلت فيها، وأن قوله عرضت يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة، أي تجاوزتها فألغى الكسر في الأولى، وجبره في الثانية، وهو شائع مسموع في كلامهم. وبه يرتفع الإشكال المذكور، وهو أولى من الترجيح (٢)

الخلاصة:

استعرضنا أدلة الفريقين، وتبين من ذلك أن الحق مع القائلين بوقوع هذه الغزوة في سنة خمس لما يأتي:

١- احتمال حديث ابن عمر لتأويلهم.

---

(١) البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي الشافعي، دلائل النبوة، ج٣ صـ٣٩٥.

(٢)انظر : ابن حجر. فتح الباري، ج٧ صـ ٤٩١-٤٩٢.

٢- إطباق أهل المغازي والسير والمؤرخين والعلماء من بعدهم على هذا الرأي.

٣- ما ذكر من مواعدة قريش لرسول الله ﷺ بعد أحد -بدر الموعد- يجعل ذلك واضحاً ومواعدة قريش لملاقاته ﷺ ساقها ابن حجر كاملة، وقد بين -رحمه الله- في المقدمة (١) أن ما يورده في كتابه منتزعاً من أمهات المسانيد، والجوامع والمستخرجات، والأجزاء، والفوائد بشرط الصحة أو الحسن.انتهى. فعلى هذا فإن سورة الأحزاب كان نزولها في سنة خمس للهجرة النبوية.

لاشك أن المتأمل في هذه الأحداث يلحظ أن المتابعة الدائمة من أعداء الإسلام لإخماده بعد أن عجزوا عن ذلك في مكة، بدأت مطاردتهم له في معقله الجديد بمدينة المصطفى ﷺ، بتحزيب الناس وصدهم عن الحق المبين، ووقعت تلك الغزوات،لأجل ذلك الهدف، والتي كان منها غزوة الأحزاب التي ذكرت في هذه السورة،ليبن الله تبارك وتعالى عنايته وحفظه لرسوله ﷺ،ليقوم بإبلاغ دين الحق للخلق أجمعين، وقد حقق الله له ذلك، وصد عنه كيد أعدائه، وأذيتهم،فنشر الله به الإسلام، وأخمد به عادات أهل الجاهلية، وضلالاتهم، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها،لا يزيغ عنها إلا هالك.

---

١)ابن حجر.هدي الساري،صـ٤.

الفصل الثاني

مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به.

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: **المكي والمدني في السورة .**

المبحث الثاني: **مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.**

المبحث الثالث: **وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات.**

المبحث الأول

المكي والمدني في السورة

وفيه تمهيد وأربعة مطالب :

المطلب الأول: **تعريفات المكي والمدني**

المطلب الثاني: **فائدة العلم بالمكي والمدني**

المطلب الثالث: **السبيل الموصل للمكي والمدني**

المطلب الرابع: **مدني سورة الأحزاب ومكيها**

تمهيد

لقد أُنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ مفرقاً لحكم ذكرها الله تبارك وتعالى منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾(١) أي: أنزلناه كذلك لتثبيت فؤادك بالوحي المتتابع الذي تتجدد به صلتك بالله عز وجل.

وكان نزول القرآن على نبيه ﷺ في مدى ثلاث وعشرين سنة تقريبًا، فبعضه نزل في مكة، وبعضه الآخر نزل بالمدينة بعد الهجرة، فكان ينزل عليه القرآن أينما أقام في السفر والحضر، فكان منه المكي والمدني.

والذي سيكون الحديث عنه من خلال المطالب التالية:

---

(١) سورة الفرقان، آية: (٣٢).

المطلب الأول

تعريفات المكي والمدني

قال الزركشي : «اعلم أن للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات :

١-المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار.

٢- المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

٣- المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة».[1]

(١)الزركشي. البرهان، ج١ صـ١٨٧، السيوطي.الإتقان، ج١صـ٢٣.

المطلب الثاني

فائدة العلم بالمكي والمدني

١- معرفة الناسخ والمنسوخ، فالمدني ينسخ المكي؛ إذ أن المتأخر ينسخ المتقدم.

٢- الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم؛ إذ أن معرفة مكان نزول الآية تعين على فهم المراد بالآية ومعرفة مدلولاتها، وما يراد فيها.

٣- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

٤- استخراج سيرة الرسول ﷺ، وذلك بمتابعة أحواله بمكة المكرمة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها.

٥- بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حيث إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني فحسب، بل تتبعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة وما كان بعدها، ما نزل بالليل وما نزل بالنهار، ما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء، إلى غير ذلك من الأحوال.

٦- معرفة أسباب النزول، إذ أن معرفة مكان نزول الآية توقفنا على الأحوال والملابسات التي احتفت بنزول الآية.

٧- الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف.[1]

١) الزركشي، البرهان، ج١ صـ١٨٧، السيوطي: الإتقان، ج١صـ٢٢، ابن عقيلة: محمد بن أحمد المكي. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، مجموعة رسائل جامعية، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ج١ صـ ٢٠٤، مناهل العرفان للزرقاني ١/ ١٩٥، والمكي والمدني لعبدالرزاق ١/ ١٣٤ رباني: محمد شفاعة، المكي والمدني، موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف،صـ ٤. تم جمعها ثم صغتها.

المطلب الثالث

السبيل الموصل للمكي والمدني

يقول الزرقاني: «لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك لأنه لم يرد عن النبي ﷺ بيان للمكي والمدني. وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عيانا. وليس بعد العيان بيان».[1]

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: «إنما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن النبي في ذلك قول لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول».[2]

وقد أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت

(١)الزرقاني. مناهل العرفان، ج١ صـ ١٩٦.

(٢)الباقلاني: أبو بكر ابن الطيب. الانتصار للقرآن،تحقيق د/ محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، ج١ صـ٢٤٧.

إليه».[١]

وقال أيوب: «سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى سلع».[٢]

(١) انظر: البخاري. الجامع الصحيح، في (باب القراء من أصحاب النبي ﷺ) رقم ٥٠٠٢ ج٣ صـ٣٤٧.

(٢) انظر: أبو نُعيم.أحمد بن عبد الله الأصفهاني، الحلية، ج٣ صـ٣٢٧، قال من حققوا الإتقان هو من قول عكرمة فله حكم الرفع، ولا يقال مثله بالرأي فيكون مرسلاً والله أعلم.

المطلب الرابع

مدني سورة الأحزاب ومكيها

قال أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ : «حدثني يموت بن المزرع حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني أنبأنا أبو عبيدة معمر بن المثنى حدثني يونس بن حبيب سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول سألت مجاهدًا عن تلخيص آي القرآن المدني من المكي ، فقال : سألت ابن عباس عن ذلك ، فقال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ... ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث حتى قال ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم» (١)

فسورة الأحزاب مدنية بناء على الآتي:

١-قول ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١)النحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي. الناسخ والمنسوخ، تحقيق د/ محمد عبدالسلام محمد، مكتبة دار الفلاح _ الكويت، صـ٤١٥. في إسناده يموت بن المزرّع، قال الخطيب: وكان صاحب أخبار وملح وآداب وهو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ، وقال الذهبي العلامة الأخباري... الأديب... وما أعلم به بأساً. الخطيب البغدادي.أحمد بن علي أبوبكر. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية – بيروت، ج١٤ صـ٣٥٨-٣٥٩.

٢-انعقاد الإجماع عليه كما سبق بيانه عن القرطبي.[١] وبه قال أبو حيان[٢] والزركشي [٣]والسيوطي [٤]وابن عقيلة[٥]ويعتبر العمدة في ذلك.

٣- اجتمع في السورة الضابط الزماني المرتبط بغزوة الأحزاب ، والذي اعتمده العلماء المتأخرون، ومكان نزولها، وهو في المدينة فتكون مما نزل بعد الهجرة، والمتأمل في منهج السلف رحمهم الله ورضي عنهم كانوا يعتنون بذكر المكان ويعملون بالزمان في تطبيقاتهم التفسيرية.

(١)القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٧ صـ ٧٦.

(٢)أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. البحر المحيط، تحقيق د/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، ج٧ صـ٢٧٦.

(٣)البرهان ج١ صـ١٩٤.

(٤)الإتقان ج١ صـ٢٦.

(٥)الزيادة والإحسان ج١ صـ٢١٠.

المبحث الثاني

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.

وفيه تمهيد وسبعة مطالب :

المطلب الأول: **تعريف المناسبة في اللغة والاصطلاح.**

المطلب الثاني: **ثمرة علم المناسبات.**

المطلب الثالث: **أنواع علم المناسبة.**

المطلب الرابع: **شرف هذا العلم وفائدته.**

المطلب الخامس: **مناسبة سورة الأحزاب لما قبلها.**

المطلب السادس: **مناسبة سورة الأحزاب لما بعدها.**

تمهيد

يُمثّل القرآن الكريم منبعاً ثرّاً، وفيضاً غزيراً لفنون وعلوم، وفتوح انبثَّت في نظمه، وهديه، ورسمه ليبقى المعجزة الخالدة الدالة على الحق، والمدد الأسمى لمن أخلص الطلب، وتجرد للفهم والعمل؛ في ثناياه جلال من كل وجه، وفي منحه عطاء لكلّ عصر، ولعل أدق علومه علم المناسبات القرآنية، ذلك العلم الذي يربط بين السور، والآيات، والكلمات؛ فإذا هي حبات عقد واحد، وأجزاء بنيان متصل؛ فعليه يتوقف إدراك الهدايات في أعلى صورها، وتتضح المناسبات بين أجزائها، وتبدو المرامي وأغراضها، والمقاصد التي سيق كل ذلك لأجلها.

المطلب الأول

تعريف المناسبة في اللغة والاصطلاح

المناسبة لغة:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «النون، والسين، والباء، كلمة واحدة، قياسها اتصال شيئ بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله، وللاتصال به تقول: نسبت أنسب. وهو نسيب فلان. والنسيب: الطريق المستقيم، لاتصال بعضه من بعض». (١)

وقال في لسان العرب: « وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي: مشاكله » (٢)

«والمشاكله» بمعنى: المماثلة. تقول: هذا شكل هذا، أي: مثله.

فالمناسبة لغة تعني: الاتصال، والمقاربة، والمماثلة.

وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ولهذا قيل: «المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ».(٣)

---

(١)ابن فارس:معجم مقاييس اللغة، ج٥ صـ ٤٢٣-٤٢٤.

(٢)ابن منظور: لسان العرب، ج٤ صـ١١٩.

(٣)الزركشي: البرهان، ج١ صـ٣٧ .

المناسبة في الاصطلاح:

المناسبة «علم تعرف منه علل الترتيب بين أجزاء القرآن وهي سر البلاغة في أدائه، وتحقيق مطابقة المقال لما اقتضاه الحال».[(١)]

وقيل: هي: «الرابط بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها،وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها».[(٢)]

---

(١)البقاعي: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ج١ صـ٦.

(٢)مصطفى مسلم.مباحث في التفسير الموضوعي، دار العلم –دمشق ١٩٨٩م، صـ٥٨.

المطلب الثاني

ثمرة علم المناسبات

«الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له وما وراءه وما أمامه، من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، هذا بالنسبة لعلم المناسبة بشكل عام؛ أما علم مناسبات القرآن فكما سبق هو علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب من ذلك فيها، ويفيد ذلك المقصود من جميع جمله. ونسبته من علم التفسير، نسبة البيان من علم النحو».(١)

١) البقاعي: نظم الدرر، ج١ صـ٧.

المطلب الرابع

أنواع علم المناسبة

١ -«مناسبة الآي بعضها لبعض؛ وهي بيان ارتباطها وتناسقها كأنها جملة واحدة، ومرجعها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه ».[1]

٢- مناسبة السور بعضها لبعض، وهو أربعة أنواع:

-أحدها: تناسب بين السورتين في موضوعهما، وهو الأصل والأساس.

-ثانيهما: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها.

-ثالثهما: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

-رابعتها: مناسبة خاتمة السورة لفاتحة ما بعدها.

---

١) السيوطي. الإتقان،ج٣ صـ٣٢٣.

المطلب الخامس

شرف هذا العلم وفائدته

قال الزركشي : «المناسبة علم شريف، تحزَرُ به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول.

فائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء

المحكم، المتلائم الأجزاء.

وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعاً. وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم». [1]

قال الإمام فخر الدين الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول». [2]

وقال البقاعي: «...وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب،

---

(١)الزركشي. البرهان،ج١ صـ٣٦.

(٢)مصطفى مسلم. مباحث في التفسير الموضوعي، صـ٦٠.

وذلك لأنّه يكشف أن للإعجاز طريقين:

أحدهما: نظم كل جملة على حيالها، بحسب التركيب.

والثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب.

والأول أقرب تناولًا وأسهل ذوقا؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه، ويحصل له عند سماعه روعة بنشاطه، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنده موقع الإعجاز».[1]

قال الزرقاني: «إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته و جمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولاتخاذل، كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله وبدا أوله مواتيا لآخره»[2].

١) البقاعي. نظم الدرر، ج١ صـ١١.

٢) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج١ صـ٦٠.

المطلب السادس

مناسبة سورة الأحزاب لما قبلها

قال أبو حيان: «مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة، وهو أنه حُكي أنهم يستعجلون الفتح، وهو الفصل بينهم، وأخبر تعالى أنه يوم الفتح لا ينفعهم إيمانهم، فأمره في أول هذه السورة بتقوى الله، ونهاه عن طاعة الكفار والمنافقين فيما أرادوا به».[١]

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: «افتتحها سبحانه بأمر نبيه باتقائه، ونهيه عن الصغو إلى الكافرين والمنافقين، واتباعه ما يوحي إليه، تنزيهاً لقدره عن محنة من سبق له الامتحان ممن قدم ذكره في سورة السجدة، وأمراً له بالتسليم لخالقه والتوكل عليه ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾[٢] ولما تحصل من السورتين من الإشارة إلى السوابق ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[٣] كان ذلك مظنة لتأنيس نبي الله ﷺ وصالحي أتباعه، ولهذا أعقب سورة السجدة بهذه السورة المضمنة من التأنيس والبشارة ما يجري على المعهود من لطفه تعالى وسعة رحمته، فافتتح سبحانه السورة بخطاب نبيه ﷺ بالتقوى، وإعلامه بما قد

---

(١)أبو حيان.البحر المحيط، ج٧ صـ٢٧٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية: (٤).

(٣) سورة السجدة، آية: (١٣)

أعطاه قبل من سلوك سبيل النجاة وإن ورد على طريقة الأمر ليشعره باستقامة سبيله، وإيضاح دليله، وخاطبه بلفظ النبوة لأنه أمر عقب تخويف وإنذار وإن كان عليه السلام قد نزه الله قدره على أن يكون منه خلاف التقوى، وعصمه من كل ما ينافر نزاهة حاله وعليّ منصبه،ولكن طريقة خطابه تعالى للعباد أنه مهما جرد ذكرهم للمدح من غير أمر ولا نهي فهو موضع ذكرهم بالأخص للمدح من محمود صفاتهم ».[1]

وقال البقاعي: «لما ختمت التي قبلها بالإعراض عن الكافرين وانتظار ما يحكم به فيهم رب العالمين، بعد تحقيق أن تنزيل الكتاب من عند المدبر لهذا الخلق كله، والنهي عن الشك في لقائه، افتتح هذه بالأمر بأساس ذلك، والنهي عن طاعة المخالفين مجاهرين كانوا أو مساترين، والأمر باتباع الوحي الذي أعظمه الكتاب تنبيهاً على أن الأعراض إنما يكون طاعة لله مع مراعاة تقواه ».[2]

قال المراغي: «ووجه اتصالها بما قبلها تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة،فإن تلك خُتمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين وإتباع ما أوحي إليه من ربه مع التوكل عليه ».[3]

---

(١)ابن الزبير: أحمد بن إبراهيم الثقفي. البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق د/ سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، صـ١٤٧.

(٢)البقاعي.نظم الدرر ج١٥ صـ٢٧٣.

(٣)المراغي: أحمد مصطفى. تفسير المراغي، دار الفكر،١٣٩٤هـ، ج٧ صـ١٢٣.

قال الخطيب: «مع أن هذه السورة مدنية، ومع أن السورة التي قبلها (السجدة) مكية، ومع الفاصل الزمني الممتد بينهما، فقد اتصلت السورتان بعضهما ببعض، والتقى ختام السابقة منهما ببدء التالية، حتى لكأنهما سورة واحدة. حتى قال ختمت سورة السجدة بقوله تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠ ﴾[1] وهو أمر للنبي ﷺ بالإعراض عن المشركين، والاتجاه إلى وجهة أخرى، حيث لم يجُدِ مع هؤلاء المشركين،هذا الوقوف الطويل الذي وقفه معهم، منذراً ومبشراً.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾[2] تأكيد لهذا الأمر. وذلك بأن يَثبت النبي ﷺ على تقوى الله، وأن ينظر إلى نفسه أولاً، وألا يشغله أمر المشركين، والحرص على هداهم، عن أمر نفسه، كما أنهم مسئولون عن أنفسهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ ﴾[3]»[4].

فالمتأمل في السورتين سيصل إلى نتيجة واضحة بأن المناسبة بينهما ظاهرة ولذلك اتفق المفسرون السالف ذكر أقوالهم على أن في كلا السورتين أمر

---

(١) سورة السجدة آية (٣٠)

(٢) سورة الأحزاب آية (١)

(٣) سورة النور آية (٥٤)

(٤)الخطيب: عبد الكريم الخطيب. التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر، ج١١ صـ٦٣٢-٦٤٥.

للنبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، والثبات على الحق المبين، مبيناً أن أسباب النجاة، لا تكون إلا باتباع ما يوحى إليه من كتاب ربه، وتطبيقه منهجاً واضحاً، وإن خالف عاداتهم،وطبائعهم،وبالتوكل على الله وحده، وترك كل ما يعرض عليه من أهل الكفر والنفاق.

المطلب السابع

مناسبة سورة الأحزاب لما بعدها

قال أبو حيان: «وسبب نزولها أن أبا سفيان قال لكفار مكة، لما سمعوا: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوّفنا بالبعث، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث.

فقال الله: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قاله مقاتل؛ وباقي السورة تهديد لهم وتخويف.

ومن ذكر هذا السبب، ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها». [1]

قال ابن الزبير: «لما كان حاصل سورة الأحزاب رحمة ولطفاً ونعمة، لا يقدر عظيم قدرها، وينقطع العالم دون الوفاء بشكرها، أعقبت بما ينبغي من الحمد. فكان مضنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [2]ملكاً واختراعاً، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعاً عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم، وتفريقهم

---

(١)أبو حيان.البحر المحيط،ج٧ صـ٣٤٣.

(٢) سورة سبأ آية (١).

بحسب ما شاء »[1].

قال البقاعي: «لما ختمت سورة الأحزاب بأنه سبحانه عرض أداء الأمانة وحملها – وهي ما في الوجود من المنافع – على السماوات والأرض والجبال. فأشفقن منها وحملها الإنسان الذي هو الإنس والجان، وإن نتيجة العرض والأداء العذاب والثواب، فعلم أن الكل ملكه وفي ملكه خائفون من عظمته مشفقون من قهر سطوته وقاهر جبروته، وأنه المالك التام المُلك والمِلك المطاع المتصرف في كل شيء من غير دفاع،وختم ذلك بصفتي المغفرة والرحمة،ودل على ذلك كله بأن ابتداء هذه بقوله ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال من الخلق والأمر كله مطلقاً في الأولى والأخرى وغيرهما مما يمكن أن يكون ويحيط به علمه سبحانه ﴿ لِلَّهِ ﴾ ذي الجلال والجمال.

ولما كان هذا هو المراد، وصفه بما يفيد ذلك، فقال منبهاً على نعمة الإبداء والإبقاء أولاً: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ ﴾ أي وحده مِلكاً ومُلكاً وإن نسبتم إلى غيره ملكاً وملكاً ظاهرياً ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي بأسرها ﴿ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي كما ترون أنه لا متصرف في شيء من ذلك كمال التصرف غيره، وقد علم في غير موضع وتقرر في كل فطرة أنه ذو العرش العظيم، فأنتج ذلك أن له ما يحويه عرشه من السماوات والأراضي وما فيها، لأن من المعلوم أن العرش محيط بالكل، فالكل فيه، وكل سماء في التي فوقها، وكذا الأراضي، وقد تقرر أن له ما في الكل، فأنتج ذلك أن له

---

(١)ابن الزبير: البرهان في تناسب سور القرآن، صـ١٥٠.

الكل بهذا البرهان الصحيح، وهو أبلغ مما لو عبر عن ذلك على وجه التصريح، وإذ قد كان له ذلك كله فلا نعمة على شيء إلا منه، فكل شيء يحمده لما له عليه من نعمه بلسان قال، فإن لم يكن فبلسان حاله.

ولما أفاد ذلك أن له الدنيا وما فيها، وقد علم في آخر الأحزاب أن نتيجة الوجود العذاب والمغفرة، ونحن نرى أكثر الظلمة والمنافقين يموتون من غير عذاب، وأكثر المؤمنين يموتون لم يوفوا ما وعدوه من الثواب، ونعلم قطعاً أنه لا يجوز على حكيم أن يترك عبيده سدى يبغي بعضهم على بعض وهو لا يغير عليهم، فأفاد ذلك أن له داراً أخرى يظهر فيها العدل وينشر الكرم والفضل، فلذلك قال عاطفاً على ما يسببه الكلام الأول من نحو: فله الحمد في الأولى، وطواه لأجل خفائه على أكثر الخلق، وأظهر ما في الآخرة لظهوره لأنها دار كشف الغطاء، فقال منبهاً على نعمة الإعادة والإبقاء ثانياً: ﴿وَلَهُ﴾ أي وحده ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الإحاطة بالكمال ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ظاهراً لكل من يجمعه الحشر، وله كل ما فيها، لا يدعي ذلك أحد في شيء منه لا ظاهراً ولا باطناً، فكل شيء فيها لظهور الحمد إذ ذاك بحمده كما ينبغي لجلاله بما له عليه من نعمة أقلها نعمة الإيجاد»[1].

قال المراغي: «ووجه اتصالها بما بعدها :

(١) إن الصفات التي أجريت على الله في مفتتح سورة سبأ تشاكل الصفات

---

(١)البقاعي. نظم الدرر، ج١٥ ص٣٢٨-٣٣٠.

التي نسبت إليه سبحانه في مختم سورة الأحزاب.

(٢)إنه في سورة الأحزاب ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء، وفي سورة سبأ حكي عنهم إنكارها صريحا، وطعنهم على من يقول بالبعث، وقال هنا ما لم يقله هناك» (١).

قال الخطيب: ختمت سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ثم كانت الآية التي بعدها تعقيباً عليها. فكأنها وما بعدها آية واحدة. وفي هذه الآية أو الآيتين،بيان لمقام الإنسان في هذا الوجود، وأنه الكائن الذي استقلّ وحده أمانة التكليف من بين الكائنات جميعها..وإنه لن يُمسكَ به في هذا إلا الإيمان بالله،إيمان وعي، وإدراك، وفهم لجلال الله وعظمته، وقدرته،وماله من تصريف في ملكه،لا معقب له، ولا شريك معه.

وتبدأ سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تبدأ بهذا الاستفتاح بحمد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض..وكأنها بهذا الاستفتاح تضع بين يدي الإنسان المفتاح الذي يحفظ به ما استودع من أمانات الله.. وهو حمد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

فحمد الله، هو ثمرة الإيمان بالله، والمعرفة بجلاله، وعظمته، وماله في ذات الإنسان، من آيات الإحسان، وسوابغ النعم.. فمن آمن بالله حق الإيمان، كان

---

(١)المراغي.تفسير المراغي، ج٨ صـ٥٥.

لسان ذكر وحمد وشكر، لله رب العالمين، وذلك فيما يرى على ضوء هذا الإيمان من فضل الله وإحسانه»[1].

قال السيوطي: «ظهر لي وجه الاتصال أن (سورة الأحزاب) ختمت بقوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ افتتح (سورة سبأ) بأن له ما في السموات وما في الأرض وهذا الوصف لائق بذلك الحكم، فإن الملك العام والقدرة العامة تقتضيان ذلك، وخاتمة سورة الأحزاب ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وفاصلة الآية الثانية من مطلع سورة سبأ ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ ».[2]

ويمكن حصر مناسبة سورة الأحزاب لسورة سبأ في ثلاث نقاط:

١-أن سورة سبأ قد افتتحت ببيان الملك التام،والقدرة الشاملة التي تناسب خاتمة سورة الأحزاب تطبيق العذاب وتقديم الثواب.

٢-كان آخر الأحزاب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وفاصلة الآية الثانية من مطلع سورة سبأ ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾.

٣-في سورة الأحزاب سأل الكفار عن الساعة استهزاء، وفي سورة سبأ ذكر إنكارها صراحة.

---

(١)الخطيب.التفسير القرآني للقرآن، ج١١ صـ٧٧١.

(٢)السيوطي. ترتيب سور القرآن، صـ١٠٤.

المبحث الثالث

وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات.

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

المطلب الأول: **تعريف خواص القرآن الكريم لغةً واصطلاحاً**.

المطلب الثاني: **ما اختصت به سورة الأحزاب من موضوعات**.

تمهيد

من العلوم التي لها ارتباط وثيق بتدبر القرآن والعمل به، ويعتبر من أهم الدوافع للإقبال على القرآن الكريم علم خواص القرآن،لذا فقد أهتم به العلماء قديماً وحديثاً وصنف فيه مؤلفات لتأصيله وتفصيله،وبيان أهميته ومتعلقه بعلوم القرآن الكريم .

المطلب الأول

تعريف خواص القرآن الكريم لغةً واصطلاحاً

تعريف الخواص في اللغة:

قال الجوهري: «خصّهُ بالشيء خصوصاً. واختصه بكذا، أي: خصه به. والخاصةُ: خلاف العامة»[1]

قال الراغب: « التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص: تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم، والتعمم، والتعميم، وخصان (والخصان كالخاصة، ومنه قولهم: إنما يفعل هذا خصان الناس، أي: خواص منهم.

الرجل: من يختصه بضرب من الكرامة، والخاصة: ضد العامة، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[2]، أي: بل تعمكم، وقد خصه بكذا يخصه، واختصه يختصه، قال: ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[3]»[4]

قال ابن منظور: «خصّه بالشيء يخُصّه خَصّاً وخصوصاً وخَصُوصِيّةً

---

(١) الجوهري. الصحاح، ج٣ صـ١٠٣٧.

(٢) سورة الأنفال آية (٢٥)

(٣) سورة آل عمران آية (٧٤)

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل، تحقيق عدنان داوودي، دار القلم دمشق، دار الشامية – بيروت، ١٤١٢هـ، ج١ صـ ٣٠٠.

وخُصُوصِيّةً والفتح أَفصح وخِصِّيصَى وخصّصَه واخْتصّه أَفْرَدَه به دون غيره ويقال اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ له إِذا انفرد وخَصّ غيرَه واخْتصّه بِبِرِّه (١)

وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره، و(الخاصية) نسبة إلى الخاصة. والخواص جمع خاصة.(٢)

الخواص اصطلاحاً:

العلم الذي يتعرف به المنافع والمضار، والعجائب والغرائب، والخواص الشريفة، والأحوال العجيبة،وما يترتب على ذلك من خواص مناسبة لهذه الأحوال والأعمال.

وخواص القرآن يُتعرف بها الآثار المترتبة على قراءة القرآن الكريم، والخواص المناسبة لها. (٣)

تعريف خواص القرآن الكريم باعتبار الإضافة:

يقول صاحب كتاب مفتاح السعادة: «علم خواص القرآن هو علم يبحث عن الخواص المترتبة على قراءة أسماء الله تعالى أو كتابه:من الزبور، والإنجيل، والقرآن، ويترتب على كل من تلك الأسماء والدعوات خواص مناسبة لها »(٤)

---

(١)ابن منظور.لسان العرب.ج١ صـ٢٤.

(٢)الفيروز آبادي. القاموس المحيط صـ٦١٧.

(٣)الهويمل: تركي بن سعد بن فهيد.خواص القرآن الكريم،رسالة علمية للدكتوراه، بإشراف د/ بدر بن ناصر البدر، دار ابن الجوزي ١٤٢٩هـ،صـ١٩.

(٤)بطاش كبري زاده. أحمد بن مصطفى.مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار

=

وفي أبجد العلوم: «واعلم أن الخواص قد تترتب على أسماء الله تعالى، وعلى الآيات التنزيلية،وآيات التوراة والإنجيل،لكن تلك الخواص ليست من فروع السحر، بل هي من فروع علم القرآن »[1]

الباز –دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ، ج١ صـ٣٤١.

(١) القنوجي.صديق بن حسن.أبجد العلوم، دار ابن حزم –بيروت ١٤٢٣هصـ٣٩٧.

المطلب الثاني

ما اختصت به سورة الأحزاب من موضوعات

١-«إن سورة الأحزاب بدأت بخطاب ندائي و جمعت كثيراً من أنواع النداءات في القرآن الكريم ومنها نداء النبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ... ﴾ ونداء نساء النبي بقوله ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ... ﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة لم يرد في سورة قرآنية غيرها[١]»

٢-«أكثر سورة ورد فيها لفظ النبي في القرآن الكريم فقد ورد في القرآن كله ثمانيةً وعشرين مرة منها (١٢) مرة في سورة الأحزاب وحدها.وورد لفظ الرسول معرفاً مرةً واحدة قي سورة الأحزاب[٢]».

٣-أنه قد ورود فيها كلمات لم ترد في سور القرآن مثل (وطر، صياصي، الظنونا، ترجئ، تؤوي، ناظرين، إناه، الخيرة).

٤-كما فيها جمل أخذت مفهوم المصطلح مثل: (زاغت الأبصار، بلغت

---

(١) سميح. عمران سميح نزال. الوحدة التاريخية للسور القرآنية،، صـ ١٠٠، دار القراء، الأردن،١٤٢٧ه، صـ ١٠٠.

(٢) عبد الباقي. محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار الفكر، صـ٨٥٩.

القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا).

٥ - أنها تناولت قضايا كثيرة ومتنوعة اجتماعية وسياسية وعسكرية، مثل:

-إبطال عادة التبني التي كانت في الجاهلية.

-إبطال عادة التوريث بالحلف والهجرة، وإثبات الميراث عن طريق التشريع القرآني.

- إنها سجلت أحداث أهم المعارك في حياة الأمة الإسلامية في العهد النبوي.

-زواج النبي ﷺ بزينب أي أباحت زوجة المتبنى.

- تحدثت السورة عن قضايا عقائدية مهمة والتي لم ترد في غيرها من السور مثل عقيدة ختم النبوة وأولي العزم من الرسل و آية التطهير، وجوب تعظيم النبي ﷺ وبيان عاقبة المؤذي لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام وأهل بيته والمؤمنين والمؤمنات.

-ذكر الأحكام التي تتعلق بأزواج النبي ﷺ مثل القسم بينهن وتخييرهن والزواج بغيرهن وحرمة زواجهن بغيره ﷺ.

-فرض الحجاب على نساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين.

-انعقاد الزواج له ﷺ بالهبة دون المهر. وموضوعات أخرى.

الفصل الثالث

أسباب نزول السورة ومقاصدها.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: **أسباب النزول الواردة في السورة.**

المبحث الثاني: **مقاصد السورة.**

المبحث الأول

أسباب النزول الواردة في السورة

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

المطلب الأول: **تعريف أسباب النزول ومفهومه لدى العلماء**.

المطلب الثاني: **فوائد أسباب النزول**.

المطلب الثالث: **أسباب النزول الواردة في السورة**.

تمهيد

أسباب النزول من الموضوعات المهمة في علم التفسير، لارتباطه بتنزل كلام الله الذي هو أشرف كلام، وشرف العلم مبني على شرف المعلوم، ولارتباطه بتفسير كتاب الله، والكشف عن الحِكم والأحكام التي لا تدرك إلا به،ولأنه سبب رئيس في إبراز تناسق كلام الله،ووحدة نظمه، خلاف متعلقاته بعلوم كثيرة من علوم التفسير.

المطلب الأول

تعريف أسباب النزول ومفهومه لدى العلماء

لفظة (أسباب النزول) تتكون من كلمتين: أسباب ونزول.

السبب في اللغة:

«الحبل وما يتوصل به إلى غيره»(١).

معنى النزول: «النزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوٍّ، يقال نزل عن دابته ونزل في مكان كذا حطَّ رحله فيه».(٢)

سبب النزول في الاصطلاح:

قال السيوطي: «والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه».(٣)

وقال الزرقاني: «سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أي مبينة لحكمه أيام وقوعه»(٤)

وقال القطان: «هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال»(٥)

---

(١)ابن منظور، لسان العرب، ج١ صـ٤٥٥.والقاموس المحيط،ج١صـ١٢٣

(٢)المزيني. خالد بن سليمان. المحرر في أسباب نزول القرآن، رسالة دكتوراه إشراف د على سليمان العبيد، دار ابن الجوزي ١٤٢٩، ج١ صـ١٠٢

(٣)السيوطي.الإتقان، ج١ صـ٩٠.

(٤)الزرقاني.مناهل العرفان، ج١ صـ١٠٦.

(٥)القطان. مناع بن خليل. مباحث في علوم القرآن،مؤسسة الرسالة،صـ٧٨.

المطلب الثاني

فوائد أسباب النزول

إن لأسباب النزول فوائد جمة وعظيمة، لا كما يزعم البعض أنها ليست لها فوائد أو أن فوائدها قليلة.

الفائدة الأولى: «معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أما المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد». [(١)]

الفائدة الثانية: أنه يعين على فهم الآية، ودفع الإشكال عنها. قال الواحدي عند حديثه عن علوم القرآن ومنه أسباب نزول الآية: «إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[(٢)]

---

(١) الزرقاني. مناهل العرفان، ج١ ص١٠٩-١١٣.

(٢) الواحدي. علي بن أحمد. أسباب النزول، ص٤.

وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»(١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب »(٢)

والأمثلة على ذلك كُثر ومنها:

ماروي في الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾(٣) وقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبنّ أجمعون، وبقي في إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه أي طلبوا منه أن يحمدهم على ما فعلوا، وهنالك زال الإشكال عنه وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده.(٤)

---

(١)السيوطي. نقل قوله في الإتقان، ج١ صـ٨٣.

(٢)ابن تيمية.أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد،ج١٣ صـ٣٣٩.

(٣) سورة آل عمران، آية (١٨٨).

(٤) أخرجه البخاري. صحيح البخاري كتاب التفسير باب (لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا) في (سورة آل عمران) برقم ٤٥٦٨،ج٣ صـ ١٧٠ ، ومسلم في صحيحه،في (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) برقم ٢٧٧٨،ج٤صـ١٧٠٠ .

الفائدة الثالثة: «دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر قال الزركشي: «قال الشافعي في معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[1]. إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم. فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه. نازلا منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ولم يقصد حل ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل » .[2]

الفائدة الرابعة: « تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب »[3]. وتخصيص الحكم بالسبب لا ينافي العموم، لكنّ القائلين به يقولون: أخذنا ذلك العموم من القياس، أي قياس الحوادث المشابهة على الحوادث الواقعة في العهد النبوي، ولم نأخذ العموم من طريق اللفظ العام، لأن هذا اللفظ العام مختص بسببه،وكل سبب نزول يصح أن يكون مثالاً لهذا عند من

---

(١) سورة الأنعام آية (١٤٥)

(٢)الزركشي. البرهان.ج١صـ٢٣.

(٣): المصدر نفسه.

يرى أن العبرة بخصوص السبب.

الفائدة الخامسة: معرفة اسم النازل فيه الآية وتعيين المبهم فيها.روى البخاري عن يوسف بن ماهك قال: «كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا،فقال مروان:إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ ﴾[1]فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري ».[2]

الفائدة السادسة: «تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها. وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة. كل ذالك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس»[3].

---

(١) سورة الأحقاف، آية (١٧).

(٢) أخرجه البخاري. صحيح البخاري في (سورة حم الأحقاف)كتاب التفسير باب (والذي قال لوالديه أف لكما) برقم ٤٨٢٧، ج٣ صـ٢٨٠ .

(٣)الزرقاني.مناهل العرفان،ج١صـ١١٣.

المطلب الثالث

أسباب النزول الواردة في السورة

أما عن أسباب النزول الواردة في السورة فهي كما يأتي:

١-قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

قال الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في المراد من قول الله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾ فقال بعضهم: عنى بذلك تكذيب قوم من أهل النفاق، وصفوا نبيّ الله ﷺ بأنه ذو قلبين، فنفى الله ذلك عن نبيه وكذّبهم»[1].

حدثنا أبو كُريب، قال: ثنا حفص بن نفيل، قال: ثنا زهير بن معاوية، عن قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه، قال: قلنا لابن عباس: أرأيت قول الله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾ ما عنى بذلك؟ قال: قام رسول الله ﷺ يوما فصلى، فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه: إن له قلبين، قلبا معكم، وقلبا معهم، فأنزل الله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ ﴾.[2]

---

(١)ابن جرير: محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، تحقيق د عبد الله التركي، دار عالم الكتب، ج١٩ صـ٦

(٢) أخرجه أحمد في المسند، برقم ٢٤١٠ ج٤ص٢٣٣ ، وأخرجه الترمذي في الجامع الصحيح سنن =

وقال آخرون: « بل عنى بذلك: رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهيه»[1].

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال: كان رجل من قريش يسمى من دهيه ذا القلبين، فأنزل الله هذا في شأنه.[2]

وقال آخرون: «بل عنى بذلك زيد بن حارثة من أجل أن رسول الله ﷺ كان تبناه، فضرب الله بذلك مثلا. حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن الزهري، في قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرب له مثلا يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك».[3]

الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأحزاب- برقم ٣١٩٩، ج٥صـ٣٢٤، وابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ، ج٢ صـ٣٩، برقم ٨٦٥، والحاكم،ج٢صـ٤٥٠، برقم ٣٥٥٥.والحديث من طريق قابوس بن ظبيان، عن أبيه عن ابن عباس، وتعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه وقال قابوس ضعيف، فإسناد الحديث ضعيف من أجل قابوس فهو لين –كما في التقريب (٥٤٤٥) وكذا قال الألباني والأعظمي في الإسناد.

(١)ابن جرير:تفسير الطبري، ج١٩صـ٧

(٢)ابن كثير،ج١١صـ١١٣ عن العوفي به، وعزاه السيوطي في الدر المنثور، ج٨ صـ١٢٢،إلى ابن جرير وابن مردويه.

(٣)تفسير عبد الرزاق، ج٢صـ١١١، قال القرطبي ج٧صـ٧٨قال النحاس: وهذا قول ضعيف لا يصح في

=

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك تكذيب من الله تعالى قول من قال لرجل في جوفه قلبان يعقل بهما، على النحو الذي رُوي عن ابن عباس، وجائز أن يكون ذلك تكذيبا من الله لمن وصف رسول الله ﷺ بذلك، وأن يكون تكذيبا لمن سمى القرشيّ الذي ذُكر أنه سمي ذا القلبين من دهيه، وأيّ الأمرين كان فهو نفي من الله عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة.(١)

٢-قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

-عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تبَنَّى سَالِمًا وَأَنْكَحَهُ بِنْتَ أَخِيهِ هِنْدَ بِنْتَ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَهوَ مَوْلًى لِامْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ كَمَا تَبَنَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا وَكَانَ مَنْ تَبَنَّى رَجلًا فِي الجَاهِلِيَّةِ دَعَاهُ النَّاسُ إِلَيْهِ وَوَرِثَ مِنْ مِيرَاثِهِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ فَجاءَتْ سَهْلَةُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ (٢)

- عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ مَا كُنَّا نَدْعُو زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ إِلاَّ

اللغة، وهو من منقطعات الزهري،رواه معمر عنه.

(١)ابن جرير: تفسير الطبري، ج١٩ صـ٧-٩.

(٢) أخرجه البخاري، صحيح البخاري كتاب النكاح، في (باب الأكفاء في الدين) برقم ٥٠٠٨ ،ج٣ صـ٣٦٨ . والترمذي، سنن الترمذي كتاب التفسير من سورة الأحزاب برقم ٣٢٠٧، ج٥ صـ٣٢٨. وسنن النسائي كتاب التفسير، سورة الأحزاب برقم ١١٣٩٦-١١٣٩٧ ج٦ صـ٤٢٩.

زَيْدَ بْنَ مـحُمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]

٣- قولـــه تعـــالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

عَنْ أَنَسٍ بن مالك أَنَّ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ تَغَيَّبَ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : تَغَيَّبْتُ عَنْ أَوَّلِ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ النَّبِيُّ ﷺ لَئِنْ رَأَيْتُ قِتَالًا لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحدٍ انهَزَمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَقْبَلَ أَنَسٌ فَرَأَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ مُنْهَزِمًا ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ أَيْنَ قُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحدٍ فَحَمَلَ حَتَّى قُتِلَ فَقَالَ سَعْدُ بن مُعَاذ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيده مَا اسْتَطَعت مَا اسْتَطَاع فَقَالَت أخته : فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ فِيهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ ضَرْبَةً ، مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ، وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ ، وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إِلَى..... قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[2].

---

(١) أخرجه مسلم، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة في (باب فضل زيد ابن حارثة اسامة ابن زيد)، برقم ٢٤٢٥ ،ج٤صـ١٥٠١ . وأحمد، مسند الأمام أحمد، برقم ٥٤٧٩ ج٩ صـ٣٤٣.والترمذي، سنن الترمذي، كتاب التفسير من سورة الأحزاب، برقم ٣٢٠٩ ج٥ صـ٣٣٠.والنسائي، السنن الكبرى، سبقتخريجه صـ١٠٩ .وذكره بلفظه البغوي.الحسين بن مسعود. تفسير البغوي،ج٦صـ٣١٧. والقرطبي، تفسير القرطبي، ج٧٧. وذكره بمعناه ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج١١صـ١١٥ . والواحدي. الحسن بن علي النيسابوري، أسباب النزول عالم الكتب، صـ٥٦٣.والمزيني ، المحرر في أسباب نزول القرآن، ج٢ صـ ٧٩٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ج٢١ صـ٢٤٢برقم ١٣٦٥٨، والبخاري في الصحيح، ج٢برقم

=

قال الطبري: «وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوم لم يشهدوا بدرا، فعاهدوا الله أن يفوا قتالا للمشركين مع رسول الله ﷺ، فمنهم من أوفى فقضى نحبه، ومنهم من بدّل، ومنهم من أوفى ولم يقض نحبه، وكان منتظرا، على ما وصفهم الله به من صفاتهم في هذه الآية.»(١).

وقال ابن عاشور: « فإن كانت هذه الآية نزلت مع بقية آي السورة بعد غزوة الخندق فهي تذكير بما حصل من المؤمنين من قبل، وإن كانت نزلت يوم أحد فموضعها في هذه السورة إنما هو بتوقيف من النبي ﷺ فهو تنبيه على المعنى الذي ذكرناه على تقدير: أنها نزلت مع سورة الأحزاب. وأيا ما كان وقت نزول الآية فإن المراد منها: رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد وهم: عثمان بن عفان، وأنس بن النضر، وطلحة بن عبيد الله، وحمزة، وسعيد ابن زيد، ومصعب بن عمير. فأما أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا. وسياق الآية وموقعها يقتضيان أنها نزلت بعد وقعة الخندق».(٢)

٢٨٠٥صـ٢٢٤ ، ومسلم في الصحيح كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة، برقم ٣٥٢٣ ، ج٤ صـ٩٥ ، والترمذي في السنن كتاب التفسير باب ومن سورة الأحزاب برقم ٣٢٠٠ ج٥ صـ٣٢٥، والنسائي في السنن الكبرى كتاب التفسير، سورة الأحزاب برقم ١١٤٠٤ ج٦ صـ٤٣١، كما ذكره جمع من أهل التفسير كالطبري، ج١٩صـ٦٥، والبغوي،ج٦ صـ٣٣٧، والقرطبي،ج٧ صـ١٠٤، وابن كثير، ج١١ صـ١٣٥.

(١)الطبري، ج ١٩صـ٦٤.

(٢)ابن عاشور،ج٢١ صـ٣٠٧.

قال المزيني: «والظاهر –والله أعلم – أن الآية نزلت بعد أحد وليس بعد الخندق لأنه إن كان المراد بها الذين استشهدوا وأبلوا بلاءً حسناً في أحد كما هو الواقع فلماذا يتأخر الثناء عليهم إلى ما بعد الخندق ؟هذا بعيد.وبناءً على ما تقدم فإن الراجح من قول ابن عاشور أنها نزلت يوم أحد ووضعت هنا بتوقيت من رسول الله ﷺ.

وإذا عدنا إلى سبب النزول خصوصاً إلى قول أنس بن النضر: «لئن رأيت قتالاً ليرين الله ما أصنع» وجدنا هذا مطابقاً تماماً لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾إِلَى..... قَوْلِهِ: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

ولا يعكر على هذا ما في لفظ البخاري: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه. فقد ذكر ابن حجر أن التردد فيه من حميد وأن الجزم وقع في رواية ثابت عند مسلم وأحمد».(١)

٤-قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾

عن موسى بن طلحة، قال: «قام معاوية بن أبي سفيان، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ**».(٢)

---

(١)المزيني، المحرر في أسباب النزول ج٢ صـ٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن كتاب التفسير، من سورة الأحزاب، برقم ٣٢٠٢ ج٥ صـ٣٢٦ وقال هذا الحديث غريب لا تعرفه إلا من هذا الوجه وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه، وابن أبي عاصم في السنة برقم ١٤٣٥، والبزار ٩٤٣،وأبو يعلى ٦٦٣، والطبري،ج١٩ صـ٦٦، والواحدي في أسباب النزول، صـ ٥٦٥وقال محققه إسناده صحيح.

٥-قولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسولِ الله ﷺ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ قَالَ فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا قَالَ فَقَالَ لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ الله ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ فَقُلْنَ والله لَا نَسْأَلُ رَسولَ الله ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نزلت عليه هذه الْآيَة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ حَتَّى بلغ ﴿ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ قَالَ : فَبَدَأَ بِعائِشَةَ ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ ، قَالَتْ : وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ الله ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ ، قَالَتْ : أَفِيكَ يَا رَسُولَ الله أَسْتَشِير أَبَوَيِ بَل أَخْتَارُ الله وَرَسولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ ، قَالَ : لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا ، إِنَّ الله لم يبعثني مُعَنِّتا وَلَا مُتَعَنِّتًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»(١)

(١) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الطلاق، في (باب بيان أنتخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية)

=

قال الطبري: «وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل أن عائشة سألت رسول الله ﷺ شيئا من عرض الدنيا، إما زيادة في النفقة، أو غير ذلك، فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهرا، فيما ذكر، ثم أمره الله أن يخيرهنّ بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهنّ، والعمل بطاعة الله، وبين أن يمتِّعهنّ ويفارقهنّ إن لم يرضين بالذي يقسم لهن».(١)

وقال ابن كثير: « هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يخَيِّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يحَصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضي الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة».(٢)

قال السعدي: «لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات، في مرادهن متعنتات، شَقَّ ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه آلى

برقم ١٤٧٨،ج٢ صـ٨٩٤ ،والبخاري في الصحيح، برقم ٤٧٨٥-٤٧٨٦ ،ج٣صـ٢٦٠ ، وأحمد في المسند،برقم ١٤٥١٥ ج٢٢صـ٣٩١، والترمذي في السنن كتاب التفسير، من سورة الأحزاب، برقم ٣٢٠٤ ج٥صـ ٣٢٧ برقم ٣٣٢٨، وذكره من المفسرين سبب نزول للآيات الطبري، ج١٩ صـ٨٥، والقرطبي، ج٧صـ١٠٧، والبغوي، ج٦صـ٣٤٦وغيرهم كما ذكره المزيني في المحرر، ج٢صـ٨٠٤.

(١)الطبري، ج١٩صـ٨٦.

(٢)ابن كثير، ج١١صـ١٤٥.

منهن شهرًا.

فأراد اللهّ أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويُذْهِبَ عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخيرهن فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ﴾»(١)

٦-قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ ﴾

قال الطبري: «اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله(أَهْلَ الْبَيْتِ) فقال بعضهم: عُني به رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم». (٢)

عن أَبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نزلت هَذِهِ الآيَةُ فِي خَمْسَةٍ: فِيَّ وَفِي عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ وَحَسَنٍ رَضِيَ الله عَنْهُ وَحُسَيْنٍ رَضِيَ الله عَنْهُ وَفَاطِمَةَ رَضِيَ الله عَنهَا** ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ ﴾ ». (٣)

---

(١)السعدي،تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي _ عنيزة، ج٦ص٢١٤.

(٢)الطبري،ج١٩ص١٠١.

(٣) أخرجه الطبراني،سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق:طارق بن عوض الله الحسيني، دار الحرمين _ القاهرة،٣٤٨٠ من طريق عطية وفي رواية الطبري عن أبي سعيد الخدري، وذكره الهيثمي،نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، دار الفكر _بيروت،ج٧ص٢٠٧ وقال رواه =

وقال آخرون : «بل عُني بذلك أزواج رسول الله ﷺ»(١).

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: «أُنزلت هذه الآية في نساء النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».(٢)

٧-قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: «يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءُ وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ فَأَنْزَلَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قَالَ مجَاهِدٌ وَأَنْزَلَ فِيهَا﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

الطبراني وفيه عطية بن سعيد وهو ضعيف، وأورده السيوطي،عبدالرحمن بن أبي بكر،الدر المنثور في التأويل بالمأثور،ج٨ صـ١٥٧وزاد نسبته لابن أبي حاتم،والواحدي في أسباب النزول،صـ٥٦٦.

(١)الطبري،ج١٩صـ١٠٧

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٩/ ١٥٠، وذكره السيوطي في الدر المنثور،ج٨صـ١٥٧ وعزاه لابن مردويه، وزاد نسبته لابن أبي حاتم من طريق عكرمه عن ابن عباس به،وذكره الطبري،ج١٩ صـ١٠٨ عن علقمه، وذكره الواحدي في أسباب النزول صـ٥٦٦ وقال محققه د ماهر الفحل إسناده ضعيف لضعف خصيف ابن عبد الرحمن.

وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أَوَّلَ ظَعِينَةٍ قَدِمَتْ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرَةً». (١)

عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ أُمِّ عُمَارَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ أَنَّهَا أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: «مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا لِلرِّجَالِ وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بِشَيْءٍ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾» (٢)

٨-قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال الطبري: «ذكر أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على فتاه زيد بن حارثة، فامتنعت من إنكاحه نفسها». (٣)

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا .... ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن كتاب التفسير، من سورة النساء برقم ٣٠٢٢ ج٥ صـ٢٤٨، والنسائي في السنن الكبرى،سبقتخريجه صـ١١١. كما ذكره الطبري في تفسيره،ج ١٩ ١١٠، وذكره البغوي،ج٦ ٣٥٠ . والحديث مرسل كما قال أبي عيسى الترمذي لجهالة ولد أم سلمة ولعدم ثبوت سماعه عنها.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن كتاب التفسير، من سورة الأحزاب برقم ٣٢١١ ج٥ صـ٣٣٠، وقال هذا الحديث حسن غريب وإنما يعرف من هذا الوجه، والطبراني في الكبير،ج٢٥صـ٣١برقم ٦٦-٢١١٦٧،وذكره القرطبي،ج٧صـ١٢٠،والمزيني في المحرر،ج٢صـ٨٠٨.ثم قال إن إختلاف مخارج هذه الأحاديث، مع ضعفها اليسير لعله يرقي الحديث إلى درجة الحسن لغيره، وهذا ما عبر عنه الإمام الترمذي على حديث أم عمارة بقوله (حسن غريب) ولعل مراد الترمذي بغرابة حديث أم عمارة أنه لا يعرف إلا من طريق حصين عن عكرمة عن أم عمارة رضي الله عنها، والله أعلم.

(٣) الطبري ، ج١٩صـ١١٢-١١٤

إلى آخر الآية، «وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «**فانكحيه**»، فقالت: يا رسول الله أؤمر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ....﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قالت: قد رضيته لي يا رسول الله مَنكحًا؟ قال: «**نعم**» قالت: إذن لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي».[1]

وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وذلك أنها وهبت نفسها لرسول الله ﷺ فزوجها زيد بن حارثة.

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ....﴾ إلى آخر الآية، قال: «نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها، وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده. قال: فنزل القرآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ....﴾ إلى آخر الآية».[2]

---

١) عزاه السيوطي في الدر المنثور للطبري وابن مردويه، ج٨صـ١٤٦، وذكره القرطبي، ج٧صـ١٢١، والبغوي ج٦صـ٣٥٣، وابن كثير،ج١١صـ١٦٧.

(٢)الطبري،ج١٩صـ١١٤،والقرطبي،ج٧صـ١٢١،وابن كثير،ج١١صـ١٦٨،و السيوطي في الدر المنثور عزاه لابن أبي حاتم ج٨صـ١٤٦.

٩-قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ.(١)

قال السعدي: «وكان سبب نزول هذه الآيات، أن اللهّ تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الابناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهن. وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله، وفعلا وإذا أراد اللهّ أمرًا، جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ فقيل له: «زيد بن حارثة». وكانت تحته، زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول اللهّ ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوَّجها، فقدر اللهّ أن يكون بينها وبين

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التفسير (وتخفي في نفسك....) برقم ٤٧٨٧ ،ج٣صـ٢٦٠ ،وأحمد في المسند، برقم ١٢٥١١ ج١٩صـ٤٩٣،والترمذي في السنن كتاب التفسير' من سورة الأحزاب برقم ٣٢١٢ ج٥ صـ٣٣٠، وقال هذا الحديث صحيح، والنسائي في السنن الكبرى كتاب التفسير، سورة الأحزاب، برقم ١١٤٠٧ ج٦صـ٤٣٢، كما ذكر الطبري،ج١٩صـ١١٢، والقرطبي ج٧ صـ١٢٢،والبغوي،ج٦ صـ٣٥٤، وابن كثير،ج١١صـ١٦٧، والمزيني في المحرر،ج٢صـ ٨١٠.

زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها».[١]

قال الشنقيطي بعد ذكر أقوال العلماء: «التحقيق إن شاء اللهّ في هذه المسألة، هو ما ذكرنا أن القرآن دلَّ عليه، وهو أن الله أعلم نبيّه ﷺ بأن زيدًا يطلّق زينب، وأنه يزوّجها إيّاه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكاها زيد إليه ﷺ قال له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ ، فعاتبه الله على قوله: «أمسك عليك زوجك» بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ».[٢]

١٠-قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَت: «لَوْ كَانَ رَسولُ اللهِّ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنْ الْوَحيِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي بِالْإِسْلَامِ ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي بِالْعِتقِ فَأَعْتَقْتَهُ ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ـ إِلَى قَوْلِهِ ـ ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لمَّا تَزَوَّجَهَا قَالُوا تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابنهِ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وَكَانَ رَسولُ الله ﷺ تبَنَّاهُ وَهُوَ صَغِيرٌ فَلَبِثَ حَتَّى صَارَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ الله: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ فُلَانٌ

(١)السعدي، تيسير الكريم الرحمن،ج٦صـ٢٢٣.

(٢)الشنقيطي. محمد الأمين المختار، أضواء البيان، مكتبة ابن تيمية،ج٦صـ٥٨٢.

مَوْلَى فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَخُو فُلَانٍ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾يَعْنِي أَعْدَلُ».(١)

١١-قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ: «خَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ الْآيَةَ

قَالَتْ فَلَمْ أَكُنْ أَحِلُّ لَهُ لِأَنِّي لَمْ أُهَاجِرْ كُنْتُ مِنْ الطُّلَقَاءِ».(٢)

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن كتاب التفسير، من السورة الأحزاب، برقم ٣٢٠٧ ج٥ صـ٣٢٨ قال حديث غريب روي من طريق داود بن الزبرقان،وأحمد في المسند، برقم ٢٦٠٤١ ج٤٣صـ١٦٦ عن ابن أبي عدي وكلاهما (داود،وابن أبي عدي)عن داود بن أبي هند عن الشعبي،عن عائشة رضي الله عنها. والحديث ضعيف السند لضعف ابن الزبرقان الشديد،وهو متروك الحديث، وكذبه الأزدي كما في التقريب ١٧٨٥، ولانقطاعه لأن الشعبي لم يسمع من عائشة كما نص عليه غير واحد من الأئمة. كما ذكره بعض المفسرين وقد تباينت عباراتهم بين التفسير وسبب النزول كالطبري، ج١٩ صـ١٢٢ ،والبغوي،ج٦ صـ ٣٥٨،والقرطبي ج٧صـ١٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن كتاب التفسير، من سورة الأحزاب،برقم ٣٢١٤ ج٥ صـ٣٣١، قال هذا الحديث حسن صحيح لا أعرف إلا من هذا الوجه، ج١١صـ٣بـرقم٣١٣٨.والطبراني في =

١٢- قوله تعالى: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَقُولُ أَتهَبُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ».[1]

١٣- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ

الكبير،ج٢٤ص ـ٤١٣برقم ١٠٠٧ ،وابن عدي. عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني،الكامل في ضعفاء الرجال،ج٢ص ـ٧٠،ومدار الحديث على أبي صالح واسمه باذام، وهو ضعيف يرسل،كما في التقريب ص ـ٦٣٤. كما ذكره الطبري،ج١٩ ص ـ١٣٠، والقرطبي ج٧ ص ـ١٣٣، والبغوي، ج٦ ص ـ٣٦٣، وابن كثير،ج١١ص ـ١٩٠.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التفسير، وفي (باب ترجي من تشاء منهن) برقم ٤٧٨٨ ،ج٣ص ـ٢٦١ ، ومسلم في الصحيح كتاب الرضاع. باب (جواز هبتها نوبتها لضرتها) برقم ٢٦٥٨ ،ج٣ ص ـ٣٨٤ ، وأحمد في المسند، برقم ٢٥٢٥١ ،ج٤٢ص ـ١٤٥ ،والنسائي في الكبرى، برقم ١١٤١٤ ،ج٦ص ـ٤٣٤ .

لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «لمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (١)

قال الطبري: «واختلف أهل العلم في السبب الذي نزلت هذه الآية فيه؛ فقال بعضهم: نزلت بسبب قوم طعموا عند رسول الله ﷺ في وليمة زينب بنت جحش، ثم جلسوا يتحدثون في منزل رسول الله ﷺ، وبرسول الله ﷺ إلى أهله حاجة فمنعه الحياء من أمرهم بالخروج من منزله».(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب التفسير باب قول(لا تدخلوا بيوت النبي...)، برقم ٤٤١٧ ،ج٣ص٤٧٦، ،وأحمد في المسند، برقم ١٢٦٦٩-١٢٧١٦ ج٢٠ص١٠٤،ومسلم في الصحيح كتاب النكاح، زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، برقم ٢٥٦٧،ج٣ص٢٦٩ ، والترمذي في السنن كتاب التفسير،من سورة الأحزاب برقم٣٢١٨ ج٥ ص٣٣٣ ، والنسائي في الكبرى،كتاب التفسير، سورة الأحزاب برقم ١١٤١٦-١١٤١٧-١١٤٢٠،ج٦ص٤٣٤-٤٣٦.كما ذكره الطبري، ج١٩ ص١٦٢، والقرطبي، ج٧ ص١٤٤، والبغوي،ج٦ص٣٦٩،وابن كثير،ج١١ص٢٠٣.

(٢)الطبري،ج١٩ص١٦٢.

قال البغوي: «قال أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله ﷺ.»(١)

قال ابن كثير: « كان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما.»(٢)

١٤- قوله تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

قال البغوي: «قال مقاتل: نزلت في علي بن أبي طالب [وذلك أن ناسا من المنافقين] كانوا يؤذونه ويشتمونه».(٣)

وقال الضحاك، والكلبي: «نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحدًا، يخرجن في درع وخمار، الحرة والأمة، فشكون ذلك إلى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ

(١)البغوي،ج٦ صـ٣٦٩.

(٢)ابن كثير،ج١١ صـ٢٠٣.

(٣)البغوي،ج٦ صـ٣٧٦، والقرطبي،ج٧صـ١٤٥ ذكراه بدون إسناد، والواحدي، أسباب النزول، صـ٥٧٨.

فنزلت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ الآية».[١]

١٥-قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

عن أبي صالح قال: «قدم النبي ﷺ المدينة على غير منزل، فكان نساء النبي ﷺ وغيرهنّ إذا كان الليل خرجن يقضين حوائجهنّ. وكان رجال يجلسون على الطريق للغزل. فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ يقنعن بالجلباب حتى تعرف الأمة من الحرة».[٢]

عن السدي رضي الله عنه في الآية قال: «كان أناس من فساق أهل المدينة بالليل حين يختلط الظلام، يأتون إلى طرق المدينة فيتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق، فيقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يتبعون ذلك منهن، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها».[٣]

١٦-قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا

---

(١)المراجع السابقة دون القرطبي، وقال الواحدي والدليل على صحة هذا قوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾

(٢)الطبري،ج١٩ص١٨٣،والسيوطي في الدر المنثور،ج٨ص٢٠٨، والواحدي،ص٥٧٩.

(٣)السيوطي في الدر المنثور،ج٨ص٢٠٩وعزاه لابن أبي حاتم.

قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ وَقَامَ الْحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾».(١)

ولفظ مسلم وَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ: يا أيها الذي آمنوا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، في مواضع منها فيكتاب التفسير باب قول(لا تكونوا كالذين آذوا موسى) برقم ٤٧٩٩ ،ج٣ص٢٦٤ ، ومسلم في الصحيح كتاب الفضائل،في (باب من فضائل موسى عليه السلام) برقم ٣٣٩ ،ج٤ص١٤٦٨ ، وذكره الطبري،ج١٩ص١٩٣، والقرطبي،ج٧ص١٦١،والبغوي،ج٦ص٣٧٨،وابن كثير،ج١١ص٢٤٦ وغيرهم.

بالله ورسوله لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه منكم، ولا بفعل لا يحبه منكم، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله فرموه بعيب كذبًا وباطلا ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ فيه من الكذب والزور بما أظهر من البرهان على كذبهم».(١)

وقال السعدي: «يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم، محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيها عند الله، مقربًا لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين، فلم يزجرهم ما له، من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك»(٢)

---

(١)الطبري،ج١٩ص١٩٣.

(٢)السعدي،ج٦ ص٢٥٢.

المبحث الثاني

مقاصد السورة

إن الله جل جلاله هو الذي تكلم بهذا القرآن لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[1] فلذلك كان علم مقاصد سوره له أهمية عظمى راجعة إلى تحقيق المقصد من إنزال هذا القرآن و هو التدبر والهداية.

فمقاصد السور عند أهل العلم : هي الموضوعات التي تدور عليها آيات سورة ما، ومقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليها،كما يعين على فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً، و يوصل إلى معرفة الحق في تفسير كلام الله تعالى، وهو سبيل للسلامة من الخطأ في تفسير كلام الله على غير مراده.

بمعرفة مقصد السورة تنتظم آيات السورة و تظهر المناسبات بين آياتها قال البقاعي: من حقق المقصود من السورة عرف تناسب آيها وقصصها و جميع أجزائها .

ولذا فقد أهتم به بعض المفسرين وأشاروا له ضمناً بدون تصريح،ومنهم من صرح به، ومن أهل العلم من دون فيه مصنفات كالفيروز آبادي، والبقاعي،وغيرهما.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

يقول الفيروز آبادي في سورة الأحزاب: «معظم مقصود السّورة الذي اشتملت عليه: الأَمر بالتَّقوى، وأَنه ليس في صدرٍ واحد قلبان، وأَنَّ المتبَنَّى ليس بمنزلة الابن، وأَنَّ النبي ﷺ للمؤمنين بمكان الوالد، وأَزواجه الطاهرات بمكان الأُمهات، وأَخذ الميثاق على الأَنبياءِ، والسؤال عن صدق الصّادقين، وذكر حَرْبِ الأَحزاب، والشاكية من المنافقين، وذمّ المعرضين، ووفاء الرِّجال بالعهد، وردّ الكفَّار بغيظهم، وتخيير أُمّهات المؤمنين، ووعظهنَّ، ونصحهنَّ، وبيان شرف أَهل البيت الطَّاهرين ووعد المسلمين والمسلمات بالأُجور الوافرات، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحَرَج عن النبي ﷺ، وختم الأَنبياءِ به عليه السّلام، والأَمر بالذكر الكثير، والصّلوات والتسليمات على المؤمنين، والمخاطبات الشريفة لسيِّدنا المصطفى ﷺ ، وبيان النكاح، والطَّلاق، والعدّة، وخصائص النبي ﷺ في باب النكاح، وتخييره في القَسْم بين الأَزواج والحجر عليه في تبديلهنَّ، ونهى الصحابة عن دخول حُجْرة النبي ﷺ بغير إِذن منه، وضَرْب الحجاب، ونهى المؤمنين عن تزوّج أَزواجه بعده، والموافقة مع الملائكة في الصلاة على النبي ﷺ، وتهديد المؤذين للنبي وللمؤمنين، وتعليم آداب النساءِ في خروجهن من البيوت، وتهديد المنافقين في إِيقاع الأَراجيف، وذلّ الكفار في النار، والنَّهى عن إِيذاءِ الرّسول ﷺ والأَمر بالقول السّديد وبيان عَرْض الأَمانة (على السموات والأَرض) إِلى آخر السّورة».(١)

---

(١)الفيروز آبادي،بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، صـ٣٨١.

ويقـول البقـاعي: «ومقـصودها: الحـث عـلى الـصدق في الإخـلاص في التوجه إلى الخالق من غير مراعاةٍ بوجه ما للخلائق، لأنه عليم بما يصلحهم، حكيم فيما يفعله، فهو يعلي من يشاء،وإن كان ضعيفاً، ويردى من يريد وإن كان قوياً، فلا يضمن الماضي لأمره برجاء لأحد منهم في بره، ولا خوف منه في عظيم شره، وخفي مكره .

وتسميتها بالأحزاب أوضح دليل على ذلك، بتأمل القصة التي أشارت إليها، ودلت عليها »(١).

ويقول ابن عاشور: «وأهم أغراضها: الرد عليهم قولهم لما تزوج النبي ﷺ زينب بنتَ جَحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك، فأنزل الله تعالى إبطال التبنّي. وأن الحق في أحكام الله لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق.

وأن ولاية النبي ﷺ للمؤمنين أقوى ولاية، ولأزواجه حرمة الأمهات لهم، وتلك ولاية من جعْل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام .

وتحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين.

والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين.

---

(١)البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور،ج٢ صـ٣٧٠،وكذا نظم الدرر، ج١٥صـ١٥ .

والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين، ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب.

وانتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبي ﷺ وذكر فضلهن وفضل آل النبي ﷺ وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات .

وتشريع في عِدّة المطلَّقة قبل البناء، وما يسوغ لرسول الله ﷺ من الأزواج.

وحكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسه المؤمنات إذا خرجْن، وتهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة .

وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية، فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، وتخلّل ذلك مستطردات من الأمر بالا تساء بالنبي ﷺ وتحريض المؤمنين على ذكر الله، وتنزيهه شكراً له على هديه، وتعظيم قدْر النبي ﷺ عند الله وفي الملأ الأعلى، والأمر بالصلاة عليه والسلام، ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين، والتحذير من التورط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام »(١).

ويقول سيد قطب: «تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين، واتباع ما يوحي إليه ربه، والتوكل عليه وحده، وهو البدء الذي يربط سائر ما ورد في السورة من تنظيمات وأحداث

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٨ص٢٤٧-٢٤٨.

بالأصل الكبير الذي تقوم عليه شرائع هذا الدين وتوجيهاته، ونظمه وأوضاعه، وآدابه وأخلاقه.. أصل استشعار القلب لجلال الله، والاستسلام المطلق لإرادته؛ واتباع المنهج الذي اختاره، والتوكل عليه وحده والاطمئنان إلى حمايته ونصرته.

وبعد ذلك يلقي بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية. مبتدئاً بإيقاع حاسم يقرر حقيقة واقعة: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.. يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد، وإلا نافق، واضطربت خطاه، وما دام لا يملك إلا قلباً واحداً، فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجاً واحداً؛ وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات .

ومن ثم يأخذ في إبطال عادة الظهار وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾. ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أماً بهذا الكلام.. ويثني بإبطال عادة التبني وآثاره: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ فلا يعودون بعد اليوم يتوارثون، ويستبقي بعد ذلك أو ينشئ الولاية العامة لرسول الله ﷺ على المؤمنين جميعاً، ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم؛ كما ينشىء صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبي ﷺ وجميع المؤمنين: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾.. ثم يبطل آثار المؤاخاة التي تمت في أول الهجرة؛ ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية في الإرث والدية وما إليها: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾

وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية.

ويتناول بعد ذلك ببيان نعمة الله على المؤمنين، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين، ثم يأخذ في تصوير وقعتي الأحزاب وبني قريظة تصويراً حياً، في مشاهد متعاقبة، ترسم المشاعر الباطنة، والحركات الظاهرة، والحوار بين الجماعات والأفراد، وفي خلال رسم المعركة وتطوراتها تجيء التوجيهات في موضعها المناسب؛ وتجيء التعقيبات على الأحداث مقررة للمنهج القرآني في إنشاء القيم الثابتة التي يقررها للحياة، من خلال ما وقع فعلاً، وما جاش في الأخلاد والضمائر.

بعد ذلك يجيء قرارتخيير أزواج النبي ﷺ اللواتي طالبنه بالتوسعة في النفقة عليهن بعدما وسع الله عليه وعلى المسلمين من فيء بني قريظة العظيم وما قبله من الغنائم.تخييرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة، وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ورضين هذا المقام الكريم عند الله ورسول الله ﷺ، وآثرنه على متاع الحياة. ومن ثم جاءهن البيان عن جزائهن المضاعف في الأجر إن اتقين وفي العذاب إن ارتكبن فاحشة مبينة، وعلل هذه المضاعفة بمقامهن الكريم، وصلتهن برسول الله ﷺ ونزول القرآن في بيوتهن وتلاوته، والحكمة التي يسمعنها من النبي ﷺ،واستطرد في بيان جزاء المؤمنين كافة والمؤمنات.

ثم تناول في إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة مولاه، وما نزل في شأنه أولاً من رد أمر المؤمنين والمؤمنات كافة إلى الله، ليس لهم منه شيء، وليس لهم في أنفسهم خيرة. إنما هي إرادة الله وقدره الذي يسير كل شيء، ويستسلم له المؤمن الاستسلام الكامل الصريح: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

ثم يعقب حادث الزواج حادث الطلاق؛ وما وراءه من إبطال آثار التبني، الذي سبق الكلام عليه في أول السورة. إبطاله بسابقة عملية؛ يختار لها رسول الله ﷺ بشخصه، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية، وصعوبة الخروج عليها. فيقع الابتلاء على رسول الله ﷺ ليحملها فيما يحمل من أعباء الدعوة وتقرير أصولها في واقع المجتمع، بعد تقريرها في أعماق الضمير: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ وبهذه المناسبة يوضح حقيقة العلاقة بين رسول الله ﷺ والمؤمنين كافة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ويختم بتوجيهات للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين.. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ .

ثم يبين حكم المطلقات قبل الدخول،ويتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ فيبين من يحل له من النساء المؤمنات، ومن يحرمن عليه، ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي وزوجاته، في حياته وبعد وفاته، وتقرير احتجابهن إلا على آبائهن أو ابنائهن أو إخوانهن أو ابناء إخوانهن أو ابناء أخواتهن أو

نسائهن، أو ما ملكت أيمانهن، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله ﷺ في أزواجه وبيوته وشعوره؛ ويلعنهم في الدنيا والآخرة. مما يشي بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً.

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ وبتهديد المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة بإغراء النبي ﷺ بهم وإخراجهم من المدينة كما خرج من قبل بنو قينقاع وبنو النضير، أو القضاء عليهم كما وقع لبني قريظة أخيراً .

وفي آخر السورة سؤال الناس عن الساعة، والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله، والتلويح بأنها قد تكون قريباً، ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم الذين أطاعوهم فأضلوهم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ . ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ وهو إيقاع يكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشرية، وعلى عاتق الجماعة المسلمة بصفة خاصة؛ وهي التي تنهض وحدها بعبء هذه الأمانة الكبرى؛ أمانة العقيدة والاستقامة عليها. والدعوة والصبر على تكاليفها، والشريعة والقيام على تنفيذها في أنفسهم وفي

الأرض من حولهم. مما يتمشى مع موضوع السورة، وجوها؛ وطبيعة المنهج الإلهي الذي تتولى السورة تنظيم المجتمع الإسلامي على أساسه».[1]

نخلص مما سبق بحصر أغراض السورة مجملاً في نقاط ثلاث:

١-الأحكام والتشريعات،كحكم الظهار، والتبني، والحجاب،والزواج بعد الطلاق من زوجة الابن المتبنى به،وحكم الحجاب وغيرها.

٢-التوجيهات والآداب الإسلامية،مثل أمر النبي ﷺ بالتقوى، وآداب الوليمة، والآداب في التعامل مع النبي ﷺ وأهل بيته، وغير ذلك.

٣-الحديث عن غزوتي الأحزاب وبني قريظة،فقد جاء في السورة تفصيل عن غزوة الأحزاب مع فضح أهل النفاق وما توارت به شخصياتهم من خديعة وتمحلات على الدين الإسلامي وأهله، مع فضح سرائرهم وما يضمرون فيها من حنق على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

---

١) سيد قطب،في ظلال القرآن، ج٥ صـ٢٨١٨-٢٨٢١.

الباب الثاني

التناسق الموضوعي: دراسة تطبيقية

وفيه فصلان:

الفصل الأول: **مناسبات السورة الكريمة** .

الفصل الثاني: **موضوعات السورة الكريمة وتناسقها** .

الفصل الثالث: **تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي**.

الخاتمة: **وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية**.

الفصل الأول

مناسبات السورة الكريمة

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: **مناسبة اسم السورة لموضوعها.**

المبحث الثاني: **مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها.**

المبحث الأول

مناسبة اسم السورة لموضوعها

لقد تحدثنا من قبل عن علم المناسبات،وفوائده،واهتمام أهل العلم به وأنه من العلوم التي تعد مرتكزاً في فهم ما تشير إليه الآيات من معجزات، كما يعد وسيلة أساس في إدراك أغراض السورة وموضوعها.

-قد بينا ماتحقق في اسم سورة الأحزاب وأن ليس لها اسم غيره ثابت برواية أو أثر.

-أما عن موضوعها فبعد الاستقراء الطويل والتدبر في آيات السورة ترجح لي ما مال إليه ابن عاشور وغيره من المفسرين من أن موضوعها يتعلق (بأحوال النبي ﷺ)

-أما عن المناسبة بين اسمها وموضوعها أقول- وبالله العون والتوفيق والتسديد-:

لعل مما يبرز في السورة ما وجه الله به نبيه ﷺ في بدايتها بعد أمره بالتقوى وعدم طاعة أهل الكفر أن يتبع ما أوحي إليه من ربه بإذعان وتسليم لله رب العالمين، وفي هذا تمهيد لما يرد في الوحي من التكليف بالرسالة والقيام بالعهد والميثاق كسابقيه من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ ولا غرو أن القيام بالميثاق لا تقوم به إلا النفوس الطاهرة الزكية التقية كنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنها نفس النبي العظيم محمد ﷺ التي رعاها الله

جل وعلا في كتابه وفي هذه السورة بالأخص من سور القرآن الكريم، فهيأها للقيام بتكاليف الرسالة على أكمل وجه،بدأ بأمره بالتقوى وتحذيره ﷺ من طاعة أهل الكفر الذين كانوا يحُيطون به ﷺ في المدينة وأهل النفاق واليهود الذين تعامل معهم ﷺ طمعاً في هدايتهم،وغيرها من التوجيهات.

وقد تجلت تلك العناية وذلك الحفظ في مواطن كثيرة منها ما حدث في غزوة الأحزاب حين تحزبت فيها قوى الشر من مشركي قريش وأوباش العرب، ويهود المدينة ومنافقيها الذين سبق تحذير الله جل وعلا لنبيه منهم،فيذكرهم الله جل وعلا بنعمته عليهم أن رد عنهم قوى الطغيان والخديعة والغدر الذين هموا بالقضاء عليهم، لولا عون الله وتأييده وتدبيره، «يبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذي همّ أن يستأصلهم، لولا عون الله وتدبيره اللطيف. ومن ثم يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه. لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها؛ وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين »(١)

« ولما افتتحت هذه السورة بما حاصله ما قدمناه من إعلامه ﷺ من هذا الأمر بعلوِّ حاله وتنزيه قدره، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب التنزيه

---

(١)سيد قطب،في ظلال القرآن،ج٥ ص٢٨٣٦.

في مواضيع منها: تعداد نعمه عليهم وتحسين خلاصهم كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾»(١) وليأخذ أهل الإيمان في كل زمن هذا الدرس العظيم حين تأملهم في نعمة الله على نبيه ﷺ،وعباده المؤمنين الذين اتبعوا وحيه،وتوكلوا عليه وحده، وقاموا بميثاقه وعهده الذي أخذه عليهم،واجتنبوا طاعة الكافرين والمنافقين،وقاتلوهم لإعلاء كلمة الله تعالى مع ما بلغ الأمر من ذروة في الشدة والضنك، كما وصفه الله تعالى في قوله سبحانه ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾ إلا أنهم ثبتوا على مبادئهم لعمق إيمانهم وصدق نياتهم، فكان لسان حالهم ومقالهم ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾ ﴾.

وفي المقابل أبان حال المنافقين ومقالهم في قوله: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾ فكشف الله خبيئة نفوسهم،

---

(١)ابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، ص١٤٨-١٥٠.

وجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين.

وكانت النتيجة أن الله زكى أولياءه حملة شريعته والمدافعين عنها بأموالهم وأنفسهم ليظهر الله دينه،ويعز أنصاره في قوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

وفي المقابل صورة أهل النفاق ونقض العهد وجزائهم،ليظهر حفظ الله وعنايته بنبيه ﷺ وعباده المؤمنين، وأن كل من سار على نهج محمد ﷺ وامتثل ما أمره الله به واجتهد في نصرة دينه، حفظه الله وأيده بنصره ووفقه لكل ما يحبه ويرضاه من قول أو عمل، كما كتب ذلك لناصر دينه ومبلغ دعوته ومن قام بعهد الله وميثاقه على أكمل وجه ﷺ .

- "وتمضي السورة تحدثنا عن ما وقع في بيت النبي (ﷺ) من تحزب نسائه عليه وسؤال النفقة مما أحث الشقاق بينهن وبين رسول (ﷺ) فمكث شهراً لا يقربهن وقد اعتزل عنهن وعن الناس ولوحظ عليه ذلك حتى أنزل الله تعالى آية التخيير لنسائه .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال :" دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

(ﷺ)، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال : ،فأذن لأبى بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى (ﷺ) جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا ، قال: فقال لأقولن شيئا أضحك النبى (ﷺ) فقال يا رسول الله : لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ،فضحك رسول الله (ﷺ) وقال : هن حوالى كما ترى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر إلى

عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله (ﷺ) ما ليس عنده فقلن : والله لا نسأل رسول الله (ﷺ) شيئا أبدا ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ قال النووى في شرحه على مسلم قوله (واجما) قال أهل اللغة : هو الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . يقال وجم بفتح الجيم وجومًا) [١] هذه الرواية تفيد أن نساء النبي (ﷺ) اجتمعن وأتفقن فيما بينهن على سؤال النبى صلى الله عليه وسلم النفقة .

وأن النبى (ﷺ) حزن لذلك،وهذا الموقف وما تمخض عنه وهذا داخل في المعنى الدلالى لكلمة الأحزاب ، فقد حزبه(ﷺ) هذا الأمر ،حتى أنه اعتزل نساءه قرابة الشهر .

- لقد انقسم الناس في السورة إلى طوائف، والحزب بمعنى الطائفة ، والصف من الناس . قسمتهم إلى (كافرين ومنافقين) وهؤلاء حزب الشيطان، و (مؤمنين) وهؤلاء حزب الرحمن .
- انظر إلى ما جاء في مقدمة السورة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ والكافرون: هم القادمون من الخارج أحزابا

(١) صحيح مسلم . شرح النووى ج٣ ص٦٨٧ ك الطلاق . باب بيان أن بره امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنسبة .

يريدون النيل من الرسول ،والإسلام اتفقوا على ذلك ،وتعاهدوا عليه ،والمنافقون: هم الذين يحاولون زعزعة ثقة المؤمنين في الداخل والنيل منهم، كما جاء فى. السورة ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴾ (١)

والمنافقون: قوم تشاكلت قلوبهم على الكيد للإسلام، والنيل منه.

أما المؤمنون: هم حزب الله المصدقون به وبرسله وبقضائه وقدره ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢)

فالمؤمنون قوم تشاكلت قلوبهم، واتفقت على حب الله ورسوله.

وفى النهاية فإن وجه المناسبة بين اسم السورة وموضوعها المتمثل فى شخص النبى (ﷺ) يمكن تلخيصه فيما يلى :

١ - أن قوى الشر تحزبت لتهدم دعوته (ﷺ) وتقضى عليه .

---

(١) الأحزاب ١٢-١٣

(٢) الأحزاب ٢٢-٢٣

٢- أن المنافقين والمرجفون تحزبوا لينالوا من شخص النبى (ﷺ) الشريف لما تزوج من أم المؤمنين زينب وآذوه بالإشاعات المغرضة الكاذبة .

٣- أن المسلمين آذوا رسول الله (ﷺ) عندما لم يراعوا الحرية الشخصية للنبي (ﷺ)

٤- أن نساءه (ﷺ) آذوه عندما تحزبوا ودعوه ليسألوه النفقة .

٥- أنه (ﷺ) حزبته كل هذه الأمور وأحزنته وإنك لو أمعنت النظر فيما قلته وجدت انسجامه على ما فى السورة من آيات، ووجدت أن المعنى الدلالى للأحزاب فيه كل ما ذكرت .

إن السورة الكريمة تقص فترة عصيبة فى حياة الرسول (ﷺ) والأمة المسلمة حين تحزبت عليهم قوى الشر، واشتد الأمر عليهم ،وعلى الرسول (ﷺ) ، ولعل ما قلته يعد وجهاً من أوجه التناسب بين اسم السورة وموضوعها وهدفها الذي سيقت من أجله." [١]

---

(١)

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها

« خاطب الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ لاقتضاء مقصود السورة مقام النبوة التي بين الرب وعبده في تقريبه وإعلائه إلى جنابه،لأن للنبوة اشتقاقيين:أحدهما من النبأ وهو الخبر، وذلك لمن اصطفى من البشر لرتبة السماع والإنباء،فيكون حامل علم، والثاني:من النبوة وهي الارتفاع والعلو»(١).

وعلى المعنى الأول ندرك أن السورة حفلت بأنباء مهمة،،ناسب البدء بهذا اللفظ.

ويقول ابن عاشور: «افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله »(٢).

ولعظم افتتاحية السورة التي تنبئ « بعلو حاله وتنزيه قدره ﷺ، ناسب ذلك ما احتوت عليه السورة من باب التنزيه في مواضيع منها: إعلامه تعالى بأن أزواج نبيه أمهات المؤمنين، فنزَّههن عن أن يكون حكمهن كحكم غيرهن من النساء، مزية لهن وتخصيصاً، وإجلالاً لنبيه ﷺ، ومنها قوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ فنزههم

---

(١)البقاعي،١٥ صـ٢٧٤ بتصرف.

(٢)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١صـ٢٤٩.

عن طُرُوّ شكٍ أو دخول ارتياب على صون معتقداتهم وجليل إيمانهم ، ومنها : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ ﴾ فنزههن تعالى وبيّن شرفهن على من عداهن،ومنها تنزيه أهل البيت وتكريمهم ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ ﴾ ، ومنها الأمر بالحجاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾، ومنها قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ فوقاهم جل وتعالى ونزههم بما نهاهم عنه أن يتشبهوا بمن استحق اللعن والغضب في سوء أدبهم وعظيم مرتكبهم،إلى ما تضمنت السورة من هذا القبيل »[١]

وقد نودي ﷺ بهذا النداء الذي يشعر بعظمة العهد والميثاق الذي أخذه الله عليه وعلى من سبقه من الأنبياء والرسل والذي جاء تجديد ذكره في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ ﴾ ، وبعظمة الرسول ﷺ الذي شرفه ربه وزكاه ونزهه بأمره له بالتقوى ليزداد منها بمقدار ما يقدر عليه لذي الجلال والإكرام، لئلا يلتفت إلى شيء سواه سبحانه وتعالى، ويكون في جميع أحواله الخاصة به وبغيره ممن حوله منزها ومكرما.

ثم أتبعه ذلك الأمر العظيم بنهيه عن الإصغاء إلى الكافرين والمنافقين،

---

(١)ابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، ص١٤٨-١٤٩.

وإتباعه ما يوحى إليه من ربه، فشملت الآيات إعلام الله نبيه ﷺ بما قد أعطاه من سلوك طريق النجاة،ليشعره باستقامة سبيله واستيضاح دليله،لأنه ﷺ أدرك إدراكاً حقيقياً تلك الأسس التي بدأت بها السورة وما تضمنته من أوامر ونواهي جعلها الله مناط الاستقامة الحقيقية، والأسس التي تبنى عليها النفوس وتحقق مطالب النفس البشرية لتجد فيها غُنيتها وما يوافق فطرتها، وبها يقع البناء الشامخ في الأمة وترفع بها تبعات الرسالة،فما كان منه ﷺ إلا الهمة العالية، والاستجابة الكاملة، للتوجيهات الربانية.فقام بإبلاغ الرسالة على أكمل وجه، وسلك بها أسلم الطرق لتصل للقلوب صافية نقيه،وتتقبلها العقول بدون أي شائبة لتنقذها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن جور الكفر إلى عدل الإسلام.

فوقع التحول في البشرية في أقل من ربع قرن، وتحقق مالم يتحقق في أكثر من قرون، مع ما واجه ﷺ من عقبات، لأنه أتى بما غير حياة أهل الجاهلية بدأ بالتحذير من ترك الأنداد وصرف العبادة لله وحده دون سواه،ونبذ العادات الجاهلية المخالفة للإسلام، والبعد عن الشهوات التي حرمها الله في كتابه وغير ذلك مما أمره الله بتبليغه، ولكن قلوب أهل الكفر والإجرام، أبت أن تتقبل تلك الشريعة السمحة فقابلتها بالرفض والإنكار، وتسفيه الأحلام والعقول، وببذل أنفس الأموال والأنفس والأوقات في الصد عن سبيل الحق والهدى والنور،واستخدموا في سبيل ذلك وسائل كثيرة،كالإرجاف، ونشر الفرقة بين المسلمين، والسعي في تحزيب الأحزاب ضده،وغير ذلك مما استطاعوه من وسائل،فلقي النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عليهم، أشد العداوات وأصناف من العذاب،وما غزوة الأحزاب إلا أقرب مثال على ذلك،ومثالاً حي لأخلاق

الكافرين والمنافقين الذين حذر الله رسوله ﷺ منهم، ونموذج لامتثال رسول الله ﷺ في ما أخذ عليه من ميثاق، فجاءت الثمرة العاجلة بأن ثبته الله وأحاطه بحفظه وتأييده،ولطف بأهل بيته ونزههم بجعل أحكام ترتبط بهم، وشرع للأمة توجيهات وآداب مع رسولها ﷺ يلزم الأخذ بها وعدم البعد عنها،وربط القلوب بخالقها من خلال بيان أسباب النجاة والسلامة من كيدهم، والتحذير المتتابع من كيد الكفار وأهل النفاق الذي تردد في السورة كثيراً، مع ذكر الأمثلة على ذلك.

فشملت هذه السورة جزءًا كبيرًا من حياة النبي ﷺ في جوانب شتى كما أشار إلى ذلك جمع من المفسرين سبق بيان أقوالهم في مقاصد السورة، ليمثل لأتباعه سبب أمر الله للخلق في اتخاذ محمد ﷺ قدوة وأسوة للبشرية جميعاً، حيث كملت نفسه، وزكت روحه ﷺ، فأصبحت العظمة والتقوى والنقاء والصفاء إذا أطلقت توجهت النظرة إلى شخص محمد ﷺ الذي عصمه ربه ،وأدبه فأحسن تأديبه ﷺ.

الفصل الثاني

موضوعات السورة الكريمة وتناسقها.

ويشتمل على تمهيد والمباحث التالية:

المبحث الأول: **توجيهات خاصة بالنبي ﷺ فيما يتصل بنفسه، وبالمؤمنين. ويشمل الآيات (١- ٢٧).**

المبحث الثاني: **بناء بيت النبوة وبيوت المؤمنين. ويشمل الآيات** (٢٨- ٥٥).

المبحث الثالث: **مكانة النبي ﷺ، وعظم إيذائه وإيذاء المؤمنين. ويشمل الآيات (٥٦- ٧٣).**

تمهيد

المتأمل لسور القرآن العزيز يمثُل له اشتمال كل سورة من سوره على وحدة تتناول الموضوع الواحد في حيثيات متعددة لآيات السورة القرآنية، يبرز فيها التناسق والتناسب كخرزات عقد واحد، ليخرج للمتدبر لكلام الله عزوجل عظمته وجواهره ودرره التي تدفعه إلى أن يكون القرآن الكريم واقعاً ملموساً في حياته باطناً وظاهراً، وجعله طريقة من طرائق فهم كلام الله تعالى .

ولعلنا ندرس سورة الأحزاب لنبرهن ذلك، لاسيما أننا نقف مع سورة نزلت في فترة كانت من أصعب الفترات على الأمة الإسلامية،تحتاج فيها إلى كثير من التشريعات والأسس لقيام دولة الإسلام في المدينة النبوية .

ولهذا نزل فيها مواضيع ذات تأصيلات وتفريعات عميقه،أشار إليها بعض المفسرين كالرازي وقال: «السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي ﷺ وذكر مكارم الأخلاق، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدباً ذكر للمؤمنين ما يناسبه، فكما بدأ الله في تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ثم كما ثلث في تأديب النبي بجانب الأمة

ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم، فقال بعد هذا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ وبقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ولما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي عليه السلام بأحسن الآداب، بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ ﴾ »(١).

ويقول سيد قطب: « بالتأمل في جميع الجوانب في السورة تبدو لنا وحدة السورة، وتماسك سياقها، وتساوق موضوعاتها المنوعة. وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن التي تربط بين الأحداث والتنظيمات التي تتناولها السورة .

تبدأ السورة ذلك البدء بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين، واتباع ما يوحي إليه ربه وبعد ذلك يلقي بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية وهذا هو إجمال الشوط الأول في السورة .

ويتناول الشوط الثاني بيان نعمة الله على المؤمنين، إذ رد عنهم كيد الأحزاب والمهاجمين .

بعد ذلك يجيء قرار تخيير أزواج النبي ﷺ اللواتي طالبنه بالتوسعة في النفقة عليهن.

وكان هذا هو الشوط الثالث.

---

(١)الرازي،التفسير الكبير، ج٩ص١٧٥.

فأما الشوط الرابع فتناول إشارة غير صريحة إلى موضوع تزويج زينب بنت جحش القرشية الهاشمية بنت عمة رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة مولاه.

ويبدأ الشوط الخامس ببيان حكم المطلقات قبل الدخول. ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ فيبين من يحل له من النساء المؤمنات ومن يحرم عليه.

والشوط السادس والأخير في السورة يتضمن سؤال الناس عن الساعة، والإجابة على هذا التساؤل بأن علم الساعة عند الله، والتلويح بأنها قد تكون قريباً. ويتبع هذا مشهد من مشاهد القيامة: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾

ثم تختم السورة بإيقاع هائل عميق الدلالة والتأثير: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾»[(١)]

وألمح ابن عاشور إلماحة إلى شيء من ذلك فقال: «وقد نودي فيها خمس مرات في افتتاح أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلق بغيره وله ملابسة له.

فالنداء الأول : لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه.

---

(١)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥ ص٢٨١٨-٢٨٢١.

والنداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه.

والنداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته في معاملة الأمة.

والنداء الرابع: في طالعة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه.

والنداء الخامس: في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.» (١)

ويقول سعيد حوى: «وسنعرض سورة الأحزاب على أن كل ما صدّر بكلمة ﴿يَتَأَيُّهَا﴾ يشكّل مقطعاً من مقاطعها ما عدا الندائين الأخيرين فإنهما كالمقطع الواحد،ومن ثم فإن السورة تتألف من عشرة مقاطع.

المقطع الأول :يمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٨).

المقطع الثاني :يمتد من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٢٧) .

المقطع الثالث :يمتد من الآية (٢٨) إلى نهاية الآية (٤٠) .

المقطع الرابع :يمتد من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٤٤) .

المقطع الخامس :يمتد من الآية (٤٥) إلى نهاية الآية (٤٨) .

المقطع السادس : وهو الآية (٤٩) .

المقطع السابع :يمتد من الآية (٥٠) إلى نهاية الآية (٥٢) .

المقطع الثامن :يمتد من الآية (٥٣) إلى نهاية الآية (٥٨) .

المقطع التاسع :يمتد من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (٦٨) .

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٢٤٩.

المقطع العاشر :يمتد من الآية (٦٩) إلى نهاية الآية (٧٣) »[١].

وقال محمد عزة دروزة: «في هذه السورة مواضيع عديدة ومتنوعة.منها ما هو تشريعي في صدد أحكام التبني والظهار، ومنها ما هو حربي في صدد وقعتي الأحزاب وبني قريظة، ومنها ماله علاقة بأزواج النبي ﷺ وبيوته وزواجه بمطابقة إبنه بالتبني، وفيها حملات على الكفار والمنافقين »[٢].

ولقد اجتهدت بعد التأمل في السورة الكريمة،وبعد الإطلاع على ما ذكره المفسرون في لمّ شملها ليظهر جمال تناسق موضوعاتها، واتحاد نظمها، وقسمت مواضيعها إلى ثلاثة مواضيع مراعياً في ذلك التناسب والتناسق، وبالله العون والتوفيق وهي على النحو التالي:

---

(١) سعيد حوى،الأساس في التفسير، دار السلام،ج٨ قسم المثاني،ص٤٣٨٥.

(٢) دروزة، التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، ج٨ ص٢٣٨.

المبحث الأول

توجيهات خاصة بالنبي ﷺ فيما يتصل بنفسه، وبالمؤمنين

ويشمل الآيات (١- ٢٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا
(١) وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (٢) وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي
تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ
يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ (٤) ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ
فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ
قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (٥) ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ
وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن
تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا (٦) وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا
(٧) لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرًا (٩) إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ
ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا (١١) وَإِذۡ يَقُولُ
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا (١٢) وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ
يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ
إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا (١٣) وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا
يَسِيرٗا (١٤) وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا (١٥) قُل لَّن

يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى
يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا
ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم
بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

بدأت السورة بتوجيهات ربانية لإمام الأمة وقائدها ﷺ الذي يحمل رسالة ربانية يدرك بها عقبات الطريق، ومكائد الأعداء حيال البناء الحسي والمعنوي لدولة الإسلام،ولكنه لم يمثل لشيء من تلك العقبات بل عقد العزم على القيام بما أخذ الله عليه به العهد والميثاق، وبإيمانه القوي بأن الله قد تكفل بقيام الدين وحفظه،ولكن لابد من الأخذ بسنن الله الكونية والشرعية.

فكان التوجيه الأول بدء بالنداء له ﷺ بالاسم الشريف الذي «افتتح به

الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله »[1]ثم أمره بتقوى الله تعالى،أي زد من التقوى لربك وخالقك يا من هي سجيته وهمه.

أما التوجيه الثاني جاء بصيغة النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين لتخلص تقواه على التعلق بالله دون غيره، فيتوجه لربه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهذا هو حقيقة الإستسلام لله عز وجل بكليته، وهي توطئة لما سيلقيه الله عليه من تشريع لا يخلو من حرج عليه وعلى أمته على ما يواجهه من مطاعن الكافرين والمنافقين.

التوجيه الثالث الأمر با تباع ما يوحى إليه من ربه مما جاء في القرآن من تشريعات وأحكام وتوجيهات له وللمؤمنين تتعلق بأحوال أمته السياسية والاجتماعية والأسرية وغير ذلك.

التوجيه الرابع أمره ﷺ بالتوكل عليه وتفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى،فهو الذي بيده مقاليد كل شيء وإليه يرجع الأمر كله.
«إن مقدمة سورة الأحزاب تحدد الطريق العملي للسلوك:

١-تقوى الله.

٢-عدم طاعة الكافرين والمنافقين.

٣-اتباع الكتاب والسنة.

---

١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٢٤٩.

٤-التوكل على الله.

والصلة بين هذه الأوامر واضحة، فالتقوى لا تكون مع طاعة الكافرين والمنافقين،إذ الكافرون والمنافقون يرغبون أن يحرفوا المؤمنين، والتقوى وأتباع الوحي متلازمان،والتقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين وأتباع الوحي كلها تحتاج إلى توكل على الله وتفويض أمر له ومعرفة له » [1]

المتأمل في هذه التوجيهات الثلاثة: تقوى الله، وإتباع وحيه،والتوكل عليه، مع مخالفة الكافرين والمنافقين يجد أنها تربط جميع ما ورد في السورة من توجيهات،وآداب،وأحداث بالأصل العظيم الذي تقوم عليه شرائع الدين وتوجيهاته، وآدابه وأخلاقه، مع علاقتها الحسية في تأسيس دولة الإسلام ألا وهو استعظام القلب لجلال الله ليقع الاستسلام التام وصدق اللجأ لله تعالى، وجعل مصدر التلقي واحداً، ليتوحد القصد والعمل في اتباع منهج قد استبان سبيله،وتحددت معالمه. فبدأ بالقدوة الأسمى والرسول الأعظم الذي رباه ربه وأدبه وأحسن تأديبه، فمثُل فيه ﷺ الشخصية الفذة لكل داعية، ومصلح، وكل إمام،وقائد يسعى لبناء دولة الإسلام، وبناء النفس البشرية ليتسق البناء عند اتحاد البنائين، وقيامهما على الأسس الراسخة القوية القويمة ليكون بناء شامخاً قوياً يُصد به كيد الكائدين ويُرد به عداء المعتدين، مع ما جاء في الألفاظ من تناسق يعجز كل فصيح وبليغ.

---

(١) انظر : سعيد حوى ، الأساس في التفسير، ج٨ص ٤٣٨٦-٤٣٨٧.

فتأمل قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ «مرادف معنى لا تتق الكافرين والمنافقين فإن الطاعة تقوى فصار مجموع الجملتين مفيدا معنى: يا أيها النبي لا تتق إلا الله، فعدل عن صيغة القصر مع شهرتها إلى ذكر جملتي أمر ونهي لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين»[١] . وقوله في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تعليل للنهي لأنه سبحانه لم يأمرك أو ينهاك إلا وقد علم ما يترتب عليه، وأحكم بإصلاح الحال فيه.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ تأمل التناسق بين مطلعها وختامها، فالأمر فيها باتباع ما يوحى إلى النبي ﷺ بالخصوص وعبر عنه بلفظ ﴿إِلَيْكَ﴾ وبين مصدره ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فالإتباع متعين بحكم هذه الألفاظ ومن صدر منه الأمر. إضافة إلى ما ذيلت به الآية « ذيلت جملة ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تعليلاً للأمر بالإتباع وتأنيسا به لأن الله خبير بما في عوائدكم ونفوسكم فإذا أبطل شيئا من ذلك فإن إبطاله من تعلق العلم بلزوم تغييره فلا تتريثوا في امتثال أمره في ذلك »[٢] .

وفي قوله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمره بإلقاء الأمور كلها إلى الله ثم كان الختام متناسقاً بأنه كفى به جل وعلا وكيلاً دافعاً كل ضر وبلاء وكيد وعداء، فلا تلتفت

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١صـ٢٥٠.

(٢)السابق، ج٢١ صـ٢٥٢.

في شيء من أمرك إلى غيره، وفي هذا توكيد وتناسق لما سبق الأمر به من التوجه إلى الله تعالى وجعله الآله الواحد الأحد الذي يتلقى منه كل أمر ونهي، ويقصد بجميع أعماله فالإنسان لا يملك إلا قلباً واحداً، فلابد أن يكون له منهج واحد يسير عليه فهو لا يملك أن يأخذ شرائعه وأحكامه من معين، وآدابه وأخلاقه من معين آخر، فهذا تنازع إلى جهتين متباينتين كأنه يتصرف بقلبين، فأكد التوجه إلى الله بالملفوظ من خلال المؤكدات، وبالمحسوس من خلال النفي الوارد في قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ ليندفع الوهم الذي وقع عند بعض أهل الجاهلية، وتمهيداً لما سيرد من توجيهات في عوائد وضلالات تأصلت في سلوك أهل الجاهلية التي لا تقبل فيها النقاش ولا التغير، « هي مقدمة للآيات التالية التي فيها حملة على بعض التقاليد الجاهلية الراسخة،وأمر بإلغائها على سبيل التثبيت والتشجيع والتنبيه على وجوب تنفيذ وحى الله وأمره وعدم المبالاة باعتراض الكفار والمنافقين »[1] فجاءت الآيات مبطلة لمزاعمهم في عادتي الظهار والتبني بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ فالبلاغة في اللفظ في ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ تشعر ببطلان ما قالوا لأنه قول مرتبط بالفم دون القلب فلا يعتمد عليه لأن تحريك الفم من غير مطابقة القلب لا حقيقة له. كما أبطله بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ «الإشارة إلى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغي أن

---

(١)دروزه، التفسير الحديث، ج٨ص٢٤٠.

يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع »(١) مع ما فيها من قصر قول الحق على الله سبحانه وتعالى، لا الذين وضعوا لكم المزاعم وهو يهدي السبيل لا الذين أضلوا الناس بالأوهام.

ومن هدايته للسبيل ما جاء في الآيات من توجيهات شملت النبي ﷺ لتبنيه زيد بن حارثة، فقد كان يدعى زيد بن محمد لاختيار زيد للنبي ﷺ دون أبيه وقومه،فرسم النبي صلى عليه وسلم أروع صور العبودية لله تعالى لامتثاله لأمر ربه،ونبذ ما يخالفه، فكانت واقعة ملموسة الأثر في حياة الناس محققة التطبيق العملي في اتباع المنهج السليم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

ثم تتابع النسق لآيات السورة،وارتباط توجيهاتها،وأحداثها برسول الله ﷺ وأزواجه وبمن معه من المؤمنين في قوله : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ... ﴾ الآيات مما أبرز فضله وحقه وولايته بعد تلك التوجيهات المباشرة له في صدر السورة وما نهاه عنه في قضية التبني «علل سبحانه النهي فيه بالخصوص بقوله دالاً على أن الأمر أعظم من ذلك (التبني) أي الذي ينبئه الله بدقائق الأحوال ولا يريد أن يشغله بولد ولا مال﴿ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فضلاً عن آبائهم في نفوذ حكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم، لأنه لا يدعوهم إلا إلى العقل والحكمة، ولا يأمرهم إلا بما ينجيهم، وأنفسهم إنما تدعوهم إلى الهوى

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ صـ١٥٥-١٥٦.

والفتنة»[1] ثم شرع في ذكر الأحكام المرتبطة بأولي الأرحام مما له علاقة بما سبق من حق الأخوة وصلة الرحم ختمها بخاتمة تناسقت مع ما أشار إليه من عادات وقضايا تتعلق بالمجتمع المدني بالخصوص والمسلم بالعموم بقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ فقدم فعل (كان) لتقوية ثبوته في الكتاب مسطورا.

«ولما كان نقض العوائد وتغيير المألوفات مما يشق كثيراً على النفوس، ويفرق المجتمعين، ويقطع بين المتواصلين، ويباعد بين المتقاربين، قال مذكراً له ﷺ بما أخذ على من قبله من نسخ أديانهم بدينه، وتغيير مألوفاتهم بألفه، ومن نصيحة قومهم بإبلاغهم كل ما أرسلوا به،صارفاً القول إلى مظهر العظمة لأنه أدعى إلى قبول الأوامر »[2] فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ ثم خص صاحب القرآن وصاحب الدعوة العامة للعالمين ﴿وَمِنكَ﴾ أي في قولنا في هذه السورة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ واتباع ما يوحى إليه وما كلف به من تبليغه دين الله للناس كافة دون ملا ينة للكافرين والمنافقين، وكان لهذا القيام بالميثاق أثراً ملموساً في تأييد الله لرسوله وللمؤمنين معه في رد أحزاب الكفار والمنافقين بغيظهم لم ينالوا خيرا، «وتحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب

---

(١)البقاعي، نظم الدرر بتصرف، ج١٥ صـ ٢٨٩.

(٢)السابق، صـ٢٩٣.

حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق، كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم »[1] .

والذي جاء الحديث عنه مفصلاً في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

«الصلة بين ما سبق وهذه الآيات بعد أن أمر بالتقوى،وعدم طاعة الكافرين، وأمر باتباع الكتاب، وأمر بالتوكل على الله، وأمر بهدم قاعدة التبني،وذكر بميثاق الله مع الرسل، بين في هذه الآيات فضل الله على المؤمنين في ساعات المحنة، وفي ذلك نوع تذكير أن على المؤمنين أن يطيعوا ويطمئنوا، فالله معهم إن كانوا صادقين »[2] مع ما فيها من تناسق بما صدرت به السورة من تحذير لرسول الله ﷺ من الكافرين والمنافقين فكانت ذكر الغزوة وتحزبهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين دليل شهودي عن الصورة الحقيقة لشخصية أهل الكفر والنفاق.

فالقرآن لم يكن فقط أوامر ونواهي وتشريعات تتنزل جملة واحدة،إنما

---

(١)الرازي، التفسير الكبير،ج٩ص١٦٠.

(٢)سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج٨ص٤٤٠٠.

أخـذهم الله بالتجـارب والابـتلاءات، والفـتن والامتحانـات، تعلـيماً للمـؤمنين، وتذكيراً ليزيدهم يقيناً وتبصيرا، وتحذيرا لهم من مكائد وأراجيف أهل النفاق فيما يتعلق برسول الله ﷺ في قضية التبني وزواجه من مطلقة متبنيه.

وبهذا يتحد البدء والختام في هذا المقطع مـن خـلال نظـم معنـاه، وتناسـق ألفاظه، ومقاصده، ليبرز كوحدة واحدة متناسقة المبنى، والمعنى.

المبحث الثاني

بناء بيت النبوة وبيوت المؤمنين. ويشمل الآيات (٢٨- ٥٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ
وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ
لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ
لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ
مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾
وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا
﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ
وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ وَإِذۡ
تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا
ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا
يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا
كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا

(٣٨) ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا
كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا
(٤٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى
عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ
يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥)
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا
تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ
تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ
ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ
خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن
يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ۞ تُرْجِى
مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ
أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ
إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟
وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ
ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا
كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ

عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

بعد إرساء الأساس تكون إقامة البنيان، وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج مما نصر الله به رسوله ﷺ،وعباده المؤمنين يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل.

نعم لقد تم الإرشاد بما به يكون صلاح القلوب، وصدق توجهها إلى ربها الذي هو روح الدين ولبّه، وصدّ كيد المغرضين،والمعارضين لدعوة الحق، وأقيمت الحجة عليهم،فلم يبق إلا إنارة الطريق للسالكين، وإيضاح المحجة بين أيديهم،« وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: « **الصلاة وما ملكت أيمانكم** » ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة» (١).

فبدأ التوجيه الثاني في السورة للنبي ﷺ القدوة والأسوة للاهتمام باللبنة الأولى في بناء البيت المسلم ألا وهي الأسرة التي تعد المجال الأول للتدريب على حسن العشرة، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة، والتي متى استقامت فيها الأمور استقامت بالتدرج في المجتمع الأكبر ثم الأكبر.لذلك نبه إلى ما

---

(١)الرازي، التفسير الكبير،ج٩ص١٦٥.

ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية وخص بدأ بيوتات النبي ﷺ بتوجيهات من أولها إعطاء زوجاته حق الاختيار في البقاء مع النبي ﷺ إيثاراً لله ورسوله، وبين الحياة المطلقة من رباط الزوجية، وهو توجيه يحمل بين طياته صورة وضيئة للإسلام تبرز سماحته ويسره،مراعية طبيعة النفس البشرية، وما جبلت عليه من حبها لحطام الدنيا، وتعلقها به، فقد تعددت الروايات أن المناسبة الداعية إلى هذا الموقف ما فتح الله على النبي ﷺ والمسلمين من غنائم بني قريظة،وبني النضير بعد أن رد الله عنهم كيد الأحزاب مندحرين وخائبين.فظن أزواجه رضي الله عنهنّ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله يطالبنه بتوسعة الحال، والاستكثار من النفقة، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في شأنهن، فاخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة اختياراً لا إكراه فيه.

لهذا كان من تدبير الله لرسوله ﷺ،وعباده المؤمنين لصلاح دولتهم، ونفوسهم،وقيامها على ثوابت راسخة أن جعل التحذير من الفتنة معلماً من معالم المنهج القرآني، فكما حذر من فتنة طاعة الكافرين والمنافقين في بداية الدعوة الإسلامية في المدينة حذر هنا من فتنة المال، وخص أزواج النبي ﷺ بذلك وبأحكام يجدر بمثلهن أن يتمسكن بها،لما لهنّ من مكانة عظيمة بين نساء المسلمين، لأنهن أمهات المؤمنين، وفي بيت قدوة الأمة وإمامها الذي منه انبعث نور الهدى،والطهر،والعفاف، والترفع عن متاع الدنيا ودناءتها، فأجدر بهنّ أن يكنّ المثُل العليا في ذلك، ويكنّ قدوة يتأسى بهنّ نساء المؤمنين جميعاً في أي زمن وعلى أي حال، لترسيخ الدعائم التي تقوم عليها بيوتات المسلمين، ويالها من منقبة أوتيت لهنّ، بل هي منحة أكرمهنّ الله بها.

فتلقى المسلمون جميعاً هذا الدرس الحكيم، الذي أشرف عليهم من أعلى قمة في الحياة، ورأوا أنهم مطالبون بما أخذ به النبي ﷺ نفسه وأهله، فهو أُسوتهم ومثلهم الأعلى الذي يتمثلونه في قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ لقد امتثل ﷺ ما أمره الله به في أداء حق الله تبارك وتعالى، وندبه جل وعلا إلى أداء حق أهل بيته وحق عباده المؤمنين فكان سباقاً لذلك ﷺ في تخيير أزواجه ليتحد المسير في بداية الطريق إما إلى الله ورسوله، وإما إلى الحياة الدنيا وزينتها، فالقلب الواحد لا يسع توجهين لله ولغيره، ولا تصورين للحياة ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ وقد تجاوز ﷺ العقبات التي تقف في طريق الامتثال وإقامة بيت النبوة على مراد الله تعالى، بدون إكراه أو تغافل عن المشاعر الإنسانية،والعواطف،والرغبات التي لم تخمد في نفوس أزواجه ﷺ، وشظف العيش في بيته، ولكنهنّ استطعن أن يرتقين بها ويترفعن عن متاع الدنيا الفاني، ليزيل شبهة تعذر الاقتداء بهنّ للشعور بأنهنّ خلق مجرد من مشاعر البشر، وعواطفهم على كل حال.

ومن جميل تناسق التوجيهات :

- «بدأت سورة الأحزاب بأوامر منها الأمر بالتوكل، وجاء الآيات بعدها بتعميق موضوع التوكل، ثم بذكر توريث الله المؤمنين الأرض، ولذلك صلاته ببعضه، ومن ذكر إرث الأرض ينتقل السياق ليربي أزواج النبي ﷺ على الزهد في

الدنيا.كما جاء في المقطع الأول إلغاء قاعدة التبني، وسيأتي في هذا المقطع ما ينهي قاعدة التبني من أساسها.» (١)

-أردف ذكر شرفهن في قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ بعد التخيير ليظهر فضلهن ومكانتهن بياء النسب للنبي ﷺ.

-«لما قدم درء المفاسد الذي هو من باب التخلي، أتبعه جلب المصالح الذي هو من طراز التحلي فقال: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ ﴾ ولما أمرهنّ بلزوم البيوت في قوله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ للتخلية من الشوائب أرشدهن إلى التحلية بالرغائب فقال: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ﴾ »(٢) .

-ليمثل الاقتداء بزوجات النبي ﷺ، ولتناسق الحقوق حثهنّ على صفات يشتركن فيها بقية المسلمات جواباً لسؤالهنّ رسول الله ﷺ ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فأنزل ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ وعلى عادة القرآن إذا ما ذكر مأمورات يعقبها بالتذكير بحال أمثالها أو بحال أضدادها.

ثم ناسب بعد ذكر واقعة التخيير وذكر صفات المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الشاملة للذكور والإناث، والمقتضية للطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ ناسب أن يفصّل في مسألة التبني التي وردت الإشارة عنها في صدر السورة. فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ

---

١) سعيد حوى،الأساس في التفسير، ج٨ص ٤٤٢٤.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ صـ٣٤١.

أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... ﴾ «وكان سبب نزول هذه الآيات، أن اللهّ تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهنّ.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله، وفعلا وإذا أراد اللهّ أمرًا، جعل له سببًا »[١] فتحمل رسول الله ﷺ عبء التغيير كما تحمل أعباء الرسالة، ولاقى مواجهة من المجتمع الذي ألف هذه العادة، ولعظم الأمر صدرت بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ مع ما سبقها من تهيئة لامتثال الطاعة بنفس الأسلوب الذي افتتحت السورة به وهو ربط النفوس بالله، لتدرك حقيقة علاقتها بربها وبرسوله ﷺ، لتتقبل أمر الله في إبطال ما تعلقت به نفوسها واعتادته، فترضى وتسلم لخالقها وبارئها،ونجد في الآية تصحيحاً لنضرة التفاضل بين الأفراد المثيرة للطبقية من خلال أمر زينب بنت جحش رضي الله عنها بالرضا بالزواج من زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ورد الناس إلى ميزان الإسلام ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٢]

وبعد قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها أرشد

---

(١)السعدي، تيسر الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ج٦ صـ٢٢٣.

(٢) سورة الحجرات آية (١٣).

سبحانه إلى ما تهون به الصعاب، وما يثبته على مبادئه مما ينتظم فيه التناسق والتناسب في الآيات:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ نفي للحرج، ودفع لما يجده النبي عليه الصلاة والسلام في زواجه من مطلقة متبناه، وأنه فرض من الله أوجبه عليك، لا يُلتفت معه إلى إرجاف المرجفين، ولا إلى قول المتقولين.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ أي أن ما أقدمت عليه ليس بدعاً بل سبقك إليه عباد مكرمون من إخوانك رسل الله عليهم صلواته وسلامه.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ بدل من قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ تذكيراً بما أشار إليه في أخذ العهد على الرسل في تبليغ الرسالات كما بلغهم الله إياه، دون التفات إلى أحد، ودون نظر إلى ما يكون من الناس إزاء هذه الرسالات المبلغة إليهم من استجابة أو إعراض، فقد كانوا لا يخشون في الله لومة لائم،كما وصف الله حالهم في الآية، مقابلة لما وقع من خشية رسول الله ﷺ،لإرجاف المرجفين حيال زواجه من زينب رضي الله عنها، تأكيداً على ربط القلوب بالله،ومراقبته تبارك وتعالى في الأعمال، ثم ختم الآية بما ناسب ذلك فكفى بالله محاسباً عباده على جميع أعمالهم ومراقباً لها.

رابعاً: في قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ «استئناف للتصريح بإبطال أقوال المنافقين،والذين في قلوبهم

مرض،وما يلقيه اليهود في نفوسهم من الشك،وهو ناظر إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والغرض من هذا العموم قطع توهم أن يكون النبي ﷺ أبا أحد من الرجال في حين نزول الآية ».[١]

وبعد تحمل النبي ﷺ لهذا الحمل العملي الذي استجاب فيه لربه سبحانه وتعالى، واستطاع تجاوز عقبات أهل النفاق بما ثبته الله به، يمضي السياق « في الإقبال على مخاطبة المؤمنين بأن يُشغلوا ألسنتهم بذكر الله، وتسبيحه، أي أن يمسكوا عن مماراة المنافقين أو عن سبهم فيما يُرجفون به في قضية تزوج زينب رضي الله عنها فأمر المؤمنين أن يعتاضوا عن ذلك بذكر الله وتسبيحه خيراً لهم »[٢] فتناسق السياق في تذكيرهم بما يثبتهم الله به، ليقتدوا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه في امتثاله، وانصرافه عن إرجاف المنافقين، وليطيعوه من كل وجه حتى يكونوا مسلوبي الاختيار معه، فيكونوا بذلك مسلمين،لا يحملهم عليه إلا طاعة الله، وطاعة الله لا يحملهم عليها إلا دوام ذكره، وليكون لهم الذكر عاصماً وحامياً من غواشي الشكوك والريب التي يدسها لهم أعداء الدين في أي زمان ليصرفوهم عن منهج التسليم والانقياد لشرع الله في نفوسهم، وفي بيوتهم، وأسرهم.

ولما وعظ المؤمنين فيه ﷺ، وهذبهم له بما أقبل بأسماعهم، وقلوبهم إليه،

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٢ص٤٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه ص٤٧.

أقبل بالخطاب إليه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ وهو الخطاب الثالث للنبي ﷺ في السورة «فإن الله لما أبلغه بالنداء السابق ما هو متعلق بأزواجه، وماتخلل ذلك من التكليف، والتذكير ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه،وزيادة رفعة مقداره، وبين له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته،وأحوال الأمم السالفة،وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد، ومبشر،ونذير،وداع إلى الله، وسراج منير. فهذه الأوصاف ينطوي إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية فلذلك اقتصر عليها من بين أوصاف كثيرة »[1] نرجئ بيان تناسق ألفاظها ومعانيها إلى الفصل التالي،ولكنها «أوضحت لأهل الاستقامة الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبود هم،وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة »[2] فربطت بين أحكام السورة، وتوجيهاتها السالفة، واللاحقة،ليسلك أهل الإيمان الطريق على نور وبصيرة .

«ولما أمر سبحانه بإبلاغ أوامره من غير التفات إلى أحد غيره، وكان من المعلوم أنه لابد في ذلك من محاولات، ومنازعات، لا يقوم بها إلا من أعرض عن الخلائق،لما هو مشاهد له من عظمة الخالق، أمر سبحانه بالتوكل عليه، وأقام

---

(١) السابق، صـ٥٢.

(٢)السعدي،ج٦صـ٢٣٢.

الدليل الشهودي بقصة الأحزاب وقريظة على كفاية من أخلص له، فلما تم الدليل رجع إلى بيان ما افتتح السورة به من الأحكام بعد إعادة الأمر بالتوكل، فذكر أقرب الطلاق إلى معنى المظاهرة المذكورة أول السورة بعد الأمر بالتوكل التي محط قصدها عدم قربان المظاهر عنها بعد أن كان أبطل المظاهرة. (فقال ناهياً لمن هو في أدنى أسنان الإيمان بعد بشارة المؤمنين) قاطعاً لهم عمّا كانوا يشتدون به على المرأة المطلقة لقصد مظاهرتها أو لتمام التمكن من التحكم فيها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ﴾»[1].

النداء الرابع خوطب به النبي ﷺ لتنظيم حياته الزوجية الخاصة مع نسائه، وعلاقات نسائه كذلك ببقية الرجال، وبيان ما أحل له من الزوجات، والسراري تشريعاً له في السابق،وبعضه تشريعاً له في المستقبل، وبعضه يتساوى فيه النبي ﷺ مع الأمة، وبعضه خاص به. لأن المقصود من هذه السورة بيان مناقبه، وفضله عليه الصلاة والسلام، وما اخْتُصَّ به مما أحل الله له من الأزواج حتى لا يقع الناس في تردد، ولا يفتنهم المرجفون، وبهذا ظهر التناسق في الآيات لورودها عقب قصة زواج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها الذي خاض المنافقون فيه، فأراد جل وعلا إظهار فضل رسوله ﷺ، ومكانته، وإكرام ربه له دون غيره من الخلق، مع ما فيها من رد مفحم للكافرين والمنافقين كبتاً لهم، وليزدادوا غمّاً على غمهم.

وتأمل كذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ... ﴾ «لما لم

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ صـ٣٧٥

يوجب الله تعالى على نبيه القسم وأمره بتخييرهنّ فاختترن الله ورسوله ﷺ ذكر لهنّ ما جازاهنّ به من تحريم غيرهنّ على النبي ﷺ، ومتعه من طلاقهنّ بقوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ »(١).

لما بين الله في الآيات السابقة حياة النبي ﷺ الخاصة مع زوجاته، وعلاقة نسائه به عليه الصلاة والسلام، وما ينبغي أن يكون عليه بيت النبوة من آداب قفاه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ بآداب يجب على الأمة أن تتحلى بها مع زوجات النبي ﷺ صدرها بالإشارة إلى قصة زواج النبي ﷺ من زينب رضي الله عنها، والتي هي سبب نزولها ربطاً بما سبق، مع فرض الحجاب عليهنّ في البيوت، ومنع غيره ﷺ من الدخول عليهنّ، ويتأتى ذلك بعد قصره ﷺ عليهنّ، وأمره لهنّ بلزوم البيوت ﴿ وَقَرۡنَ ﴾ وترك ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى. معللاً الأمر بالحجاب في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ بطهارة القلوب من خواطر النفس ونزعاتها،فتناسقت الآيات في موضوعها وفي صورتها البيانية لما كان عليه بيت النبوة من النقاء والطهر والعفاف، وعلى هذا الجمال من العفة بُني بيت النبوة مع طهارة أمهات المؤمنين ونزاهتهنّ، وطاعتهنّ لله ولرسوله ﷺ حرصاً منهنّ على رضا الله ورسوله ﷺ، وتطبيق منهج الله في حياتهم جميعاً،فلم يمنع ذلك أن تتوالى الأوامر الشرعية لرسول الله ﷺ في قيام بيت النبوة على أُسس ثابتة، شاملة

---

(١)الرازي، التفسير الكبير، ج٩ص١٧٧.

كاملة على أدق الأمور، مما رسم لذوي الحجا في هذه السورة،وغيرها من سور الكتاب العزيز هداية القرآن الكريم في بناء البيت المسلم، والأسرة المسلمة هداية أبانت المنهج القرآني لتنشئتها منذ تكوينها لبنة لبنة، أحاطت إحاطةً شملت الأحكام،والحقوق المتعلقة بعموم أفرادها،ضمنت لكل فرد حقه على الآخر، مبينة ما يُصلح الحياتين الدنيوية،والأخروية،مع صلاحها لكل زمن ومكان، محذرة من الاستجابة لخطوات الشيطان وحزبه والانسياق وراء دعوات المنافقين في أي زمان وفي أي مكان، وأبرز البيت النبوي بأجمل حلله، وأبهى زينته لتمسكه بالهدي القرآني ليكون هذا البيت ومن فيه أسوة لبيوتات المسلمين ومن فيها إلى قيام الساعة، فيجد رب الأسرة في رسول الله ﷺ الشخصية المتكاملة في تربيته لأسرته،رحمةً، ورأفةً،وصبراً،وحكمةً،وتعليماً، وتربيةً، وعدلاً، وحسن قيادةٍ،وأداءً للحقوق كاملةً،وتجد ربة الأسرة في أمهات المؤمنين أروع الصور في الطاعة، والتسليم والانقياد لأوامر الله وأحكامه،وأداء الحقوق، وقياماً بالأمانة على أكمل وجه، حتى رسمن أروع الصور للمرأة المسلمة في جميع المجالات ،مما يدعوها للانكباب أكثر على تلاوة كتاب ربها، وتدبره، ودراسة سير زوجات النبي ﷺ والصحابيات الفضليات رضي الله عنهنّ ، ليتضح لها المنهج القرآني،فتدرك به مسؤوليتها المناطة بها حيال نفسها، وزوجها، وأولادها، وأمّتها،في زمن التبس فيه الحق بالباطل عند الناس إلا من رحم ربي، وكثر فيه أدعياء الحرية والتحرر،ورد حقوقها المسلوبة، ممتطين في ذلك صهوة الإصلاح، والتطوير، وهم في الحقيقة يفسدون في الأرض،ولا يصلحون، قد عُرف مقصدهم، وكُشف عَوَرُهم،واستبان سبيلهم،واستطار شررهم، مما نطقت

به ألسنتهم،وخطته أقلامهم، وخلدته أفعالهم.

وترى في هذا الموضوع العظيم من مواضيع السورة الذي شمل أغلب آياتها،ما يدعو إلى التأمل في ما تكرر في أعطاف الآيات كثيراً مثل قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ نجد أن الإيحاء بمراقبة الله تعالى يطرد في هذه الآيات، وأعقاب تلك القضايا العظيمة، ليبعث في النفس الرقابة الدائمة لله تعالى، و يدفعها للانقياد بطاعة ربها، وطاعة رسوله ﷺ،انقياداً قلبياً لله تبارك وتعالى، دون تلكؤ أو إعراض.

وهذا الدرس من أعظم دروس الكتاب العزيز يتكرر كثيراً، ليحدث في الإنسان تغيير سلوكه، لأن سلوك المسلم إذا لم يكن نابعا من هذا المنبع الحي بمراقبة الله، وتوجيه المقصد إليه، كانت أعماله لا وزن لها عند الله.

المبحث الثالث

مكانة النبي ﷺ وعظم إيذائه وإيذاء المؤمنين

ويشمل الآيات من (٥٦- ٧٣)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ
تَسۡلِيمًا (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا
(٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا
مُّبِينٗا (٥٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ
أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا
(٦٠) مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا (٦٢) يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ
ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا (٦٤) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ
وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (٦٥) يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ (٦٦)
وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ
وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا (٦٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ
عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا (٦٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (٧٠) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ
وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا
(٧٢) لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا (٧٣) ﴾ .

« لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلواته، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ وحالة يكون في ملأ. والملأ إما الملأ الأعلى، وإما الملأ الأدنى، أما في الملأ الأعلى فهو محترم، فإن الله وملائكته يصلون عليه. وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ »[١].

«يستمر السياق في تحذير الذين يؤذون النبي ﷺ في نفسه،أو في أهله،وفي تفظيع الفعلة التي يقدمون عليها وذلك عن طريقين:

الأول: تمجيد رسول الله ﷺ وبيان مكانته عند ربه وفي الملأ الأعلى.

الثاني: تقرير أن إيذاءه إيذاء لله سبحانه، وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته في الدنيا والآخرة »[٢].

ويستنتج ذلك من جمال الألفاظ، وتناسقها للمأمور به، فقد افتتحت الآية باسم الجلالة لإدخال المهابة والتقدير والتعظيم له، وما هي إلا توطئة وتمهيد للمقصود في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ «لأن الله حذر المؤمنين من كل ما يؤذي النبي ﷺ أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو

(١)الرازي، التفسير الكبير،ج٩ص١٨١

(٢)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥صـ٢٨٧٩.

إكرامهم لرسول الله ﷺ فيما بينهم وبين ربهم فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، وذكر صلاة الملائكة مع صلاة الله ليكون مثالاً لصلاة أشرف المخلوقات على الرسول ﷺ، لتقريب درجة صلاة المؤمنين التي يؤمرون بها عقب ذلك، والتأكيد للاهتمام،ومجيئها بالمضارع الدال على التجديد والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه والتسليم عقب ذلك مشيراً إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته.»[1] وناسب ختم كل ذلك ببيان عاقبة المؤذين لله تبارك وتعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام بأمرين اللعن والتعذيب،ونلحظ هنا أنهم في الدنيا يعاقبون عقوبة سلبية، وهي الطرد من الرحمة فحسب، وفي الآخرة يُعاقبون عقوبتين، عقوبة سلبية، وهي الطرد من الرحمة، وهذه عقوبة قاسية حين ينظرون إلى الذين فتحت لهم أبواب الرحمة وهنئوا برضوانه سبحانه، ثم هناك عقوبة أُخرى وهي العذاب المذل الذي أكده بمؤكد في آخر الآية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ وبلفظ يشعر بشدة الأمر ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

«لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه، فإن من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه، لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول »[2].

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٢ص٩٧.

(٢)الرازي،التفسير الكبير،ج٩ص١٨٣.

كما في ذكر أذية المؤمنين بعد ذكر أذية الله والنبيﷺ، أشارة إلى التناسق المطرد في ألفاظ السورة، ومعانيها من بداية آياتها فذكر ما يتعلق بالنبي ﷺ من توجيهات وأحكام، ثم بأزواجه، ثم بالمؤمنين،والمؤمنات،للإشارة إلى التلازم في توحيد السير على المنهج السليم البين، ليقع الثبات لسالكيه ومتبعيه،لتميزهم عن غيرهم بأطر أنفسهم على اتباع الحق وإن خالف أهواءهم ورغباتهم .

ثم أتبع النهي عن أذى المؤمنات بأن أمر باتقاء أسباب الأذى، ومن سد الذرائع ألا يعرض المؤمن نفسه للشّبه، وأن لا يدع سبيلاً لقالة السوء فيه فقال جل وعلا مخاطباً نبيه لتعظيم الأمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل ... ﴾ ترى القول يعم نساء المؤمنين، وينطلق التعميم من بيته،بادئاً بأزواجه،وبناته لأنهنّ أكمل النساء،ثم نساء المؤمنين،وفيه لفتة لصاحب البلاغ بأن يكون أول ما يهتم به في دعوته من هم حوله،فالنبيﷺ أمر بذلك ليكون أسوة عملية في هذا الأمر لكل داعية. كما ترى في هذا السياق القصير ﴿ لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ما يشجع المسلمة على الامتثال لهذا الأمر، لأنها ستكون في رفقة زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، ومما يحسن التنبيه إليه في النسق أن الإيذاء لما كان قولياً اختص بالذكر،وكذا خص بالذكر سبب الإيذاء القولي وهو النساء، فذكرهنّ بالسوء يؤذي الرجال،والنساء بخلاف الرجال .

قوله: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ « انتقال من زجر قوم عرفوا بأذى الرسول ﷺ والمؤمنين والمؤمنات، ومن توعدهم بغضب الله عليهم في الدنيا والآخرة إلى تهديدهم بعقاب في الدنيا يشرعه الله لهم إن هم لم يقلعوا عن ذلك للعلم بأن لا ينفع في أولئك وعيد

الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث،وأولئك هم المنافقون الذين أبتدئ التعريض بهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَظِيمًا﴾ ، ثم من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ وصرح هنا بما كنى عنه في الآيات السالفة إذ عبر عنه بالمنافقين فعلم أن الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لف لفهم».(1)وكل هذا مما يبين لنا جواهر نسق آيات السورة وارتباط آياتها، فانظر إلى ما يحمله اللفظ في قوله: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ....﴾ من إنذار مزلزل لهؤلاء المنافقين ومن انطوى إليهم، بأن يسلط الله عليهم نبيه ﷺ فيُلقي بهم خارج المدينة بعيداً عن هذا المكان الطهور، كما سلطه على اليهود من قبل فيطهر جو المدينة منهم .

وهي سنة الله التي جرت فيمن قبلهم من المفسدين في الأرض، فناسب مخاطبتهم بذلك للتقابل، لأن العهد قريب فيما حدث لليهود .

« ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة: وهم المؤذون الله، والمؤذون الرسول، والمؤذون المؤمنين، ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة أحدها: المنافق الذي يؤذي الله سراً والثاني: الذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه والثالث: المرجف الذي يؤذي النبي ﷺ بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ، وهؤلاء وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٢ص١٠٨.

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار»(١).

«ولما بين ما أعد لأعداء دينه في الدنيا، وبين أن طريقته جادة لا تنخرم، لما لها من قوانين الحكمة وأفانين الإتقان والعظمة، وكان من أعظم الطرق الحكمية، والمغيبات العلمية الساعة، وكان قد قدم ما يحرك إلى السؤال عنها في قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وكان قد مضى آخر السجدة أنهم سألوا استهزاء وتكذيباً عن تعيين وقتها، وهددهم سبحانه على هذا السؤال، قال تعالى مهددا أيضاً على ذلك مبيناً ما لأعداء الدين المستهزئين في الآخرة من العذاب﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾»(٢) فهذا حظ الكافرين من وعيد الساعة، وهذه لعنة الآخرة قفيت بها لعنة الدنيا في قوله ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ ولذلك عطف عليها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ فكانت لعنة الدنيا مقترنة بالأخذ والتقتيل ولعنة الآخرة مقترنة بالسعير.

ثم يعود السياق ليحذر الذين آمنوا مما كان سبباً في التهديد السابق كله من أذى الرسول ﷺ، وألا يكونوا كبني إسرائيل في أذيتهم لموسى عليه السلام، فناسب ذكر ما وقع لنبي الله موسى عليه السلام من أذى دون غيره من الأنبياء على أنها سنة وقعت لهم جميعاً، لأن أذيته عليه السلام كانت من اليهود الذين لحق

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج٩ صـ١٨٤.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ صـ٤١٥

أذاهم بمحمد ﷺ في المدينة، وفي غزوة الأحزاب بالأخص، فاليهود شر خالص، وبلاء محض كالداء الخبيث إن لم يقتل صاحبه أفسد عليه حياته، ونغص معيشته، والتاريخ على مر العصور يشهد بذلك،وخاصة في زماننا هذا، ولا سلامة للمسلمين منهم إلا إذا تخلصوا من كل أثر مادي أو نفسي كان لهم يد فيه، كفى الله المسلمين شرهم، ورد كيدهم في نحورهم .

«لما نهاهم عن الأذى،أمر بالنفع ليصيروا وجهاء عنده سبحانه مكرراً للنداء استعطافاً، وإظهاراً للاهتمام فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي ادعوا ذلك، ولما كان قد خص النبي عليه الصلاة والسلام في أول السورة بالأمر بالتقوى، عم في آخرها بالأمر بها مردفاً لنهيهم بأمر يتضمن الوعيد ليقوى الصارف عن الأذى،والداعي إلى تركه،والباعث على الطاعة والتعظيم فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي صدقوا دعواكم بمخافة من له جميع العظمة يسدد لكم الأقوال والأفعال، ويوفقكم لطاعة الله الذي له العظمة والكبرياء، وطاعة رسوله ﷺ الذي عظمته من عظمة الله، ومن أمتثل ذلك سيكون مؤدياً للأمانة إلى أهلها »(١).

خاطب الله جل وعلا عباده بنداء الإيمان للاهتمام به،والإصغاء إليه، مع تناسق النداء بالمطلب، فنداؤهم بالذين آمنوا يقتضي ما سيؤمرون به،وأن الإيمان والإيذاء لا يجتمعان فالأخير لا يصدر إلا من منافق، إضافة للعلاقة بين التقوى والقول السديد علاقة الجزء بالكل، فالقول السديد من شعب التقوى، مع تناسق

---

(١)البقاعي، نظم الدرر،بتصرف ج١٥ صـ٤٢١-٤٢٢.

التقوى لجميع الأوامر،والنواهي في السورة.

لذا كان البدء بها للقدوة ﷺ،والختام لأتباعه، والقول السديد ذُكر بعد آيات تحدثت عن أصناف من الأذى للرسول ﷺ،وللمؤمنين منبعها القول، ثم وعدهم على المأمورين بثمرتين صلاح العمل،ومغفرة الذنوب، «فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأن أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد الناس إلى الصلاح أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد .

وغفران الذنوب جزاء على التقوى،لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر،وقد غفر الله للناس الصغائر باجتناب الكبائر، وغفر لهم الكبائر بالتوبة،والتحول عن المعاصي بعد الهم بها ضرب من مغفرتها »(١).

تناسق وتناسب بديع لترغيب النفوس في الخير والقول السديد خلافاً للمؤذين والمرجفين الموعودين باللعنة والعذاب المهين. وذكر لفظ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ مقابلة بأن قلة من أصحاب الأقوال من يكون قوله سديداً، فلا بد من الوقوع في الذنب فذكّر بالمغفرة ليكون على اتصال بربه تبارك وتعالى، وختم السياق بقوله ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ مؤكداً على الترتيب الذهني والعملي لتحقق النتيجة، فالتقوى لا تتحقق إلا لمن أطاع الله ورسوله ﷺ واقتدى به، ومن اتقى الله كان ممن نال الفوز في الدنيا والآخرة.لأن أصل القضية هو الإذعان لله والتسليم التام للتوجيهات، والتي بلغها عنه رسوله ﷺ بلاغاً وافياً.

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٢ص١٢٣

كما أن في الآية توكيداً من وجه خفي لما قاله أهل الكفر في صراخهم في النار ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ صرحوا بأن السبب في وقوعهم في العذاب هو عدم طاعة الله ورسوله، وهنا أتى بألفاظ التوكيد المبينة بأن الطاعة من أعظم أسباب الإذعان والتعظيم لله ولرسوله ﷺ ككلمة «قد» ثم في ﴿ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ ثم بالوصف بالعظمة المشعرة بخطر الفوز، وترى أن الفوز المبشر به أتى مطلقاً غير مقيد بمكان،ولا زمان، ولا بضرب من ضروب الفوز، وهذا المناسب لطاعة الله، فوز في الدنيا، وفوز في الآخرة، وفي كل الأوقات والأماكن[١].

وبعد أن بين تبارك وتعالى عظم شأن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ لشمولها للدين كله وثمرتهما، أردف ذلك بختام للسورة يحيط بكل ما جاء فيها، من حيث جميع الأوامر والنواهي، الواردة في شتّى سياقاتها وفروعها، إن هي إلا مظاهر جزئية للأمانة التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وقد ورد في الآية ما يكرس عظم الأمانة كتخصيص عرضها على السماوات والأرض من دون الموجودات الأخرى، وذكر أفعال (عرضنا، وأبين، ويحملنها، وأشفقن منها، وحملها) جميعها فيها أحساس بعظمها وثقلها.

ثم ناسب كل ذلك أن ختمت بقوله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ليبيِّن طبيعة الإنسان التي جُبل عليها إلا من عصم الله أنه ﴿ ظَلُومًا ﴾ يضع الشيء في غير

(١)أبو موسى، دراسة تحليله لسورة الأحزاب صـ٤٠٧

موضعه، و﴿ جَهُولًا ﴾ أي فجهله يغلب على حلمه فيوقعه في الظلم،فترى منه ما يبرهن ذلك في تقصيره في الوفاء بحق ما تحمله،تقصيراً بعضه عن عمد، وبعضه عن تفريط في الأخذ بالأسباب،كما يشعر بعظمتها،والمقصود في حملها تقديم الجزاء والحساب لمن كان منه التقصير في أداء الأمانة على التوبة من المؤمنين والمؤمنات في قوله ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ والذين خصهم الله بالعذاب وصرح بذكرهم المنافقون والمشركون، لأنهم ضيعوا جميع ما تحمله الأمانة من معاني ومقاصد، ولم يقتصروا على ذلك بل سعوا في الصد عن القيام بها،ثم قابل ذكر عدم حمل الأمانة بالكلية بمن فرط فيها بدون قصد، فاتحاً له باب التوبة، ومبشراً له بالمغفرة منه سبحانه وتعالى، لمن صدق مع الله، وأخلص عمله لله وحده، واجتهد في امتثاله لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وترى خيطاً لطيفاً يربط آيات السور ومواضيعها ومبدئها وختامها، لتخرج في قالب واحد ووحدة واحده، ونلحظ وضوح الوحدة التناسقية في كليات هذا المبحث الذي برز لنا فيه تعظيم الله لرسوله ﷺ، ورفعة قدره عند ربه، فالله جل وعلا يثني عليه بين الملائكة في الملأ الأعلى لمحبته تعالى إياه، ويثني عليه الملائكة المقربون ويدعون له.كما برز في الآيات ذكر الأذية للرسول ﷺ والمؤمنين بمراحلها، ووسائلها وعقاب الفاعلين لها،لملازمة المؤذين له في جميع جوانب حياة النبي ﷺ، ومراحل دعوته المكية والمدنية مع اختلاف الوسائل والفئات، واتحاد المقصد والنتيجة، فجاءت التهديدات بمراحلها لاجتثاث أذيتهم القولية والعملية من أصلها وظهور الصورة الناصعة للقدوة

الأعظم ﷺ، لتمثل في حياة أتباعه واقعاً ملموساً، ولترسخ الطمأنينة في قلوبهم بأن من توكل على الله كفاه فهو الحسيب والناصر.

كما في الاستفتاح الذي كان كأنه توطئة لرسول الله ﷺ، ليتحمل القول الثقيل من أمر ربه، والعمل الثقيل بأمره بدأً بالتقوى، وتحمله تبعاتها، ونهاه عن طاعة الكافرين، والمنافقين،واتباع ما يوحى إليه، كل ذلك استجاشة لرسول الله ﷺ، وحثاً له وللمؤمنين، للقيام بتبعات هذه الأمانة، موضحاً له طريقة منهج التغيير في النفوس والواقع، لتصدق مع ربها وتتوجه إليه في مقاصدها، راسماً له صورةً واضحةً وبينة،للذين يسعون في وأدها، ذاكراً لهم أمثلةً واقعية، ومبيناً مآلهم وعاقبتهم في الدنيا والآخرة، خاتماً للسورة بصفتي الرحمة،والمغفرة، كما ختم في أولها بهما آية الخطأ والتعمد، والله الموفق والهادي إلى طريق الصواب.

الفصل الثالث

تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي

سنقف في هذا الفصل مع طريق آخر من طرق استجلاء الغرض الرئيسي للسورة، ووسيلة من وسائل إظهار إعجاز كلام الله تعالى، بعد أن وقفنا على أن السورة شملت ثلاثة مقاطع وهي:

الأول: توجيهات خاصة بالنبي ﷺ فيما يتصل بنفسه، وبالمؤمنين.

والثاني: بناء بيت النبوة وبيوت المؤمنين.

والثالث: مكانة النبي ﷺ، وعظم إيذائه وإيذاء المؤمنين، والتي تبيَّن لنا التحام موضوعاتها، واتساق ألفاظها، وكأنها من جنس واحد، وفي قالب واحد، مما سيكون معيناً على الوقوف مع كل آية وبيان تماسك بنائها، وتناسق معانيها المتشعبة، التي تتضمنها ضمن غرض واحد للسورة. سائلاً ربي التوفيق والتسديد، مستعيذاً به من كل خطأ وزلل.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾
وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ
أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ
يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ
ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا
تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ

أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

«مما يلاحظ في بداية السورة أن الندائين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يتناوبان في السورة تناوباً مطرداً،إلا في آخر السورة إذ تتكرر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مرتين، لاحظ تناوب الندائين:

١-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

١-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

٢-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

٢-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

٣-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

٣-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

٤-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ

خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

٤- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

٥- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾.

٥- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾

٦- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ »(١)

(١)سعيد حوى، الأساس في التفسير،ج٨ص٤٣٨١-٤٣٨٢.

النداء الذي بدأت به السورة الكريمة يتضمن فنوناً من التوكيد، منها استعمال حرف النداء الذي للبعيد، للإشارة إلى أنه ﷺ يُنادى لأمور مهمة وخطيرة، فليكن حاضر البديهة كما هو حاله ﷺ في تلقيه أوامر ربه ونواهيه وتشريعاته، وتوجيهاته.

كما في ندائه ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ «هو سبيل التشريف، والتكرمة، والتنويه بمحله، وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه»(١) «ناداه بوصفه دون اسمه تعظيماً له فإن مواجهة العظماء بأسمائهم في النداء لا تليق بخلاف الأخبار في أن محمداً رسول الله»(٢) وإيثار كلمة النبي على كلمة الرسول في فاتحة السورة،لاشتمال السورة على أنباء مهمة،وقد تكرر اللفظ في السورة اثنتي عشرة مرة، ثم باشره بالأمر الأول وهو تقوى الله تعالى مؤكداً له بثبوته على تقوى الله، وأن ينظر إلى نفسه أولاً، فهو أتقى الناس لربه سبحانه وتعالى، وأشدهم له خشية، ولكن المراد الثبوت والدوام عليها أي الزيادة منها لئلا يلتفت إلى شيء سواه.

«فتقوى الله والشعور برقابته واستشعار جلاله هي القاعدة الأولى،وهي الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ، وهي التي يناط بها كل

---

(١)أبو حيان، البحر المحيط، ج٧ ص٢٧٦.

(٢)الشهاب،أحمد بن محمد، حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي،دار صادر،بيروت،ج٧ص ١٥٦.

تكليف في الإسلام وكل توجيه»[١] فالأمر للنبي ﷺ توطئة لما أتبعه من نهي عن الالتفات نحو العدو اللدود فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وإن كان في الأصل داخل في الأمر بالتقوى لأنها تمثُل في اتباع الأوامر واجتناب النواهي،«وقد عطف الخاص على العام، وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهي عن طاعتهم ويؤكدها، وكأنه قد نهى سبحانه عن طاعتهم مرتين، مرة عن طريق العموم ومرة عن طريق التفصيل، وذلك لخطورة الإصغاء إليهم، والتماس النصح أو المشورة منهم، وهذا التحذير في اعتقادنا آية من آيات هذا القرآن، ودليل صدق على صدقه، فإن تاريخ الإسلام كله يشهد بأنهم أعداء حاقدون، يتربصون به في كل حين، وإن لبسوا أزهى ثياب الصداقة، وانظر حولك تجد صدق هذه الآية، وقد وضعوا أيديهم في أيدي الملحدين والماركسيين وضلال النصارى، وثبّتوا سلطان الملاحدة والفساق واللصوص، وسلَّطوا على هذه الأمة شرارها واستنزفوا بهم خيراتها، ودمَّروا الإنسان فيها، وجعلوا أمامه سبيلاً واحداً هو نفاق الطغاة واللصوص، ومن أبى ذلك فهو خائن أو مارق »[٢] .

لذا قابل بين الأمر والنهي ليبرز التناسق في الآية لفظاً ومعنى وزماناً وتنتظم وحدتها، لأنه مما يوحي أن تكاتف الكافرين والمنافقين كان في تلك

---

(١)سيد، في ظلال القرآن،ج٥ص٢٨٢٢.

(٢)أبو موسى، محمد محمد أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب،مكتبة وهبة، القاهرة، ص٤٩-٥٠.

الفترة على أشُده وعنفوانه، وليحصل حصر تقواه على التعلق بالله دون غيره من كل أحد في أي زمان أو مكان .

وجاء الختام موافقاً لما سبق ومعللاً للأمر والنهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وتحث عليه،لأنه صادر من عليم يحيط علمه بكل ما تكنه الصدور، وتستسره الضمائر والقلوب، فلا يأمر وينهى إلا بما فيه مصلحة فالمصلحة في قول الحكيم العليم .

ثم أتبعها بأمر آخر في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو معطوف على ما قبله من قبيل عطف العام على الخاص، بلفظ (يوحي) الذي يتضمن الإلقاء الخفيف (إليك) الذي يدل على الإحسان في التربية ليقوى على امتثال ما أمره به في سابقتها فقال: «من ربك» أي الذي خلقك وأحسن خلقتك وأصلح جميع أحوالك،فاتبع أي أمر يأمرك به واجتنب أي نهي ينهاك عنه لله سبحانه،ليس لأحد من الخلق، ليكون قصدك لله وحده دون سواه .

فالوحي يجمع الدين كله، فالأمر باتباعه أمر يجمع اتباع الدين كله، وهو توطئة لما ورد في السورة من أحكام وتوجيهات وما يتصل بها من عادات، ليوحد مصدر التلقي، مما يكون له أثر في تقبل ما يخالف المألوف بقبول وقناعة، ولذلك ذيلت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جاء بالاسم الأعظم توكيداً وزيادة في التقوية على الامتثال. «إنَّ الله خبيرٌ بما يعملُه كلا الفريقينِ فيرشدك إلى ما فيهِ صلاحُ حالِك وانتظامُ أمرِك ويُطلعك على ما يعملونَه من المكايدِ والمفاسدِ

ويأمُركَ بما ينبغِي لك أنْ تعملَه في دفعِها وردِّها فلا بُدَّ من اتباعِ الوحيِ والعملِ بمقتضاه حتماً»[١] .

ومن التناسق ما أشار إليه ابن عاشور فقال: « وفي إفراد الخطاب للنبي ﷺ بقوله: ﴿ وَٱتَّبِعۡ ﴾ وجمعه بما يشمله وأمته في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ إيماء إلى أن فيما سينزل من الوحي ما يشتمل على تكليف يشمل تغيير حالة كان النبي ﷺ مشاركا لبعض الأمة في التلبس بها وهو حكم التبني إذ كان النبي متبنيا زيد بن حارثة من قبل بعثته»[٢].

ولما أمره ﷺ بالتقوى واتباع ما يوحى إليه ، ونُهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، أمره بما يقع به التثبيت، والإيناس من قطيعة الكافرين والمنافقين، فقال﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ فلا يهمك إن كانوا معك أو ضدك، مع ما فيه من تمهيد لما يلقى إليه من تكليف يقع له بسببه أذى من المنافقين، فكفى بالله مثبتاً لك ودافعاً عنك كل أذى وفتنه.فلقي بأمرك كله إلى الله يصرّفه بعلمه وحكمته فكفى به وكيلا.

---

(١)أبو السعود، محمد العمادي الحنفي، أرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مكتبة الرياض الحديثة، ج٤ص٢٩٩.

(٢)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٥٢٥.

هذه الأوامر التي صدّرت بها السورة بما يسميه بعض أهل العلم ببراعة الاستهلال، وجه فيها النداء للنبي ﷺ القدوة والأسوة تأتي في فترة بداية المرحلة المدنية، التي كان النبي ﷺ مشغولاً فيها بتأسيس دولة الإسلام، يأتي التوجيه من الرب العليم إلى ما هو أحق بالبناء والتأسيس، وهي النفس البشرية بدأ بذاته ﷺ مع كمال شخصيته للاستسلام التام لله عز وجل في جميع شؤونه، والاستعداد لطاعة أمره ونهيه، والالتفات إلى المنهج الذي يقرره دون الالتفات إلى توجيه آخر، وإدراك واجبات الرسالة، ليقع البناء الحسي بعد البناء المعنوي،ليكون بناءً عالياً على أسس ثابتة « وهذه العناصر الثلاثة: تقوى الله ، وإتباع وحيه ، والتوكل عليه مع مخالفة الكافرين والمنافقين ، هي العناصر التي تزود الداعية بالرصيد؛ وتقيم الدعوة على منهجها الواضح الخالص. من الله، وإلى الله، وعلى الله. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ »(١)

والتوجيه في الآيات لرسول الله ﷺلأنه القدوة والأسوة و« هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى »(٢) فهذه الآيات هي الأصل الذي تقوم عليه جميع التوجيهات والأحكام التي وردت في السورة كما سيظهر لنا.

---

(١)سيد، في ظلال القرآن،ج٥ص٢٨٢٣.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ص١١١.

قوله ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ وجه نظمها بما قبلها « إن الله لما أمر النبي ﷺ بالاتقاء بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقي ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف، فكأن الله تعالى قال: يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فإن المرء ليس له قلبان حتى يتقي بأحدهما الله، وبالآخر غيره فإن اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعي أنه يتق الله حق تقاته»(١) إذ أن ذلك يفسد من شأنه يفسد نظام القلب والجسد، إذ يقوم فيه قوتان تعمل فيه كل قوة عمل الأخرى، ومن هنا تعمل كل منهما على إجلاء الأخرى من مكانها، فيقع الإنسان في صراع بين القوتين، وذكر هذا من البديهيات المسلّم بها الذي لا يدفعه عاقل، ولا ينكره منكر، وهو توطئة للمقصود المعنوي،«ليقاس عليه ما كان منهم من جعل الزوجة أمّاً،والمتبني ولداً، ليتبين ما في الأمرين من التناقض المخالف لما استقر في الفطر،والعقول السليمة، وفي هذا التمثيل نلمح ألفاظاً أكسبته قوة: منها تنكير الرجل ليشمل عموم الرجال، ومنها «من» الزائدة في المفعول، والتي تفيد التوكيد،وقوة المعنى،ومنها «في جوفه » لتتضح الصورة

---

(١)الرازي،التفسير الكبير، ج٩ص١٥٥

المتناقضة في النفس، وتمثُل أمام العين والخيال ظاهرة ومكشوفة، مما يزيد السامع تصوراً،ليكون أسرع للإنكار، وحاصل ذلك أنها تأكيد، وتقرير لبطلان أن يكون لحي من الأحياء قلبان في جوفه، ليتأكد تبعاً لذلك بطلان أن تكون الزوجة أمّاً، والمتبنى ولدا»(١)، وذكر الظهار عطف إبطال ثان لبعض مزاعمهم في الجاهلية؛ بأن الرجل إذا أراد فراق زوجته قال لها أنت عليه كظهر أمي،فكانوا يعدونها طلاقاً، وفي الإسلام عُد ظهاراً لأن الزوجة تحرم على الزوج كحرمة الأم إلا بكفارة، وذكره هنا ليس تشريعاً لإبطال تحريمه؛ لأنه سبق التفصيل فيه في سورة المجادلة، وما يترتب عليه من كفارة، وإنما تمهيد لإبطال التبني الوارد(٢) في قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وهو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، والذي قد تبناه وأصبح يدعى زيد بن محمد، وقد سبق بيان سبب نزولها في ص (١٠٩).

فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق،وما يترتب عليه من آثار البنوة الحقيقة من الإرث،وتحريم القرابة، وتحريم الصهر.

«ونلحظ في هذا النسق المتشابه بين الجمل الثلاثة ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ قوة في التماثل، والتشابه، فالمسند إليه مكرر في ثلاثتها، والمسند

---

(١)أبو موسى،دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص٦٢-٦٣.

(٢)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢ صـ٢٥٦.

كذلك، واختلف المتعلق بالمسند فقط، فهو في الأولى قلبين في جوف رجل، وفي الثانية: أزواج صرن أُمهات، وفي الثالثة: دعيٌ صار ابناً، هذا التشابه في بناء الجمل يؤكد تشابه معانيها، وفي التناقض والبطلان، ولا يخفى عليك بعد ذلك القول في سر الوصل بين هذه الجمل الثلاث، فإن اتحاداً من حيث تكرار المسند والمسند إليه، وتغايراً من حيث اختلاف المتعلق، وهذا هو الذي يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين، أي كمال الاتصال وكمال الانقطاع، أما فصل الجملة الأولى عن الواقع قبلها، فذلك لأنها بيان للوحي الذي أُمر عليه السلام باتباعه، فهي موصولة بما قبلها أوثق اتصال »[1]

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ استئناف اعتراضي بين التمهيد والمقصود من التشريع يؤكد بطلان هذه العادات[2]، وهذه الأنماط من السلوك، وأشار بقوله: ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ إلى أن الكلمة إذا لم تكن عن وعي وإدراك، ولم تقم على منطق وحجة كانت لغواً، وهذراً لا وزن له. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ «فالله المحيط علمه، وقدرته يقول الحق الكامل في حقيقته الثابت الذي يوافق ظاهره باطنه، فلا قدرة لأحد على نقضه، فالآية من الاحتباك ذكر الفم أولا دليلا على نفيه ثانيا والحق ثانيا دليلا على ضده الباطل أولا وسر ذلك أنه ذكر ما يدل على

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب،ص٦٤.

(٢)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير ج٢٢ صـ٢٦٠.

النقص في حقنا وعلى الكمال في حقه ودل على التنزيه بالإشارة ليبين فهم العلماء وعلم العلماء»(١) .

فالألفاظ والمؤكدات التي توافقه في التمهيد والمقصود كل ذلك لانتفاء الحقيقة، فيما يزعمون وما اعتادته أنفسهم وزيادة تحريض على تلقي أمر الله بالقبول والامتثال ونبذ ما خالفه، «والله عز وجل لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه، ولا يهدي إلا سبيل الحق، ثم قال ما هو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق، وهو قوله: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل، وفي فصل هذه الجمل ووصلها: من الحسن والفصاحة مالا يغني على عالم بطرق النظم» (٢).

فشرع سبحانه في بيان المقصود والمراد الذي قدم له بمقدمات ومؤكدات لتتهيأ النفوس لقبول الحق، فليس هدف القرآن تعليم الناس قول الحق فقط، وإنما الغاية الإقناع بما يشرع الحق وتقريره في أعماق النفوس، وهذا ما سنلحظه فيما شرعه الله من أحكام وتوجيهات في هذه السورة، فذكر هنا التطبيق العملي والواقعي لإبطال التبني، والمتعلق بدءاً بالقدوة الأسوة الذي قصد بالتوجيهات السابقة في صدر السورة ﷺ فقال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ص٢٨٧.

(٢)الزمخشري، الكشاف،ج٥ص ٣٠٩.

وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ والتي نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ (١)

ففي هذا التوجيه للرسول ﷺ ولأمته أمر من الله تبارك وتعالى برد نسب الأبناء إلى الآباء الحقيقيين، وأن هذا هو العدل، والقسط واهتمام بالأساس الأول في الأسرة المسلمة لتقوم على أساس ثابت، وبيان التشريع الحق في علاقة الوالد لولده، وإقامتها على أصلها الفطري ليتم التوازن في الأسرة لأداء الحقوق، وهي إشارة إلى أهمية الأسرة المسلمة، وعدم إغفالها في مجتمع جاهلي تسوده الفوضى في علاقات أفراد الأسرة ببعضها، مع فوضى اختلاط الأنساب وانتشار الرذيلة فجاء المنهج القرآني ليبين قول الحق ، ويهدي إلى أعدل الطرق والسبل إبطالا لتلك العادات، وتأسيسا لمنهج قوي ثابت صالح لكل زمان ومكان ،مبطل لكل اعتقاد قديم أو حديث بأي لبُوس أتى أو بأي دعوى .

ثم أعقب ذلك بيان المخرج من هذه العادة في حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين بأن تكون العلاقة بين أفراد المجتمع قائمة على الأخوة في الدين ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وهي علاقة تقوم على التواد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾، برقم ٤٧٨٢ ، ج٣ صـ٢٥٩ . ومسلم سبقتخريجه صـ١١٠.

والتراحم، والتعاون بعيدة عن الالتزامات الشرعية التي تتعلق بالنسب ، ليعيش أفراد المجتمع على التآخي الذي به يتحقق المقصد الشرعي من وجود الخلق وبذل الوسع في ذلك لأن الأمر للوجوب، وإن وقع خطأ بعد الاجتهاد في الرد الى النسب الصحيح ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي اذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فليس عليكم حرج فيما وقعتم فيه من خطأ أي ليس عليكم إثم ، وإنما الإثم على من تعمد الباطل ففي الآية تفرقة بين ما يقع على سبيل الخطأ والسهو، وما يقع عن تعمد وقصد .

وناسب بعد تقرير عادة تطبّع عليها أهل الجاهلية ، وأنها قضية منهج واتباع الحق من عند الحكيم العليم الخبير بما يصلح العباد ويصلح حياتهم ، وجعل لهم مثالا واقعا ملموسا بينهم لشخصية استقر فضلها ومكانتها في نفوسهم بأن يكون هو أول من يبادر لذلك ، ليدرك كل مخلوق أن شريعة الله لا تقبل التردد فمقامهما على الاستسلام والإذعان لله الواحد الديان، وفي ثنايا ذلك يبرز سماحة الإسلام في تعاملها مع المجتهد المخطئ بأن الله يرشده إلى ما اتصف به سبحانه من صفات المغفرة والرحمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ « استئناف بياني؛ أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ كان قد شمل في أول ما شمله إبطال بنوّة زيد بن حارثة للنبي ﷺ فكان بحيث يثير سؤالاً في نفوس الناس

عن مدى صلة المؤمنين بنبيهم ﷺ وهل هي علاقة الأجانب من المؤمنين بعضهم ببعض سواء، فلأجل تعليم المؤمنين حقوق النبي، وحرمته جاءت هذه الآية مبينة أن النبي أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم »(١)

فالقرآن أبطل أن يقال زيد بن محمد، فقد جاء بأبوة محمد ﷺ لأمته كلها، وبأمومة نسائه لكل رجالها مبيناً فضله ومكانته ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾، فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا، فإن ترك دَيْنًا أو ضَياعًا، فليأتني فأنا مولاه**»(٢) .

قال ابن عباس وعطاء: «يعني إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعتهم أنفسهم»(٣) .

وقال الزمخشري: «في كل شيء من أمور الدين والدنيا ﴿ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٢٦٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأحزاب، برقم ٤٧٨١، ج٣ صـ٢٥٩ .

(٣)البغوي، تفسير البغوي، ٦ ص ٣١٨.

كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه، لأنّ كل ما دعا إليه، فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة، والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم،كقوله تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾»[1] إن النبي ﷺ هو الأب الأعظم للمؤمنين، هو الذي أحيا مواتهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فكان له بهذا سلطان مطلق على وجودهم الروحي.

وقوله:﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ عطف حقوقهن على حقوق النبي ﷺ « أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن، وأخواتهن بالإجماع »[2]

كما لا يحل انتهاك حرمتهنّ بوجه، ولا الدنو من جنابهنّ بنوع نقص، فإن تعظيمهنّ وأداء حقوقهنّ من تعظيم رسول الله ﷺ وأداء حقوقه، لما لهنّ من شرف وفضل على العالمين رضي الله عنهنّ، وأرضاهنّ الطاهرات العفيفات.

وقوله:﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكم الله ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ من هنا بيانية « أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار،وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة

---

(١)الزمخشري، الكشاف،ج٥ص٣١١.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج١١ص١١٩.

التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما »(١) «فكأن الآية الأولى تبين حظوظ المؤمنين من بيت النبوة، فالنبي أبوهم، وأزواجه أمهاتهم، والأبناء يرثون الآباء والأمهات، والموروث في هذا البيت هو الدين، والقرآن، الذي يظل بمقتضى هذا التوارث يتجدد في أجيال هذه الأمة، أو في الصفوة المختارة من أجيالها، والموروث في الآية الأخرى هو متاع الآباء، والأمهات، وما حطبوه من هذه الدنيا، هو شيء يفنى ولا يبقى، لنتأمل الحالين، وليمضي كل منا في أمر نفسه على بيِّنة، فهذا ينصرف إلى ميراثه من نبيه، يطوف العمر كله حول نبعه الرقراق، وكلما ورد ازداد شوقاً، وكلما نهل ازداد نوراً، وازداد قُرباً، وهذا مشغول بميراثه من آبائه مشغول بماله ومتاعه، وحبَّذا الذي يصون الميراثين »(٢)

قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾

«إلا» هنا استثناء مما أُبطل ونسخ من الانتفاع بالإرث،وبقي المعروف الذي يجمع البر والصلة والإحسان والإنفاق والإهداء، وغير ذلك مما يشمله المعروف، مبيناً أن الصلة بين المؤمنين أعظم، وأجل من متاع الدنيا الزائل الرابطة هي رابطة الدين. ولما أخبر أن هذا الحكم في كتاب الله، أعاد التنبه على ذلك تأكيداً لهذا الحكم الذي تقرر، وبيان لمصدر التشريع المأمور باتباعه النبي ﷺ، واتباعه في صدر السورة، والمرتبطة بالوحي، وهنا ذيل الأحكام التي ذكرت فيما

---

(١)المصدر السابق ص١٢٠.

(٢)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب،ص٨٢-٨٣.

سبق بقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ لتطمئن القلوب، وتُقبل على تشريع ربها بالرضا والقبول لتحقق الاستقرار لحياتها.« في هذه الآية تقرير بحقيقة النبي على المؤمنين، فهو أولى بهم من أنفسهم، وتقرير بحق أزواجه على المؤمنين، فهنّ أمهاتهم أيضاً، وتقرير الأولوية لذوي الأرحام من المؤمنين فيما بينهم، وتنبيه على أن تقرير الأولوية بين ذوي الأرحام من المؤمنين لا يحول دون مساعدة المؤمنين لأوليائهم من غير ذوي الأرحام وإسداء المعروف إليهم، وهذا هو حكم الله الذي كتب عليهم»[1].

قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ «عطف على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ فلذلك تضمن الأمر بإقامة الدين على ما أراده الله تعالى وأوحى به إلى رسوله ﷺ، وعلى نبذ سنن الكافرين الصرحاء، والمنافقين من أحكام الهوى والأوهام،فلما ذكر ذلك، وعقب بمثل ثلاثة من أحكام جاهليتهم الضالة بما طال من الكلام إلى هنا: ثني عنان الكلام إلى الإعلام بأن الذي أمره الله به هو من عهود أخذها الله على النبيين والمرسلين من أول عهود الشرائع، وتربط هذا الكلام بالكلام الذي عطف هو عليه مناسبة قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾، وبهذا الارتباط بين الكلامين لم يحتج إلى بيان الميثاق

---

(١)دروزه، التفسير الحديث، ج٨ص٢٤٥.

الذي أخذه الله تعالى على النبيين »(١) «وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي ﷺ بالاتقاء بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ وأكده بالحكاية التي خشي فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحداً غيره، وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أكده بوجه آخر وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ كأنه قال اتق الله ولاتخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع »(٢).

فهناك مناسبة بين تبليغ هذه الشرائع في صورة إبطال الظهار والتبني، وإقامة المواريث، وبين التذكير بعهد تبليغها، ولعل هذا يكفي لبيان صحة العطف،وظهور المناسبة بين الآيات،كما أنه لما ذُكر ما بين الأرحام من وشائج القربى، ولحمة الدم، ناسب ذكر مابين الأنبياء،فإن بينهم رابطة قوية وصلة عظيمة إنها صلة الإيمان بالله، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله. ففي الآية إخبار بما أخذه الله على أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء من ميثاق قال مقاتل:« أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله، ويصدِّق بعضهم بعضًا، وينصحوا لقومهم، ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٢٧٣.

(٢)الرازي، التفسير الكبير،ج٩ص ١٥٩.

خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولوا العزم من الرسل، وقدم النبي ﷺ بالذكر »(١) .

وفي تقديم النبي ﷺ تناسب وتناسق للمعنى المذكور في الآيات أشار إليه الزمخشري وقال: «فإن قلت: لم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده قلت هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. فإن قلت: فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية، وهي قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ ثم قدم على غيره. قلت: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك، وذلك أنّ الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأنه قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير »(٢).

وبعد تجلية أمر هذا الدين بأنه ميثاق وعهد أُخذ على الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ومن تبعهم ذكر ما يؤكد عظم المسؤولية الملقاة من وراء العهد والميثاق فقال: ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ ﴾ أي يوم القيامة « متعلقٌ

---

(١)البغوي، تفسير البغوي، ج٦ ص٣٢٠.

(٢)الزمخشري،الكشاف،ج٥ص٣١٢.

بمضمرٍ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ ما هو داعٍ إلى ما ذُكر من أخذِ الميثاقِ، وغاية له لا بأخذنا، فإنَّ المقصودَ تذكيرُ نفسِ الميثاقِ، ثمَّ بيانُ الغرضِ منه بياناً قصديًّا كما ينبئ عنه تغييرُ الأسلوبِ بالالتفات إلى الغَيبةِ أي فعل الله ذلك ليسألَ يومَ القيامةِ الأنبياءَ، ووضعَ الصَّادقينَ موضعَ ضميرِهم للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّهم صادقون فيما سُئلوا عنه، وإنَّما السُّؤالُ لحكمةٍ تقتضِيه أي ليسألَ الأنبياءَ الذين صدقُوا عهودَهم عمَّا قالُوه لقومِهم، أو عن تصديقِهم إيَّاهم تبكيتاً لهم كما في قولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أو المصدِّقين لهم عن تصديقِهم، فإنَّ مصدِّقَ الصَّادقِ صادقٌ وتصديقَه صدقٌ»[1] و(الصادقين) أي في الوفاء بالعهد عن (صدقهم) هل توجهوا به لله وحده دون سواه، وهو بيان لعظم الأمر وشرط قبوله،فجزاءهم عظيم، وإهانة للكاذبين الذين سيُسألون وعقابهم ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.«وهذا من محاسن رياض الإحتباك، وإنما صرح بسؤال الصادق بشارة له بتشريفه في ذلك الموقف العظيم، وطوى سؤال الكافر إشارة إلى استهانتهم بفضيحة الكذب »[2] .

كما أن فيه تأكيداً للأحكام والتوجيهات التي جاءت في الآيات السابقة،وسؤال الله عنها عند لقائه، مما فيه تهييج للنفس المؤمنة للمسارعة لتقيّد بشرع الله،وطرح كل عادة ومألوف، وعدم النظر لرغبات النفس التي لا توافق

---

(١)انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج٥ص٣٢١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ص٢٩٥

منهج الله الذي يريده من عباده، مع ما سبق في علمه من مخالفة البعض ومجانبتهم الصواب من الكاذبين، المتنحلين لشريعة الله ظاهراً لا باطناً، ومقدمي الأهواء والشهوات، والعادات، والتقاليد المقيتة على مراد الله،فالكل سيُسأل والجزاء من جنس العمل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا
لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ
زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟
ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ
وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا
يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ
ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا
قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ
وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ

فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

تتحدث الآيات عن غزوة الأحزاب التي سميت بها السورة، ومناسبة ورودها في خضم الآيات التي تحمل كمّاً من التوجيهات لبناء الدولة المسلمة، والبيت المسلم، دليل شهودي واقعي مما حذر الله منه رسوله ﷺ من عدم طاعة الكافرين والمنافقين،الذين جمعوا بين سفاهة العقول، ودناءة النفوس، وانتكاس الفطرة،فجاء ذكر هذه الغزوة لتصور حال تلك النفوس، وما تحمل من كيد وعداء للإسلام، وأهله، رسموا فيها أبشع صور التمرد في نقض العهود والمواثيق، وسوء الجوار، فكانوا هم السباقين على تأليب الأحزاب على النبي ﷺ، والقرآن يتنزل، ويصور لنا صورة من صور عوائق الطريق، وليحذر كذلك منهم المؤمنين. ومن طرائق القرآن تصوير الأحداث والابتلاءات التي تقع، ليكشف حقيقة الطريق،وحقيقة ما يقع ودلالته، ليوجهها بما أوجب الله عليها .

«لما ذكر تعالى في أول السورة قوله:﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.ذكر شأن الكافرين، والمنافقين مع أهل

الإسلام، وما يدل على وجوب التوكل على الله في الأمور كلها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (١)، فكانت واقعة الأحزاب مؤكداً عملي في حفظ الله لأوليائه، ونشر فضله، ورحمته عليهم؛ برد كيد الأعداء عنهم، فكفى به وكيلا، ومن التناسب والتناسق «أن ذكر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ مدخلاً فذا للحديث عن الغزوة، لتذكير أتباع محمد ﷺ بالعهد والميثاق الذي أخذ على الأنبياء بضرورة تبليغ الشرائع، وفي هذا تعظيم لهذه الشرائع، وما كان موقف المؤمنين وراء الخندق إلا من أجل الدفاع عن شريعتهم من عدو قد أعماه الباطل، وطاش بعقله حقده على الحق المبين » (٢) أما عن خبر الغزوة وسببها فقد سبقت الإشارة إليها في ص (٥٣-٥٥).

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ الخطاب في الآية للمؤمنين لأنهم أهله وأحقاء به، ولأن فيه تخليد كرامتهم،ولإبراز عناية الله بهم،وحفظه،وتأييده لهم، منادياً لهم بنداء الإيمان ذلك المسمى الشريف الذي هو أصل الأمن،والأمان يُدخل الطمأنينة على النفس، وبه يزول الخوف، ولأن الذي يليق بحال المؤمنين؛ أن يذكروا ما أنعم الله به عليهم في صرفه أعداءهم

---

(١) شيخ زاده، محمد بن مصلح القوجي، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية بيروت،ج٦ص٦١٤-٦١٥.

(٢) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص١٨٩.

عنهم،ولا ينسوه لأن في ذكره تجديداً للاعتزاز بدينهم،والثقة بربهم،والتصديق بنبيهم ﷺ.

وقوله:﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ عرض سريع للواقعة، والجنود هم الأحزاب من مشركي قريش،ومن انضم إليهم من أوباش العرب،ومن اليهود، والمنافقين، وهي بداية الواقعة، وتوطئة لقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ وهنا محل المنّة «الريح قال مجاهد: «هي الصبا» قال عكرمة: «قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله ﷺ،فقالت الشمال: إن الحرة لا تسري بالليل،وكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا »[(١)] وقد استعمل «ريح » مفردة وتأتي في القرآن في سياق العذاب،وفي سياق الرحمة ، ومن التناسق أن جنود الأحزاب قوبلت بلفظ الريح التي تحمل معنى الغلبة والقهر، وأنه قابل لفظ الجنود بجنود لا ترى﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾وهم الملائكة .

وقوله:﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ «في موقع الحال من اسم الجلالة في قوله: ﴿ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ﴾، وهي إيماء إلى أن الله نصرهم على أعدائهم لأنه عليم بما لقيه المسلمون من المشقة، والمصابرة في حفر الخندق، والخروج من ديارهم إلى معسكرهم خارج المدينة، وبذلهم النفوس في نصر دين الله، فجازاهم الله

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٤ص ٩٤.

بالنصر المبين »[١] فهو علم كاشف لكل شيء، وهذا هو السر في جعل فاصلة الآية ﴿ بَصِيرًا ﴾ .

ثم زاد الأمر تفصيلاً وبياناً عن ما أجمل من قبل فقال سبحانه: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ جاءتهم جنود أهل مكة،والحجاز من فوقهم،وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاهدوا على استئصال شأفة الرسول ﷺ ومن معه، ومالأتهم طوائف اليهود الذين في المدينة، وما جاورها،وهي كناية عن إحاطتهم بهم، وتمكنهم منهم، حتى بلغ الأمر بالمسلمين ما وصفته الآيات بأبلغ وصف،وأدق عبارة، لشدة الموقف فقال: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ «ولما ذكرهم بالمجيء الذي هو سبب الخوف ذكرهم بالخوف بذكر ظرفه أيضاً مفخماً لأمره بالعطف فقال: ﴿ وَإِذْ ﴾ أي واذكروا حين،وأنث الفعل،وما عطف عليه لأن التذكير الذي يدور معناه على القوة، والعلو، والصلابة ينافي الزيغ فقال: ﴿ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أي مالت عن سداد القصد، فعل الواله الجزع بما حصل من الغفلة الناشئة عن الدهشة الحاصلة من الرعب،وكذا ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ﴾ كناية عن شدة الرعب والخفقان »[٢]

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ص٢٧٩.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ص٣٠١.

وقوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ تناسب وتناسق مع الواقعة في تصوير حال أهل الإيمان،وما يتنابهم في لحظة من اللحظات،أو يتجدد معهم، وعبر عن هذا الحدث بفعل المستقبل دون الفعل الماضي الذي جاء تعبيراً عن الحدثين ﴿ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ في هذا ما يشير إلى أن زيغان الأبصار، واضطراب القلوب، إنما هما حال لبست المسلمين مرة واحدة عند استقبالهم لهذا المكروه،أما الظن بالله فهو أحوال متجددة،تعاود المسلمين حالاً بعد حال، حيث يترددون بين الرجاء واليأس،وبين اليقين والشك،حسب الأحوال النفسية،أو المادية التي تعرض لهم مع دلالته على استحضار الحدث،وصياغته أمام الحاضر الراهن،المكروب المفاجأ،كما يلحظ التتابع والتدرج في الألفاظ، لوصف الحال ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ وبعد وصف الظاهر انتقل إلى داخل النفس، لوصف الخواطر، والهواجس، والظنون، وهذه أمضى مراحل الابتلاء بالنسبة للمؤمنين، فقد خافوا أن تزل أقدامهم حتى ظن البعض؛ أن الكفار سينتصرون عليهم ويستأصلونهم،وكل هذا لا يتعارض مع قوة إيمانهم،وثقتهم بربهم،وما وعدهم به كما سيأتي،لكنها ظنون تنتاب النفس من قبل الأوهام،وتصور لحال المؤمنين،وما وقع لهم من شدة،ليدرك أهل الإيمان في كل زمن عناية الله،وإحاطته،وقوته،وحكمته،وفضله على من تمسك بشرعه واقتدى برسوله ﷺ الذي حفظه ربه، ومن معه من أهل

الإيمان، ولكن الأمر هنا أمر ابتلاء للإيمان، وتمحيص للعقيدة،لتربى القلوب على عقيدة صادقة قوية، وصبر دؤوب(١)، لذا ناسب أن يذكر وصفاً آخر لحال المؤمنين صرح فيه بالمقصد العظيم الذي يقع بوجوده التمكين للمؤمنين في كل زمن خصوصاً تلك المرحلة التي تمر بالمسلمين مع رسول الله ﷺ في المدينة فقال: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فالآية فيها توكيد لما سبق وتقرير للموقف الذي واجه فيه المؤمنون الأحزاب،ووقع لهم الابتلاء الشديد الموصوف في قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فهي مبينة لما في هذا الابتلاء من شدة،وكرب يقع به التمايز والصدق مع الله جل وعلا.

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ العطف هنا على قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ﴾ لأنه مما ألحق بالمسلمين الابتلاء فبعضه من حال الحرب وبعضه من أذى المنافقين،وجاء بصيغة المضارع زيادة في تصور الحدث وحضوره،كأن القارئ يرى هذه الفئة وهي تنفث سمومها في صفوف المسلمين، وتنطق بهذه الألفاظ الكفرية ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ تخذيلاً للمسلمين،وتهويناً من شأن النبي ﷺ «وهو قول أهل النفاق: يَعِدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوزَ

---

(١) انظر : أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، صـ١٠٠-١٠١.

رحله، هذا والله الغرور.»[1] كما في المضارع أيضاً إشارة إلى تجدد هذه المقولة مع الأزمان والأجيال من قبل هذه الفئة.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تناسب وتناسق مع أصحاب النفوس الدنيئة التي سيطول الحديث عنها في ثنايا هذه الغزوة لموقفهم المتخاذل الذي أظهر مكنون نفوسهم،فالتعبير بالقلوب،لأن محل الخير،والشر هو القلوب،فكما أمر النبي ﷺ بالتقوى التي تنبع من القلوب فكان منه ﷺ ومن تبعه الاستسلام،والإذعان،والصبر،والثبات لأمر الله وأقداره،يبين حال من لم تسكن التقوى قلوبهم بسبب انشغالها بمرض الكفر الذي أبطنوه ولذا قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولم يقل مرضت قلوبهم،أو قلوبهم مريضة ليوحي بأن المرض، قد أقام،واستقر في هذه القلوب،وأنه قد تمكن منها المرض، وانطوت عليه راضية بها، كما ناسب بعد بيان وتأكيد المنشأ الأساس لتلك الأقوال والأفعال أن يذكر صوراً مما انطوت عليه القلوب المريضة في الآيات التي تحدثت عن المنافقين في السورة من خلال عدّة مواقف لهم بثتها الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي قوم كثير من موتى القلوب،ومرضاهم﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عدلوا عن الاسم التي سماها به الرسول ﷺ

(١)البغوي، تفسير البغوي،ج٦ص٣٣٢.

مـن المدينـة إلى يثـرب خـصوصاً لغـرض بـث الفرقـة في صـفوف الأنـصار، والمهاجرين،وليستحثوهم عـلى الرجـوع إلى المدينـة.﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ «لا مكان لكم، تقومون فيه،فارجعوا إلى منازلكم، أمرهم بالهرب مـن عـسكر رسـول الله ﷺ والفـرار منـه، وتـرك رسـول الله ﷺ »[1] فاسـتجاب لهـذه الـدعوة بعـض المنافقين،ومن في قلوبهم مرض،فكانوا على فريقين:الأول رجعوا بغير استئذان من النبي ﷺ، والثاني عبر عنها القرآن بقوله:﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ ﴾ وعذرهم للنبـي ﷺ ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أي معرضـة للعـدوان عليهـا مـن المـشركين وغيرهم،فـرد مقـولتهم القـرآن،وبيَّن كـذبهم ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ بـل هـي في حمـى المسلمين جميعاً،وما يقع لبيوت المسلمين يقع عليها،وهذا من المقابلة المفضية للتناسق البديع في الآيات مبيناً حقيقـة أمرهـم ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي مـا يريـدون إلا هروباً من هذا الموقف.

وقولـــــه:﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ هذه الآية زيادة تقرير لسابقتها و« إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلاً لغرض، فإذا فاتـه الغـرض لا يفعلـه، كمـن يبـذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فإذا أخذ منه البيت لا يبذله، فقال الله تعالى: هـم قـالوا بأن رجوعنـا عنـك لحفـظ بيوتنـا، ولـو دخلهـا الأحـزاب وأخـذوها منـهم لرجعـوا

---

(١)ابن جرير،الجامع في تأويل القرآن، ج١٩ص٤٢-٤٣.

أيضاً، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم، وحبهم الفتنة، وقوله: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ احتمل أن يكون المراد المدينة، واحتمل أن يكون البيوت، وقوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ ﴾ يحتمل أن يكون المراد الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا ﴾ فإنها تزول، وتكون العاقبة للمتقين، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أي ما تلبثوا بالمدينة إلا يسيراً، فإن المؤمنين يخرجونهم.»(١) ثم ذكرهم الله بما كانوا عاهدوا من قبل هذا الخوف أن لا يولون الأدبار، ولا يفرون من الزحف بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ وترى ألفاظ الآية تتناسق مع الفعل في عدّة مواطن منها ما ورد من مؤكدات لهذا الخبر لام القسم وحرف التحقيق، وفعل كان،وقوله:﴿ مِن قَبْلُ ﴾ إشارة إلى أن ذلك العهد قديم مستقر،ومنها ما في جملة﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ تذييل لجملة ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ ﴾ والمقصود: أن كل عهد يوثقه الإنسان مع ربه محاسب عنه، وكنى عنها ب﴿ مَسْـُٔولًا ﴾ وهو ربط بما سبق في ذكر سؤال الله للصادقين ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾(٢) بعد أخذ الميثاق الذي هو العهد المأخوذ على الأنبياء، وعلى الناس جميعاً،ولكن ضيعت فئةٌ منهم لتلبسهم بالإيمان أدعاءً، وتقولاً فقط،وسيسألهم الله عن ذلك،ثم قطع تلك الآمال الكاذبة التي يعيش فيها أولئك الفرار **بقوله**:﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

---

(١)الرازي، التفسير الكبير،ج٩ص ١٦١.

(٢)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير ج٢٠ صـ٢٨٩.

عبر بالموت والقتل عن الملاقاة لأن الملاقاة سبب للموت،والقتل، والتعبير بالمسبب عن السبب يُشعر بقوة هذا السبب، وأنهم حتماً سيلقون الموت لا فرار لهم منه سواء موتاً طبيعياً أو في حدث من الأحداث،فينقطع تمتعكم، وما هو إلا تمتع قليل.

وقوله: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ مفصول عن الأمر الواقع قبله،أي قوله: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ﴾ تأكيد له،فإن نفي العصمة من الله إن أراد خيراً أو شراً تأكيد لنفي نفع الفرار، والثاني أوكد في الدلالة على المعنى وهو نفي نفع الفرار وقوله:﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى ﴾ استفهام في معنى النفي،أي لا أحد يعصمكم من الله، والفرق بين النفي بالاستفهام والنفي بأداة النفي _ مثل «ما» و«لا» –أنك في الاستفهام كأنك تطلب من المخاطب أن يتحدث عمن يعصمه من الله،فإذا ما جد واجتهد ولم يجد عاصماً أيقن بالنفي وهذا أبلغ »[1] فالآية تشير إلى أمر فطري في الإنسان وهو حاجته إلى من يلجأ إليه ويلوذ به مهما بلغ من القوة والجبروت والطغيان والملك، فلا يستطيع أحد أن يكبت هذه الحاجة مهما بلغ من العناد والعتو، كما أن الفطرة لا تتوجه إلا إلى مقصود واحد وهو الله، فإذا الإنسان يطلب معتصماً يعتصم به حال الضر والسوء.

---

(١)أبو موسى ،دراسة تحليلية لسورة الأحزاب،ص٢٤-١٢٥.

لذا كان فرار هؤلاء المنافقين من ميدان القتال أنهم كرهوا المشاركة في المعركة، ففروا عما هو في صميمه خيرٌ ورحمةٌ وبركة.

﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فالنظم في الآية اختلف كان خطاباً مباشراً ثم تحول إلى الغيبة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ ﴾ التحوّل كان في الأسلوب لمناسبة الحال، فالخطاب كان لهم حال حضورهم مع المؤمنين في ميدان الغزوة، فكان خطاباً مباشراً وهم في حال مرض قلوبهم، ومشاعرهم الكاذبة قبل فرارهم، فلما فروا ناسب أسلوب الغيبة في الحكم عليهم، ليقع لهم العذاب فجأة وهم في غفلة منه، وهو بلاء فوق البلاء فتأمل التناسق الجميل والنظم الجميل

«ولما أخبرهم سبحانه بما علم مما أوقعوه من أسرارهم وأمره ﷺ بوعظهم، حذرهم بدوام علمه لمن يخون منهم »(١)، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، « قد يعلم الله الذين يعوّقون الناس منكم عن رسول الله ﷺ، فيصدّونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقا منهم، وتخذيلا عن الإسلام وأهله﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾: أي تعالوا إلينا، ودعوا محمدا، فلا تشهدوا معه مشهده، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يقول: ولا يشهدون الحرب، والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا، ودفعا عن أنفسهم »(٢) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ﴾ تحقيق علم الله لهؤلاء المثبطين الصارفين

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج ص ٣١٣.

(٢) ابن جرير، تفسير الطبري،ج١٩ص٥٠

الناس عن الخير، والتعبير عن العلم بفعل مستقبل إنما هو بالنسبة لما سيقع من أصحاب هذه المواقف المخزية، فهو تحذير لهم من أن يقعوا فيما حذروا منه.

وهنا موقف يتبع ما سبق من مواقف أهل النفاق فكما وقع من فئة عدم الخروج للقتال ابتداءً لم يقفوا عند هذا الحد وإنما كان منهم ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ الذين أمسكوا غيرهم معهم عن الخروج، وزينوا لهم القعود مع القاعدين، ودعوتهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ « أي قربوا أنفسكم إلينا»(١) بما يحسبون أنهم شفقة، ونصحاً لهم، وهم يجتمعون على عداء متأصل للحق في إيقافه وصده ورد الناس عن إتباعه وهذا من أخطر الأمور، لأن به تأصيل للشر في حياة الناس ليتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل، وهو دينهم على مر الأزمان، ولكن من أساليب القرآن لبيان المنهج الحق ألا يترك مجالاً للشرود بهم، وزوغان الأبصار عن دقائق المنافقين لئلا ينخدع بهم الناس فصور صفاتهم بأدق الأوصاف فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كما سبق في معناها بأن شهودهم للقتال إعذار فقط، وسميت الحرب (بأساً) لأنها سبب الشدة، وهو من التناسق المناسب للحال هنا كذلك التعبير عن القتال (بالإتيان) وتجنب وصفهم للقتال، لأن القتال من المسلمين لإعلاء كلمة الله فيه شرف وعزة وكرامة، وأنهم لا يصبون إلى ذلك لمرض قلوبهم، وما ورثهم من الجبن والهلع والفزع في نفوسهم فلا يقع منهم إلا مجرد الإتيان وقوله ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ

---

(١) الزمخشري، الكشاف،ج٥ص٣١٥.

ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ «ولما كانوا يوجهون لكل من أفعالهم هذه وجهاً صالحاً، بين فساد قصدهم بقوله ذاماً غاية الذم بالتعبير الشح الذي هو التناهي في البخل، فهو بخل بما في اليد، وأمر للغيب بالبخل، فهو بخل إلى بخل خبيث قذر متمادى فيه مسارع إليه﴿ أَشِحَّةً ﴾ أي يفعلون ما تقدم والحال أن كلاً منهم شحيح ﴿ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي بحصول نفع منهم، أو من غيرهم بنفس أو مال.»[1] وقوله:﴿ أَشِحَّةً ﴾ « أي بخلاء عليكم لا يعاونونكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد وقتادة، وقيل: أشحة بالقتال معكم، وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكنكم وقيل أشحة بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي، حتى قال قتادة: معنى الآية بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون، أعطنا فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قومٍ، وأبسطهم لسانا، ووقت اليأس أجبن قوم وأخوفهم »[2] .

لقد صور الشح وطبيعته في نفوس المنافقين أبلغ تصوير ليشمل كل ما تناوله البخل، لحقدهم على المؤمنين، وفي الآية من التصوير البليغ لتلك الصفات التي اتصف بها هؤلاء أدقه، وأبلغه، ومراعاة المقابلات بينها وترتيبها، ليكون ذلك أدعى إلى التدبر والفهم، وأسرع إلى الحذر والبعد عنها، فقد جمَّل وصف البخل بأروع وصفٍ يصل إلى خلجات النفوس، ويجمع مرادفاته بقوله:

---

(١)البقاعي، نظم الدرر،ج١٥ص٣١٤.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج ٤ ص ٢٦٩-٢٧٠.

﴿ أَشِحَّةً ﴾ ولما كان التقدير في حال الأمن أتبعه ببيان حالهم من الخوف، ولما ذكر البخل بيَّن سببه وهو الجبن فقال: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ وصفٌ كاشف لهؤلاء الذين يشهدون القتال بعد أن كشفت الآيات السابقة ما في قلوبهم من زيغ، وفي نفوسهم من مرض صورة حالهم الظاهر في صورة الخوف كأنه حي مخيف يتحرك ويجيء، ومن دقة التصوير يستخدم لفظ (جاء) مع مقابلته لقوله: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ بيان لحال المنافق المتكرر في القرآن كثيراً بأنه دائما بين حالين متباينين (مذبذبين) وعبَّر القرآن عن القتال بـ (الخوف) تناسقاً وتناسباً لحاله، وهو إشارة إلى أنهم أجبن الناس، لأن مجرد كلمة الحرب تملأ قلوبهم فزعاً ورعباً، ثم خص النبي ﷺ بالخطاب ووصف حالهم في قوله: ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ ولم يقل ينظرون إليكم لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور المتكرر، ولذا جاء بالفعل في قوله: ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ على صيغة المضارع لتجدده وفي كلمة ﴿ تَدُورُ ﴾ دون غيرها تصوير للحركة الذاتية المستمرة ما دام الخوف قد وقع بهم اختياراً وتلبساً، واصفاً المراحل التي وصلوا لها من الضعف والتخاذل. وجملة (تدور أعينهم) حال من ضمير (تنظرون) لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها[1]

---

(١)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ صـ٢٩٥-٢٩٧، أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ١٣٤-١٣٦.

في قولـــــه: ﴿ كَٱلَّذِى يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ تـشبيه نظـرهم بنظـر مـن هـو في سـكرات المـوت بـأن عينيـه تضطربان.

وقوله: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ ﴾« تصوير لحالة ما يحدث في الظاهر بسبب ما في الداخل من مرض مصوراً أذيتهم باللسان، وتعييبهم للمؤمنين بالسلق الذي هو سلق اللحم عن العظم إذا قشرته، فاستعار تمزيق اللحم والأديم للإهانـة، والـسب والعيب.

وهنـا لفتـة قرآنيـة فـذة تلفـت إليهـا هـذه الملاطفـة لمـن أُنـزل عليـه القـرآن صلوات الله عليه وسلامه، فقد عدل عـن خطـاب الواحـد إلى خطـاب الجمـع في قولــه: ﴿ سَلَقُوكُم ﴾، وقــال قبــل ذلــك: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ هنـاك ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ ﴾ وهنا ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ ونرى أنه جاء عـلى خطـاب المفـرد في قولـه: ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ ﴾ ليشير إلى أشياء: منها أنك تتجه إليك الأبصار إذا فاجأها الخطـر، تتطلب اللواذ بك، والحماية منك، ومنها أن مروءتـك وعظمـة نفسك، ورحمتـك بالناس أجمعين خليقة فيك، عرفها من حولك، حتى عـدوك اللـدود، تـراه ينـدفع نحوك إذا حزبه الأمر لائذا ومستجيراً ، وهو يعلم في قرارته أنه لائذٌ بأكرم الرجال نفساً، وأبر بني الإنسان بالإنسان وهـي خـلالٌ مـا أعظمهـا مـن خـلال. وعـدل عـن خطابه إلى خطاب الجمع في قوله: ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ تكريماً له عليه الـسلام حتـى لا يتسلط هذا الفعل الذي هو السلق قصداً إليه، وإشارة إلى أن عيبهم لـن ينـال منـه، ولن يصل إليه، وفيه أيضاً إشارة إلى أنهـم لم يجـرأوا أن يفـردوه بالعيـب والـشتم،

وقد كانوا كذلك أبدا يهابونه دائماً، فواجهوه بالكفر وما واجهه احدٌ منهم بكلمات الشتم والعيب، وإنما كانوا يلوون ألسنتهم بالسوء »(١).

وقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ فُسرَ كما سبق كونهم أشحة على كل خير بالحرص على مال الغنيمة وغير ذلك، والمراد، -والله أعلم-، أنهم استحياء في الثرثرة في اللغو بالباطل، على حين أنهم أشحاء على الخير قولاً وعملاً، بعد ذكر تلك الأوصاف المشينة من التخذيل، والجبن، والفرار، والتثبيط، والمعاذير الساذجة، وغير ذلك مما ورد في الآيات من صفات.

أخبر سبحانه بالأصل والسبب الذي نشأت عنه هو عدم الإيمان فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ ﴾ الإيمان بالله تعالى هو منبع كل خير وفضل، فمن رسخ في قلبه ترى الصدق والإخلاص في أعماله، وترى الأخلاق القيمة والصفات الحسنة، لذا كان أول أساس أُمر به الرسول ﷺ، فكانت تلك النتائج التي عرض لنا القرآن منها الشيء اليسير في هذه السورة، لأتباع محمد ﷺ الذين آمنوا بما جاء به، مع عرض صور الصادين عنه، وما حملته أنفسهم من قبح ورذيلة، ولذا جاء الإيمان في الآية مطلقاً ولم يقيد بمفعول معين لأنه يقصد به المنبع الأصل للإيمان الذي هو الأساس والحاجة إليه أكيدة.

وقوله: ﴿ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ أي لم يتقبل الله منهم عملاً، حتى ما كان صالحاً لفقدهم الإيمان الصحيح الذي هو شرط لقبول الأعمال، وإن زعموا ذلك

---

(١) أبو موسى، دراسات تحليلية لسورة الاحزاب، ص ١٤١.

ولكنه لا حقيقة له لأنه إيمان الظاهر لا علاقة للباطن به، ثم كان الختام بقوله: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ مما يشعر بالتحقير لهم وأن الله لما أخرجهم من حظيرة الإيمان لم يعبأ بهم لأنهم لا يشكلون شيئاً بالنسبة للمسلمين ولا يعتزون بهم، وما يقومون به من كيد ضد الإسلام وأهله، فلا فلاح له ولا مضرة منه متى ما تمسك أهل الإيمان بإيمانهم، واستقاموا على نهج الله الذي جعله ميثاقاً وعهداً في أعناقهم وكلف رسله بتبليغه والتذكير به ليثبتوا عليه، فلا يضرهم بعد ذلك كيد الكائدين.

وقوله: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

«لما ذُكر حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض من فتنتهم في المسلمين وإذا هم حين مجيء جنود الأحزاب، وحين زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر ثُني عنان الكلام الآن إلى حالهم حين أنعم الله على المسلمين بانكشاف جنود الأحزاب عنهم، فأفاد بأن انكشاف الأحزاب حصل على حين غفلة من المنافقين، فلذلك كانوا يشتدّون في ملام المسلمين ويسلِقُونهم بألسنة حِدَادٍ على أن تَعرضوا للعدوّ الكثير، وكان الله ساعتئذ قد هزم الأحزاب فانصرفوا وكفى الله المؤمنين شرهم، وليس للمنافقين وساطة في ذلك، ولعلهم كانوا لا يودّون رجوع الأحزاب دون أن يأخذوا المدينة، فتكون جملة ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ استئنافاً ابتدائياً مرتبطاً بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ جاء عوداً على بدْءٍ بمناسبة ذكر أحوال المنافقين، فإن قوله:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ يؤذن بانهزام الأحزاب ورجوعهم على أعقابهم، أي: وقع ذلك ولم يشعر به المنافقون. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم كانوا يسلقون المؤمنين اعتزازاً بالأحزاب لأن الأحزاب حلفاء لقريظة وكان المنافقون أخلاّء لليهود، فكان سلقُهم المسلمين في وقت ذهاب الأحزاب، وهم لا يعلمون ذلك ولو علموه لخفَّضوا من شدتهم على المسلمين، فتكون جملة ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ حالاً من ضمير الرفع في ﴿سَلَقُوكُم ﴾ أي: فعلوا ذلك حاسبين الأحزاب محيطين بالمدينة ومعتزين بهم فظهرت خيبتهم فيما قدروا »(١)، ويزيد في قوله: ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ هذه الطبيعة كشفاً وتحليلاً وجاء مع (إن) ليفيد أن ما كان منهم في الماضي من هروب وتولي يكون منهم الآن لو جاء الأحزاب مرة أخرى، لخرج المنافقون إلى البادية بين الأعراب مما يفيد التجدد في صفة الجبن الملاصقة لهم في كل حين ومن شدة الجبن ما جاء من تعبير في قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ ببعدهم عن موطن القتال لا يعرفون من أخباركم شيئا وإنما بالسؤال.

وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ «استقصاء لأوصافهم في أحوالهم كلها، بأنه مهما كانت حالتهم وفي أي مكان كانوا لن يشاركوا في القتال لجبنهم إلا قليلاً رياءً وسمعة وتفيدنا الآية الجليلة أصلاً هاماً وملهماً لكل داعية

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ ص ٢٩٩ – ٣٠١.

خير وإصلاح، وهو وجوب الصبر، والمعاناة في سبيل دعوة الحق، وعليه أن يغالب كل خاطرة من خواطر اليأس والخذلان، وأن يواجه كل صعوبة، وأن يدفع الثمن ولو كان هو الحياة، وذلك من حيث أن الآية وصفت المنافقين بالرغبة في تخلية أماكن النزال بين الحق والباطل، وهذا يعني أن المسلم لا يترك هذه الأماكن، سواء أكانت أماكن نزال بالسيوف، أم كانت أماكن دعوة وإصلاح وتوجيه، وبهذا الأسلوب الحاسم في دعوة الحق يقاوم الشر والباطل والضلال في أرض الله من جنده وحزبه »(١) وقد خلد النبي ﷺ وصحابته الكرام دروساً للأمة،وللدعاة خاصة في الثبات،والتضحية،والصبر بمراحله كلها، وفي أحلك الظروف،وتعاملهم لكل نازلة ولكل حال وأشخاص بما يناسب حتى وصلوا بالدعوة إلى بر الأمان، وسلامتها من الآفات، مع كشف « حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف، فتلك كانت صورتهم الرديئة، ولكن الهول والكرب والشدة، والضيق لم تحول الناس جميعاً إلى هذه الصورة الرديئة. كانت هنالك صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب »(٢).

---

(١)أبو موسى: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ١٥٠ – ١٥١.

(٢)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥ ص ٢٨٤١.

قولـــــه: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ « ولما أخبر تعالى عنهم بهذه الأحوال التي هي غاية في الدناءة، أقبل عليهم إقبالاً يدلهم على تناهي الغضب، فقال مؤكداً محققاً لأجل إنكارهم: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ ﴾ أيها الناس كافة،الذين المنافقون في غمارهم ﴿ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الذي جاء عنه لإنقاذكم من كل ما يسوؤكم، وجلاله من جلاله المحيط بكل جلال، وكماله من كماله العالي على كل كمال، وهو أشرف الخلائق، فرضيتم مخالطة الأجلاف بدل الكون معه»[1] «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته و مجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين»[2] كما أن فيه توطئة للحديث عن المؤمنين في هذا الموقف الذي فيه ثناء بالغ على المؤمنين بعد بيان منزلة النبي ﷺ ومكانته ومن خلال ما جاء من إضافة في قوله: ﴿ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ وما فيها من دافع على الائتساء به ﷺ وكذا وصفه (بالأسوة) التي هي اسمٌ لما يؤتسى به ويقتدى به أي يعمل مثل عمله وحق الأسوة أن يكون هو القدوة واستخدم حرف (في) ليجعل متعلق الائتساء ذات الرسول ﷺ دون وصف خاص، ليشمل الائتساء به في أقواله بالامتثال في الأمر والاجتناب في النهي والائتساء بأفعاله من

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر،ج١٥ص٣٢٢.

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٣٣ – ١٤٤.

الصبر والشجاعة والثبات ووصفها بأنها (حسنة) لأنها في رسول الله ﷺ، وهذا كله تأكيد على البواعث المثيرة على الاقتداء به، وفي المقابل الإثارة على الندم فيمن تخلف عن ذلك(١).

وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وصفٌ للمؤمنين ثابت للذين اتبعوه وسيتبعونه برجاء ربهم والخوف منه، وخُصَّ ذكر اليوم الآخر لأنه ناسب ما لقيه أهل الإيمان في هذه الغزوة وفي غيرها، وما يلقاه كل مؤمن صادق في إيمانه عاملاً به، ومخففاً عنه من الشدائد فلا يدفع شدتها وقسوتها إلا استشعار عظمة اليوم الآخر، والنعيم الأبدي لأوليائه مما يجعله مستمراً في عطائه متصلاً بربه في دوام ذكره مستلهماً منه العون والتثبيت ومفوضاً أمره كله إليه.

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ « ولما ذكر سبحانه حال المنافقين، ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب »(٢) تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي ثنى بها في الآيات في مواجهة الهول وفي لقاء الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة، وثبات موقفهم، واستبشارهم لوعد الله ونصره لأوليائه وتصديقهم لما جاء به رسولهم ﷺ، وكفايته لهم من كل خطر يداهمهم، ويصرفهم عن المنهج الحق، وهو مما

---

(١)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير ج٢١ ص٣٠٢-٣٠٣.

(٢) المراغي، تفسير المراغي،ج٧ص١٤٦.

يبين فضلهم ومكانتهم لثباتهم بخلاف تلك الصورة المظلمة التي فند جملة من صفاتهم وقدمها على صفات المؤمنين والمقتدين بالأسوة ﷺ، مما يظهر جمال التناسق والنظم، لما في التقديم من استشراف النفوس كل الاستشراف لمعرفة صفات أهل الثبات والصمود،لأن النفس التقية تبحث عن أسباب النجاة، فالهلاك طريق سهل، وكما قدم بعضاً من صفاتهم قدم بعضاً من أقوالهم، وقابلها هنا بأقوال من تأسوا برسول الله ﷺ حين نزلت بهم الأحزاب، ورأوا كثرتهم، وتحزبهم على المسلمين، وعلموا أنهم قد ابتلوا بلاءً عظيماً ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ولكن من رسخ الإيمان في قلبه وصدق مع ربه في توجهه إليه وتأسى برسوله ﷺ،لن تجد منه إلا قولاً واحداً،وصورة واحدة،صورة الثبات على المنهج البيّن الواضح، لأن الأساس قد تمت العناية به وغُرست فيه شجرة الإيمان والتسليم لرب العالمين ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، وهو دليل على فرط اليقين، وقوة الثقة ومتانة الإيمان الذي كان من أعظم ثماره الثبات والتصديق التام الذي لا يخامره شك أو ريب في وعد الله الذي جاء على لسان رسوله ﷺ في مواضع كُثر من كتاب الله، ولامسوه في واقع قدوتهم ﷺ، وأدركوا تبعات الطريق ﴿ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ يالها من ثمار يانعة قطفت في زمن الابتلاء والامتحان، وهول الكرب والموقف، فآتت أكلها بصورة من ثبت الإيمان في قلوبهم، فخرج منهم القول الحسن، والفعل الحسن، والنية الصادقة، تصديقٌ بما مضى،وتصديق بما سيقع في المستقبل محقق وقوعه، من اجل بذل مهج النفوس لله رب العالمين، وهذا لا ينافي ما جُبل عليه الإنسان من الخوف والهلع،ولكن الإيمان الذي خلت منه قلوب أهل النفاق، فكان قولهم

﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فياله من فارق بين الفريقين، شتان من لامس الإيمان شغاف قلبه وسكن فيه، وبين من مُلئت قلوبهم مرضاً.

ولما كان هذا قولاً ربما يقصر على اللسان فقط كقول المنافقين أكده لظن المنافقين فقال: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ فاعل الفعل « زادهم » يدل عليه الفعل « رأى » كما قال المفسرون أي وما زادهم ما رأوه من الأحزاب وكثرة عددهم إلا إيمانا وتسليما، أي يعكس حال المنافقين إذ زادهم شكاً في تحقيق الوعد،ونفهم من هذا اللفظ نفي التخاذل والوهن الذي يظن البعض أنه أصاب المؤمنين، كما نفهم أن صدق التوجه إلى الله، وصدق الإيمان يزداد عند الابتلاء قوةً وتماسكاً، وكلما اشتد البلاء كان نصيب اليقين بما عند الله من الزيادة أوفى، وترى في ذكر التسليم بعد الإيمان من باب ذكر الثمرة من الأصل، فالتسليم من ثمار قوة الإيمان الذي يقود إليها، وهو مرتبة علية من مراتب الإيمان، يدفع الإنسان إلى التسليم التام لله تعالى في الظاهر والباطن تسليماً مطلقاً، ورضاً بما يأمر الله به رسوله ﷺ من القتال، وملاقاة العدو والثبات معه(١)، ونرى هذه الآيات تنزل على النبي ﷺ لتُصاغ الشخصية المؤمنة على مراد الله ومراد رسوله ﷺ، لأن ما ينتظرها من تبعات العهد والميثاق ليس أمراً سهلاً، فكم من الخلق في أرض الله من يحتاج إلى من يبث إليهم ذلك النور والهدى، لتستقر فطرهم في التوجه إلى الله، ولا يقع ذلك إلا بمجالدة الباطل، وصراعه صراعاً عنيداً في أشرف الميادين

---

(١) انظر :أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ١٧١-١٧٣.

التي جاءت الآية السابقة بالثناء على ثبات أصحابه، ويقينهم في تحقيق ذلك، ثم أعقبه بالثناء على فريق منهم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ « لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق»(١) وفي قوله: ﴿رِجَالٞ﴾ تنكير زيادة في الثناء والتعظيم لهؤلاء الرجال،وفيه إخفاء لهم لأن الدافع في الأخذ بالعهد لهم هو صدقهم مع الله،والله مطلع على ضمائرهم، فلم يبن من المقصود بالخصوص(٢) ، وإن كان ورد على لسان رسول الله ﷺ في ذكر بعض أصحابه رضي الله عنهم،وقد تم التفصيل في سبب النزول ص(١١٠).

كما نلحظ أنه وصف هؤلاء الرجال بالصدق فيما عاهدوا،جرياً على طريق الأنبياء،في صدقهم مع ربهم وسؤال الله عن ذلك، ولذا ذكر صدقهم بُعيد الإخبار عن الله،وعن ورسوله ﷺ بالصدق مباشرة،إشارة إلى أن بناء النفس يأتي بالترقي في الإذعان،والتسليم لله تعالى،ليصل إلى درجة الصديقية مع ربه سبحانه وتعالى في أغلى ما يملك.

«ولما ذكر الصادقين وكان ربما فهم أن الصدق لا يكون إلا بالقتل قسمهم قسمين،مشيراً إلى خلاف ذلك بقوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ أي نذره في

(١)ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،ج١١ص١٣٤

(٢)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ صـ٢٠٧.

معاهدته أنه ينصر رسول الله ﷺ ويموت دونه، وفرغ من ذلك وخرج من عهدته بأن قُتل شهيداً فلم يبق عليه نذر ﴿وَمِنْهُم﴾ أي الصادقين ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء النحب، إما بالنصرة، أو الموت على الشهادة، أو مطلق المتابعة الكاملة »[1] إن هذا التقسيم،ووجازة الألفاظ تبرز لنا حسن التناسق والتناسب في الآية.

وقوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ معطوف على قوله:﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ «وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب: جعل المنافقون، كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لأنّ كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما»[2] وهي خاتمة مؤكدة للتعريض بحال من نقض العهد وولوا الأدبار من أهل النفاق، بل أهل الإيمان ثبتوا على عهد الله عند اشتداد الكرب وصبروا حتى الموت، ولذا ذكر جزاء الفريقين، وشتان بين جزاء المؤمنين الصادقين وجزاء المنافقين الكاذبين، والذي عبر عنه في الآية بأن لهم عذاب وهي بشارة عاجلة جزاء صنيعهم، فقال:﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ «أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ص٢٧-٢٨-٣٢٩ بتصرف.

(٢) الزمخشري، الكشاف،ج٥ص٣٢٠.

بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم »[١]

وترى في الآية بعد عرض صفات الفريقين، وأقوالهم فيما ابتلاهم الله به أن الفريقين لا يستويان،فالذين صدّقوا ما جاء به الرسول ﷺ،وأتبعوه،واقتدوا به سيجزيهم الله على صدقهم حسن الجزاء،ومن بدل ونافق فله العذاب الأليم.

« وناسب ذلك مجيء لام التعليل يتنازعه من التعلق كل من ﴿ صَدَقُواْ ﴾ و ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ ﴾ أي: صدق المؤمنون عهدهم، وبدله المنافقون ليجزي الله الصادقين ويعذب المنافقين، ولام التعليل بالنسبة إلى فعل ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ مستعمل في حقيقة معناه، وبالنسبة إلى فعل ﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ مستعار لمعنى فاء العاقبة تشبيها لعاقبة فعلهم بالعلة الباعثة على ما اجترحوه من التبديل والخيس بالعهد تشبيها يفيد عنايتهم بما فعلوه من التبديل، حتى كأنهم ساعون إلى طلب ما حق عليهم من العذاب على فعلهم، أو تشبيها إياهم في عنادهم، وكيدهم بالعالم بالجزاء الساعي إليه وإن كان فيه هلاكه»[٢].

ولم يذكر القرآن ما يجزي الله به الصادقين،إشارة إلى أنه جزاء معروف،وهو الفضل والإحسان من الكريم المنان، فهو جزاء لا يحتاج إلى بيان لأن صفة الصديقية صفة خاصة بالأنبياء وأتباعهم،وهي صفة ذات خصوصية،

---

(١) ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،ج١١ص١٣٨

(٢)ابن عاشور، التحليل والتنوير، ج٢٢ص٣٠٨-٣٠٩.

لا تنطبق على أي أحد،ولو تسنم إليها بكل ما يملك، فلا ينالها إلا من صدق ظاهره،وباطنه.

قوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

« واستشكل بأن النفاق أقبح الكفر كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ وقد أخبر عز وجل أنه سبحانه يعذب الكفرة مطلقا حتما لا محالة فكيف هذا التعليق وأجيب بأنه لا إشكال فإن الله جل جلاله لا يجب عليه شيء والتعليق لذلك، فهو جل شأنه إن شاء عذب المنافق، وإن شاء رحمه لكن المتحقق أنه تبارك وتعالى شاء تعذيبه ولم يشأ رحمته،وقال ابن عطية: «تعذيب المنافقين ثمرة إقامتهم على النفاق، وموتهم عليه، والتوبة موازنة لتلك الإقامة وثمرتها تركهم بلا عذاب، فهناك أمران: إقامة على النفاق وتوبة منه وعنهما ثمرتان تعذيب ورحمة فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين وواحدة من هاتين ودل ما ذكر على ما ترك ذكره ويدلك على أن معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ﴾ ليديم على النفاق قوله سبحانه: ﴿إِن شَآءَ ﴾ ومعادلته بالتوبة وحرف «أو» أنتهى ، وأراد بذلك حل الإشكال وكأن ما ذكره يؤل إلى أن التقدير ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء، فيعذبهم، أو يتوب عليهم، فيرحمهم، فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو التعذيب وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المسبب و هو الرحمة والغفران وذلك من قبيل الإحتباك» [1]

---

(١) الألوسي،شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني،دار أحياء التراث العربي،ج٢١ص٢٣٠.

" وتعليق التعذيب على المشيئة تنبيه لهم بسعة رحمة الله وانه لا يقطع رجاءهم في السعي إلى مغفرة ما أتوه بأن يتوبوا فيتوب الله عليهم فلما قابل تعذيبه إياهم بتوبته عليهم تعين أن التعذيب باق عند عدم توبتهم لقوله في الآية الأخرى {إِنَّ اللهَّ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء: ٤٨]. والتوبة هنا هي التوبة من النفاق، أي هي إخلاص الإيمان، وقد تاب كثير من المنافقين بعد ذلك، منهم معتب بن قشير." (١)

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لقد جاء ختام الآية متناسقاً لما ورد فيها،حيث علل الجزاء والتعذيب كليهما على التوزيع، فهو غفورٌ للمذنب متى ما تاب وأناب، رحيم بالمحسن أن يجازيه على قدر نصبه.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ يختم بهذه الآية الحديث عن هذه الغزوة العظيمة بجزاء الصادقين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ فكافأهم بأن رد عنهم كيد الأعداء من المنافقين المتذبذبين في مواقفهم،لما يحملوا من كفر بالله عز وجل،ومرض في قلوبهم،« والإلتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة »(٢) والآية عطف على جملة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ فرد الله الذين كفروا،ولم يقل الأحزاب ليسمهم بالكفر والجحود والنكران، قوله ﴿ بِغَيْظِهِمْ ﴾ الغيظ:

---

(١) التحرير والتنوير، ج٢١ ص ٣٠٩.

(٢) الألوسي، ج٢١ص٢٣٢.

الخنق والغضب وهم محصلهم من هذه الغزوة التي كانوا يمنُّون أنفسهم بالنصر والغنيمة، والباء في بغيظهم أعطت تصويراً وتجسيماً للغيب كأنه معها، وقوله: ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ تأكيد لما وقع لأحزاب الكفر من نكال وخزي، ﴿وَكَفَى﴾ بمعنى أغنى المؤمنين من كلفة القتال بأن صرف الأحزاب بدون قتال،ونلحظ مقابلة بين﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾ وقوله: ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾فالذين كفروا ردوهم وحقدوا عليهم وقوله:﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ تذييل لجملة ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بحوله وقوته(١) ، ردهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده ونصر أولياءه، ولعظم الأمر وشدته أتبعه ما يدل على أنه عنده يسير، فهو (القوي) سبحانه الذي لا يعجزه شيء (العزيز) الذي يغلب كل شيء سبحانه، «أخبر سبحانه في فاصلة الآية بأنه قوى عزيز،ليدل على أن تلك الريح التي أصابت المشركين ليست اتفاقاً، وليست هي من أنواع السحر، بل هي من إرساله على أعدائه، كعادته، وسنّته، في أمثاله من نصره لعباده المؤمنين، مرة بالقتال كيوم بدر، ومرة بالريح كيوم الأحزاب، ومرة بالرعب كبني النضير، وأن النصر من عند الله لا من عند غيره »(٢) .

وقوله:﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ ولما أتم أمر الأحزاب أتبعه الذين ألبوهم

---

(١) انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢١ صـ٣١٠-٣١١.

(٢)ابن القيم، التفسير القيم لابن القيم، جمعه محمد ونيس الندوي، لجنة التراث الغربي، بيروت، ص٣١٠.

على قتال النبي ﷺ والمؤمنين وكانوا سبباً في إتيانهم ونقض العهد، وتحزبوا معهم على المؤمنين، وهم يهود بني قريظة، وبني النضير، فلما صرف الله الأحزاب أمر الله رسوله ﷺ أن يغزو قريظة، وكانت منازلهم وحصونهم بالجنوب الشرقي من المدينة[١]«عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم، قال: « **فإلى أين** »؟ قال ها هنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي صلى الله عليه و سلم إليهم » [٢] .

﴿ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ تشير إلى سبب العقوبة وهي مظاهرة الأعداء ونقض العهد، وقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هم بنو قريظة ومن دخل معهم في حصنهم « وقوله: ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعني من أصولهم، كذا قال مجاهد وعكرمة، وعطاء والسدي، وقتادة، وغيرهم، ومنها سميت صياصي البقر، وهي قرونها لأنها أعلى شيء » [٣] . وقوله: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ قالوا أي ملأ قلوبهم رعباً وخوفاً وفزعاً «ولم ترد في القرآن إلا بشأن اليهود، واحدة في شأن بني النضير، وهي قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ [٤] ، وواحدة في شأن

---

(١)انظر :البقاعي، نظم الدرر، ج١٥ صـ٣٢-٣٣٣.

(٢) البخاري كتاب المغازي – باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظه برقم ٤١١٧ج٣ صـ٤٩ .

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ ص١٤٢

(٤) سورة الحشر، آية ٢.

بني قريظة ، وهي التي معنا هنا » [1] ، ونجد في التعبير قوة التصوير ودقة الكشف ، واللفظ مقابلةً لما أوقعه المسلمون من خوف حتى راموا قتلهم ، فانعكس عليهم الحال، وأرادوا استئصال المسلمين فاستأصلوهم، إضافة إلى ما سيلقونه في الآخرة .

وقوله: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ تصوير إلى ما انتهى عليه أمر القوم، والمضارع هنا يحضّر هذه الصورة التي تشفي غيظ قلوب المؤمنين من هؤلاء الخونة الغادرين، ويؤكد نعمته على من استسلم لربه وانقاد لأمره .

وقد ذكر البقاعي ملحظاً جميلاً في نصب الفريق وتقديمه فقال: « ولما ذكر ما أذلهم به، ذكر ما تأثر عنه مقسماً له فقال: ﴿ فَرِيقًا ﴾ فذكر بلفظ الفرقة ونصبه ليدل بادئ ذي بدء على أنهم طوع لأيدي الفاعلين »وفي تقديم فريق الفعل معنى آخر، فالمقتولون هم الرجال المحاربون، وقد نظر البقاعي إلى الآية، فوجد القوم توزعوا إلى شقين بين القتل، والأسر، فقال: « وقدم أعظم الأثرين الناشئين عن الرعب أولاً عن الأثر الآخر ليصير الأثران المحبوبان محقوقين بما يدل على الفرقة فقال: ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم الذراري والنساء، ولعل الفريق هنا ليفيد التخيير في أمرهم، وقدم الرجال لتحتم القتل فيهم » [2] ولما ذكر الناطق بقسميه، ذكر الصامت فقال: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ فقد ورث المسلمون ما كان للقوم من

---

(١)أبو موسى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص٢١٨.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ج١٩ ص٣٣ -٢٣٤.

أرض وديار وأموال، وهذا فضل من الله على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسوله ﷺ واتبعوا ما أمر الله به، فكانت النتيجة عظيمة في الدنيا بهذا النص، وما أعطاهم ومنّ به عليهم من إرث لديارهم، وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ «قيل خيبر، وقيل مكة رواه مالك عن زيد بن أسلم، وقيل: فارس والروم، وقال ابن جرير: يجوز يكون الجميع مراداً »[1].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ تطمين لقلوب المسلمين على مستقبل الإسلام، والذي وعدهم الله بأن ينصره ويعز أهله، ويمكن لهم في الأرض، ولما كانت غزوة الأحزاب، وما أصاب المسلمون من كرب وشدة جاءت في الآيات بأبلغ الأوصاف، والتي تعتبر من أعظم المحن، والابتلاءات التي وقعت لهم، ثم كانت العاقبة حميدة وعظيمة في إذلال الكفر وأحزابه، وردهم خائبين وخائفين وخاسرين، والآخرين أورث الله ديارهم وأموالهم للمسلمين وما وقع لهم من جزاء عاجل دنيوي ناسب الختام لهذا الهول العظيم، وتلك النتائج الباهرة، التي تعجز عنها الجيوش، المتبخترة المستكثرة، والملوك المتجبرة المستكبرة، بالإيحاء للمؤمنين الذين استقر عندهم قدرة الله وقهره لأعداء دينه، وأعداء رسوله ﷺ وأوليائه، وهذا من باب التوكيد والوعد بالنصر، وهو عود على بدء في ما قدم من أنه كاف من توكل عليه، فهو القوي العزيز فكفى به وكيلاً، وما غزوة الأحزاب، ورد قوى الكفر إلا دليل واقعي يجعل من هؤلاء

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ ص ١٤٣.

القلة من المسلمين كثرة،ومن ضعفهم قوة، تنهار أمامها أي قوة عظمى تعادي دين الله وحزبه، متى ما قام أهل الدين بنشره وتطبيقه واتباع نهج رسوله ﷺ الذي كان قدوة وأسوة في أقواله وأفعاله فكتب الله له هذا النصر العظيم لاستسلامه لربه وإذعانه لشرعه، وقيامه بما أخذ الله عليه من عهود ومواثيق، فما أكرمه من إله، وما أجله من رب حكيم عليم، لم يترك عباده سدى ولا هملا، بل بين سبحانه « أن من أقبل إلى هذا الدين فإنما نفع نفسه والفضل لصاحب الدين عليه، ومن أعرض عنه فإنما وبال إعراضه على نفسه، ولا ضرر على الدين بإعراض هذا المعرض، كما أنه لا نفع لهم بإقبال هذا المقبل، وكان قد قضى سبحانه أن من قطع إليه حماه في الدنيا إكراماً له،ورفعاً لمنزلته عن خسيسها إلى نفيس ما عنده، لأن كل أمرها إلى زوال وتلاشي واضمحلال، ولا يعلق همته بذلك إلا قاصر ضال، فأخذ سبحانه بأمر أحب الخلق إليه، وأعزهم منزلة لديه، المعلوم امتثاله للأمر بالتوكل والإعراض عن كل ما سواه، سبحانه، وأنه لا يختار من الدنيا غير الكفاف والقناعة والعفاف، بتخيير ألصق الناس به، تأديباً لكافة الناس، فقال على طريق الاستنتاج مما تقدم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ذاكراً صفة رفعته واتصاله به سبحانه والإعلام بأسرار القلوب، وخفايا الغيوب، المقتضية لأن يفرغ فكره لما يتلقاه من المعارف ولا يعاق عن شيء من ذلك بشيء من أذى» [١].

---

(١)البقاعي، نظم الدرر ج١٩ ص ٢٣٦.

وقد سبق الإشارة إلى سبب نزول الآيات وما حدث من أزواجه ﷺ ورضي الله عنهنّ بعد نصره ﷺ، ورد الأحزاب عنه، وفتح عليه بني النضير، وبني قريظة وظنهنّ أنه اختص بنفائسهم، وذخائرهم فقعدن يطلبنه توسعة الحال.

فجاء النداء النبي ﷺ تنبيهاً على أن ما سيذكر بعد النداء له مزية اختصاص به، وهو غرض تحديد علاقة أزواجه معه ﷺ علاقة تناسب مرتبة النبوة وتحقق حق أزواجه بعد حق الله تعالى الذي وجهه إليه بداية السورة[1] في قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ والأزواج المعنيات في هذه الآية أزواجه التسع « قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة، وأم حبيب، وسودة وأم سلمة رضي الله عنهنّ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن جميعاً »[2].

قوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ أي اخترن لأنفسكن أحد الطريقين، الأول: أن تكن ممن يحببن الدنيا ولذاتها والتمتع بزخرفها فليس لَكُنَّ عندي مقام، إذ ليس عندي شيء منها،والثاني:أن تخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فعرض عليهنّ ﷺ ذلك، وبدأ بعائشة، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ثم تابعها بقية أزواج النبي ﷺ « وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار

---

(١)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١ صـ٣١٥.

(٢)ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج١١ ص ١٤٩.

الدنيا إشارة إلى أن النبي ﷺ غير ملتفت إلى جانبهن غاية الالتفات كيف، وهو مشغول بعبادة ربه،ومنها قوله ﷺ: ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا فإن السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة، فعلم أن النبي ﷺ ما كان يتأثر من اختيارهنّ فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه،ومنها قوله:﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ ﴾ إعلاماً لهنّ بأن في اختيار النبي عليه الصلاة السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة، وهذه الثلاثة هي الدين »[1] ، وتأمل في التعبير في قوله: ﴿ تُرِدْنَ ﴾ الإرادة معناها أن يتجه بالنفس كلها إلى الحياة الدنيا ومتاعها، ففيه تزهيد بهذه الحياة، التي إذا انصرف إليها هم الإنسان أصبح مسيراً لها في أي وادٍ شاءت، والأسلوب الأمثل الذي نجده في كتاب الله عز وجل كثيراً لتربية النفس البشرية على الارتقاء بها، وهو ما يلحظ في هذه السورة من بدايتها، في تصوير الأمور على حقيقتها، ومنها هذه الدنيا، فالقرآن لا يزهده فيها بل يأمره بالمشي في مناكبها، وإخراج كل طيب من الرزق الذي به قوامه، وأن يعمرها بصالح القول والعمل، وأن يَعُدَّ فيها العدة لإقامة دين الله ونصره لقهر أعدائه، وليحذر من الانصراف إليها بهمه وإرادته، فتكون هي مبتغاه، وفي لفظ ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ أي أقبلن، ويفيد إقبالاً فيه عزة وسمو وارتفاع، إقبال بمحض الإرادة والاختيار لا إرغام فيها ولا تهديد، وهذا من أعظم ما يبين سماحة الإسلام، وإعطاء المرأة حقها حتى في حال المعيشة، والسكنى مع الزوج، وما التوجيه للنبي ﷺ إلا

---

(١)الرازي، التفسير الكبير،ج٧ص١٦٥

ترجمة حية لحياة النبي ﷺ وعلاقته بزوجاته رضي الله عنهن، في بيت النبوة الذي كان وسيبقى منارة للإسلام والمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وفي قوله: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ جواب الأمر أي أعطيكن وهي في حقه ﷺ واجبة لأمر الله عز وجل بذلك. والمتعة متعة الطلاق[1]:وهي ما يتمتع به من دراهم أو طعام أو أثاث أو لباس أو غير ذلك تعطى للمطلقة جبراً لخاطرها وتطييباً لقلبها، وقوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي «أطلقكن على ما أذن الله به»[2] ، وقدم المتعة على التسريح مع أن الأصل أنها بعده للتأكيد عليها والعناية بها، ولئلا يتساهل فيها، لما فيها من جبر خاطر الزوجة.

وقوله:﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله ﷺ وثواب الدار الآخرة، فعليكن بالطاعة لله ورسوله ﷺ، وترى هنا مقابلة إرادة الله، ورسوله ﷺ، والدار الآخرة بإرادة الحياة الدنيا وزينتها، فإن المقابلة تقتضي إرادتين يجمع بينهما، وقوله:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ بين الجزاء لمن أراد الله ورسوله والدار الآخرة مع عدم ذكر اسم معين، وإنما وعد على الوصف، والإحسان لفظ يشمل العمل النافع بعمومه وهنا ذكر الجزاء للتحفيز على التوجه بالإرادة، وتسخيرها لمراد الله ومراد رسوله ﷺ وفي الأولى لم يذكر وعيداً، وذلك للحفاظ على حرية الاختيار.

---

(١)انظر :البغوي-تفسير البغوي ج٦ صـ٣٤٥.

(٢)ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ صـ٨٤.

قولــــــه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾

«لما اخترن اللهّ ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهنّ، ومضاعفة وزرهنّ وإثمهنّ، لو جرى منهنّ ليزداد،حذرهنّ، وشكرهنّ اللهّ تعالى، فجعل من أتى منهنّ بفاحشة ظاهرة، لها العذاب ضعفين»[1]

« تولى الله خطابهنّ بعد أن أمر رسوله بتخييرهِنّ فخيرهُنّ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة، فخاطبهنّ ربُّهُنّ خطاباً لأنهنّ أصبحْنَ على عهد مع الله تعالى أن يؤتِيَهُنّ أجراً عظيماً، وقد سمّاه عمر عهداً فإنه كان كثيراً ما يقرأ في صلاة الصبح سورة الأحزاب، فإذا بلغ هذه الآية رَفَعَ بها صوته فقيلَ له في ذلك، فقال: «أُذكِّرهُنّ العهدَ »، ولما كان الأجر الموعود منوطاً بالإحسان أُريد تحذيرهن من المعاصي بلوغاً بهنّ إلى مرتبة الملكية مبالغة في التحذير إذ جعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهنّ عذاباً مضاعفاً»[2]

ففي الآية وعظ لنساء النبي ﷺ اللاتي استبان اختيارهنّ لله ولرسوله وللدار الآخرة أن يخبرهنّ بأحكام دون غيرهنّ من النساء ﴿ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ﴾.

"التحرير والتنوير (٢١/ ٢٣٧)

---

(١) السعدي، تفسير كلام المنان ج ص٢١٦

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢١ ص ٣١٨

"والفاحشة: المعصية قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأعراف: ٣٣] وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه."(١) «من يزن منكنّ الزنى المعروف الذي أوجب الله عليه الحد يضاعف لها العذاب على فجورها في الآخرة ضعفين على فجور أزواج الناس غيرهم »(٢)

«وإنما ضوعف عذابهنّ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ وأقبح؛ لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وزيادة النعمة على العاصي من المعصي، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ولا على أحد منهنّ مثل ما لله عليهن من النعمة، والجزاء يتبع الفعل، وكون الجزاء عقاباً يتبع كون الفعل قبيحاً، فمتى ازداد قبحاً، ازداد عقابه شدّة،»(٣).

قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تضعيف العذاب عليهنّ سهلاً لا يمنعه سبحانه عنه شيء مهما كانت قرابته للنبي ﷺ(٤).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ هو مقابل قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ فهذا مقام في

---

(١) المصدر السابق ج٢١ ص ٣١٩

(٢) ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ ص٩٠

(٣)الزمخشري، الكشاف،ج٥ص ٣٢٣.

(٤)انظر :ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ صـ٩١.

الإحسان وذاك مقام في الإساءة، والقنوت الطاعة « فعن قتادة: أي من يطع منكنّ لله ورسوله» [١] وفي عطف الرسول ﷺ على الله سبحانه وتعالى، تكريم وتعظيم للرسول ﷺ بجعل طاعته غير منفكة عن طاعة الله عز وجل.

وقوله: ﴿ نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ ﴾ أي نعط الأجر مضاعف كما تقدم في قوله: ﴿ ضِعۡفَيۡنِ ﴾ وأضاف الأجر للضمير إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر العظيم وهو مناسب لمقام أزواج النبي ﷺ ومضاعفة الأجر لهنّ على الطاعات كرامة لهنّ ولرفع قدرهنّ[٢].

وقوله:﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴾ أي هيئنا لها بسبب قناعتها بالحياة مع النبي ﷺ، وتخليها عن الدنيا، والآيات مليئة بالمقابلة الجميلة والتناسق البديع المناسب للواقع الذي يعيشه النبي ﷺ، وإليك ما ذكر في ذلك مما استحسنته في التأمل والتدبر ورأيت الاختصار عليه « وانظر إلى المقابلة الحسنة الواضحة بين قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ ،وقوله: ﴿ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴾.

انظر إلى سياق الوعد،وكيف تزاحمت الكلمات الشديدة،والمخيفة في الآية الأولى، فجاءت فيها: الفاحشة المبينة، ومالها من وقع بشع، وقوله:

---

(١)نفس المصدر، صـ٩٢.

(٢)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ صـ٥.

﴿ٱلۡعَذَابُ﴾، وما وراءه، من إيجاع، وتنكيل، وإهانة، وقوله: (يضاعف ضعفين) وما يفيده من تراكب ألوان العذاب،ومضاعفاتها، والتي لا تتناهى وما وراء ذلك من غضب ممدود، ثم انظر إلى الكلمات الوضيئة في سياق الوعد،تجد القنوت، وما وراء ذلك من شفافية باصرة وضّاحة، لله ولرسوله، وما وراء ذلك من سكينة القلب، وقرار النفس، ثم تجد العمل الصالح، والرزق الكريم،وكلها كلمات تبعث في النفس معاني الرضا، والطمأنينة، وتملأ القلب شعوراً بالخير والأمل،ثم انظر الفرق بين قوله في جزاء الفاحشة: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ ببناء الفعل للمجهول،وإشارة وراء هذا البناء أن العذاب يسقط على هذه النفس من حيث لا تدري، وكأنها تُرجم به من وراء الغيب، ثم قال في جزاء القنوت،والعمل الصالح ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾. فأسند الإتيان إلى ذاته الشريفة، ليكون إتياناً جزلاً، وعطاءً وافراً، وماذا تقول في عطاء تمتد به يد الوجود كله من عطائها، وانظر إلى قوله في آية الوعيد: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾، وكيف كانت هذه الجملة كأنها دمدمة في هذا الوعيد، فمضاعفة العذاب، والنكال،يسير على المنتقم العزيز، ويقول البقاعي في هذه الجملة: «وهي عبارة ناظرة إلى مقام الجلال، والكبرياء، والعظمة » ثم قابل هذا في الوعد ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾، وانظر إلى هذا الرزق الكريم أعده صاحب الجلال والكبرياء والعظمة والسلطان، أعدّه بذاته وجلاله، وتأمل ما وراء ذلك من التقدير والتكريم،ثم قل:لماذا لم يقل: يضاعف لها الثواب ضعفين ؟ كما قال هناك ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ لتعلم أن وراء ذلك رمزاً ذكياً، فإن مضاعفة الثواب – كما قال الألوسي – ليست خاصة بأهل بيت النبوة، وذلك بخلاف مضاعفة العقاب فإنها خاصة بهم، فلو قال:يضاعف

لها الثواب ضعفين،لم يكن ذلك ظاهراً في التكريم، لأن الله يضاعف ثواب الصالحين جميعاً، ولهذا جاء قوله: ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾، للدلالة على هذه الخصوصية،وفيه أيضاً إشارة إلى أن الله يعطي الأجر الوفير مرة، ثم يستأنف العطاء الوفير مرة ثانية، وهذا دال على التكريم، وكأن ما يأخذن من هذا الوفر ليس عطاءً،وإنما هو أجر مستحق لهنّ، على طيب ما قدّمن من الخير »(١) «ثم يبين لأمهات المؤمنين اختصاصهنّ بما ليس لغيرهن من النساء؛ ويقرر واجباتهن في معاملة الناس، وواجبهن في عبادة الله، وواجبهن في بيوتهن؛ ويحدثهن عن رعاية الله الخاصة لهذا البيت الكريم، وحياطته وصيانته من الرجس؛ ويذكرهن بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، مما يلقي عليهن تبعات خاصة، ويفردهن بين نساء العالمين»(٢)

فقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلۡنَ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ﴾ في هذه الآية يكشف عن السبب الذي جعل عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن يختلف عن غيرهن، وذلك لأنهن لسن مثل غيرهن من النساء فلهن من الفضل والكرامة العالية ما نلحظه من إضافتهن إلى النبي ﷺ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ففيه تذكير لهن بأنهن أزواج لخير البشر ﷺ، وفي بيت

---

(١) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ٢٧٠-٢٧٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥ ص ٢٨٥٧.

يتنزل فيه الآيات، ويشع فيه النور، فليتنبهن إلى ذلك، ويعلمن أنهن لسن كغيرهن من النساء، وأن لتلك المنزلة تبعات، ولها كرامات وفضائل.

ولما كان المعنى: بل أنتنَّ أعلى النساء: ذكر شرط ذلك فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ أي: جعلتن بينكن وبين عقاب الله وقاية، ثم شرع في بعض التوجيهات، والتي منها ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ « قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي دغل »[1] « فيطمع الذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه؛ إما شاك في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخف بحدود الله، وإما متهاون بإتيان الفواحش»[2] ومن التناسق في الآية أنه « لما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء في رخامة الصوت أمرهن بضده فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي يعرف أنه بعيد عن محل الطمع، ولما قدم إليهن في القول وقدمه لعمومه أتبعه الفعل فقال: ﴿وَقَرْنَ﴾ ولما أمرهن بالقرار نهاهن عن ضده مبشعاً له فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي تظاهرن من البيوت لغير حاجة »[3].

قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الواو

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ ص١٥٠.

(٢) ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ ص٩٥.

(٣)البقاعي: نظم الدرر، ج ١٥ ص ٤٤-٣٤٥.

عاطفة و (لا) ناهية و (تبرجن) أصله تتبرجن والتبرج: التكلف والتعالي لإظهار وكشف ما يجب إخفاؤه أمام الرجال وقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ المراد بالجاهلية الأولى تعددت الأقوال فيها فقيل ما بين آدم ونوح وقيل ما بين عيسى وموسى وقيل ما بين عيسى و محمد وقيل غير ذلك(١).

ولكن قال: «مجاهد -رحمه الله-: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية». وقال قتادة: إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل بن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج(٢)، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ «نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص»(٣) فالمقصود أن التبرج فعل الجاهلية الأولى بجميع صوره التي عالجها القرآن الكريم ليحذر المجتمع منه، وليرتقي به عن عوامل الفتنة وأثرها، ليعيش المجتمع وقد شع الطهر في جنباته، واستقامت

(١) انظر :ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ صـ٩٩-١٠٠ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج١١ صـ١٥٢.

(٢) انظر :ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ صـ١٥١-١٥٢.

(٣) المصدر السابق، ج١١ ص ١٥١-١٥٢.

أخلاقه وسلوكه، لذا وجه القرآن نساء النبي ﷺ إلى تلك الأسباب التي تربط القلوب بالله، فلابد من صلة بالله يأتي منها المدد، صلة بالله ترتقي بها النفوس عن وحل الأخلاق الهابطة إلى أعلى القيم وأسمقها لتكون لها الريادة في قيادة البشرية، فقال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فبها يقع التطهير للنفوس، وتنقيتها من شوائب الشهوة والهوى، وإرشاد إلى ما يستعان به على إقامة دين الله، والمحافظة على حدوده.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ تعليل لما أمرن به نساء النبي ﷺ رضي الله عنهن بما نهين عنه لأنه أراد سبحانه أن يخلي عنكن النقائص، ويحليكن بالكمالات، وهو ما يتناسب مع مقامهن، ويتلاقى مع انتسابهن إلى النبي ﷺ، لذا كانت الآية تكريم من الله لأهل بيت نبيه الأطهار، وترى في التعبير ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ المراد من التطهير وهو إذهاب الرجس وأن الله سبحانه أقبل على هذا البيت إقبالاً كاملاً وهذا زيادة في التكريم ومبالغة في إظهار عظيم العناية والرعاية لبيت النبوة، وما هي إلا صورة من صور عناية الله لنبيه ﷺ من أول التوجيهات في هذه السورة إلى آخرها.

﴿ٱلرِّجْسَ﴾ « أراد الإثم الذي نهى الله النساء عنه، قاله مقاتل. وقال ابن عباس: يعني: عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضى، وقال قتادة: يعني: السوء. وقال مجاهد: الرجس الشك»[1] وناسب ختامها بالتأكيد على طهر بيت أهل النبي

---

(١) انظر: البغوي: تفسير البغوي ج٦ ص٣٥٠.

ﷺ فقال: ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ أي تطهير الخالص، لا تعلق به شائبة من دنس أو رجس، ومن التناسق أنه لما استعار للمعصية الرجس استعار للطاعة الطهر ترغيباً لأهل القلوب السليمة، والعقول المستقيمة في الطاعة، وتنفيراً لهم عن المعصية.

وقوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ « لما ضمِن الله لهن العظمة أمرهن بالتحلي بأسبابها والتملّي من آثارها والتزود من علم الشريعة بدراسة القرآن ليجمع ذلك اهتداءَهن في أنفسهن ازدياداً في الكمال والعلم، وإرشادَهن الأمة إلى ما فيه صلاح لها من علم النبي ﷺ»[1] المراد ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هي القرآن الكريم وعطف عليه ﴿ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ هي السنة المطهرة فبهما يزال الضباب الذي يملأ العقول فتختلط الأمور، ففيه إشعار بالسلامة من الزيغ، واتباع الأهواء عند التمسك بالكتاب والسنة فبهما النجاة من كل فتنة عملاً ودعوة إليها وكل ذلك يجمعه قوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ وأتى بلفظ ﴿ مَا يُتْلَىٰ ﴾ مما يشعر بتجدد تلاوة القرآن لأنه ينزل في ﴿ بُيُوتِكُنَّ ﴾ وهكذا كان ديدنه ﷺ على تلاوة دائمة لآيات الله آناء الليل وأطراف النهار في أي بيت من بيوت نسائه. «من الكتابِ الجامعِ بين كونِه آياتِ الله البينةِ الدَّالَّةِ على صدقِ النُّبوةِ بنظمِه المُعجزِ وكونِه حكمةً منطويةً على فُنونِ العلومِ والشَّرائعِ وهو تذكيرٌ بما أنعم عليهنَّ حيثُ جعلهنَّ أهلَ بيتِ النُّبوةِ ومهبطَ

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ج٢٢ ص(١٨).

الوحيِ وما شاهدْن من بُرَحاءِ الوحيِ ممَّا يُوجب قوةَ الإيمانِ والحرصَ على الطَّاعةِ حثًّا على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفنه، والتعرضُ للتِّلاوةِ في البيوتِ وإن كان النزول فيها مع أنَّه الأنسبُ لكونِها مهبطَ الوحيِ لعمومِها لجميعِ الآياتِ ووقوعِها في كلِّ البيوتِ وتكرُّرِها الموجبِ لتمكنهنَّ من الذِّكرِ والتَّذكيرِ بخلافِ النزولِ، وعدمُ تعيينِ التَّالي لتعمَّ تلاوةَ جبريلَ وتلاوةَ النبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ وتلاوتهنَّ وتلاوةَ غيرهنَّ تعليماً وتعلُّماً»[١]

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تناسق لما تحدثت به الآيات من ملاينة في القول والتبرج وما يتعلق بالسلوك والآثار، فالختام بهذين الوصفين العظيمين من أسماء الله الحسنى يشير إلى ما ينبغي أن يصحب الذاكر لآيات الله وسنة الرسول ﷺ من يقظة الوجدان، وخلوه من الأشغال لاستجماع القلب على ما يلقى إليه من آيات الله والحكمة فذلك هو الذي يعين على فهم كلام الله والعمل بما جاء فيه، كما يشعر الختام بمراقبة خواطر النفس، فاللطيف الخبير لا يعزب عنه ما تخفيه السرائر، وفيه الاقتضاء بإسداء النفع إلى عباده بما هو صلاح لهم، وإجراء الخير بواسطتهن، مع ما فيه من تيسير الله لنساء النبي ﷺ في معاشرتهن له وسماع ما يتلى عليهن، وتوجيهه لهن بتلقي الخير وإبلاغه كل ذلك من اللطف.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم في مزايا الكتاب الكريم،ج٥ص ٣٣٦

﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو موسى في بيان صلة الآية وتناسقها مع ما سبقها « الآية الكريمة تتصل بما قبلها اتصالاً واضحاً وقد قلنا إن الغرض الأهم هناك تنقية الأمة المسلمة، وحفظ المجتمع الإنساني عامة، من وباء الانحراف في سلوك النساء، وإن الآيات السابقة ترسم طريق الحياة الطاهرة، وتذكر المؤمنات بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد أردف القرآن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ فذكر النماذج والأوصاف، التي تعمر بها الحياة، والتي تكوّن المجتمع الإنساني الراقي في صورته النظيفة الطاهرة، وقد انتقل فيها أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين هناك، حيث قلنا إن الأمر يتجه إلى نساء الأرض جميعاً وراء هذه المخاطبة وبينا أهميتها في أداء المعنى أقول: انتقل أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين إلى ذكر المسلمين والمسلمات، وفي هذه إشارة إلى أن المستجيبات لأمر الله يدخلن جميعاً في نعمته، ورحمته، وأنه سبحانه قد أعد لهن أجراً عظيماً، يستوي في ذلك اللائي عشن في بيت النبوة، مع غيرهن من بنات حواء، في هذا الانتقال تأكيد لمعنى إلحاق المؤمنات في المنزلة بأمهات المؤمنين، وإعلاء درج العابدات، والسمو بهن، ولا غرابة في ذلك فإن بعض الصالحين يكونون في معية الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وهذا معنى جليل في الإسلام حيث يفتح باب الله لكل من أخلص للحق، ولرسالة الخير، فتتساوى المناكب هناك، وتتزاحم الأقدار، وأعتقد أن هذا ليس وصلاً غامضاً، وإنما هو وشيجة بينة ولحمة ظاهرة »[1]

كما في الآية تسوية بين الرجل والمرأة في مقام التكليف والجزاء، وهذا ما يجعل للمرأة مكانتها الكاملة مع الرجل، مما يبرز عناية الإسلام بها، وتوجيهها إلى ما يصلح حياتها من خلال إعطائها حقوقها كاملة فيما يوافق فطرتها ويناسب جبلتها.

والآية الكريمة نزلت في حادثة خاصة، استجابة لما جاشت نفوس المؤمنات بما صح عن النبي ﷺ عند سؤالهن أن الرجال يذكرون ولا يذكر النساء وسبق بيانه ص(١١٦).

بدأت الآية بالوصف الأول والأعم والأشمل، والأشهر من أوصاف هذا الدين الذي يقع به التمايز بين المسلم والكافر لاسيما والآية تنزل في جو عكره أهل النفاق بادعاءاتهم الكاذبة لتؤكد الوصف الحقيقي لأهله ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ أي من اتصف بهذا المعنى المعروف شرعاً المحتوي على أركانه الخمسة «ولما كان الإسلام مع كونه أكمل الأوصاف، وأعلاها يمكن أن يكون في الظاهر فقط، أتبعه المحقق له وهو إسلام الباطن بالتصديق التام بغاية

---

(١) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٣٠٢-٣٠٣.

الإذعان، فقال عاطفاً له ولما بعده من أوصاف التي يمكن اجتماعها بالواو للدلالة على تمكن الجامعيين لهذه الأوصاف من كل وصف منها» [١].

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي المصدقين بما يجب أن يصدق به « دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه » [٢]

قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي الطائعين لله في استجابة الخلق وتقبله الإيمان والاطمئنان به.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في أقوالهم بكونها مطابقة للواقع، وبإيمانهم بكونه خالصاً لله تعالى، وبأعمالهم لكونها وفق ما شرعه الله خالصة لوجه الله وهو على الإيماء.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ «هذه سجية الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتلقي ذلك بالصبر والثبات.

قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ الخشوع السكون والطمأنينة، والتؤدة، والوقار، والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته »[٣] يلحظ أن هذه الصفات الست إنما هي من أعمال القلب الباطنة التي تكون من داخل النفس فيما

---

(١) البقاعي، نظم الدرر ج ١٩ ص ٣٥١

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج ١١ ص ١٦٣

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٤.

بين اللسان والقلب وهي بمجموعها المعين الذين ينبع منه الإيمان ليقوم ببقية الصفات. ثم ذكر الأعمال الظاهرة.

قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما يحسن التصدق به وهو كشف لجانب البذل والعطاء لهذه النفوس، وكل مسلم صحيح الإسلام من أوصافه العطاء في كل باب فيه عطاء النفس والمال والجهد.

قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المشروع فرضاً كان أو نفلاً ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، ناسب أن يذكر بعده قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عن المحارم والمآثم إلا عن المباح.

ولما كان حفظ الفروج وسائر الأعمال لا تكاد توجد إلا بالذكر قال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ذكر الله باللسان وبالقلب باستحضار عظمة المذكور، فحقيقة الذكر حضور المذكور في قلب الذاكر.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خبر إن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ فالآية جملة واحدة، لعطفه الصفة على الصفة بحرف الجمع، معناه إن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات أعد الله لهم مغفرة لهفواتهم وما اجترحوه من سيئات فيمحوها عنهم[1]، ولما ذكر فضله في تجاوزه عنهم أعقبه التفضل بالكرم والرحمة فقال: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهي الجنة وبهذا

---

(١) انظر : الزمخشري، للكشاف ج٥ صـ٣٢٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير ج٢٢ صـ٢٥.

ترى أن هذه الصفات بناءً متكاملاً يقوم بعضه على بعض وما هي إلا لبنات متممة لما سبقها من لبنات في بناء هذه الأمة والتي جاءت من بداية السورة، يستند التالي منه إلى السابق، بمعنى أن هذا الترتيب والنظم الذي جاءت عليه أمر لازم، لكي يشمخ البناء في داخل الإنسان ليقيم في كيانه إيماناً خالصاً صحيحاً مستمراً.

فأول الصفات الإسلام وهو أول خطوة يدخل فيها الإنسان دين الله وآخرها ذكر الله كثيراً الذي هو القمة التي يرقى إليها الذي دخل في الإسلام والذي يعنيه هذا الجمع وهذا الترتيب والنسق في النظم هو أن المؤمن الجدير بهذا الوصف المستحق للجزاء الموعود به، المؤمن بربه هو الذي يحقق هذه الصفات فيكون مسلماً، مؤمناً، قانتاً، إلى آخر الصفات العشر، فليست بمعزل عن بعضها، وإنما هي صفة واحدة مجملة أو صفات عشر مفصلة وهي في إجمالها وتفصيلها على السواء.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ .

«ويكفي في ارتباط الآية بما قبلها أنه تعالى قال أولاً: ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ومدح بعد ذلك المطيعين والمطيعات لله ورسوله، فبين في هذه الآية وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ووعيد من عصى الله ورسوله »[1].

---

(١)شيخ زاده، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي،ج٦ص٧٣٦.

« لما كان سبحانه قد قدم قوله: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ - الآية، فعلم قطعاً أنه تسبب عنها ما تقديره: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة لأن يكون له ولي غير النبي ﷺ، فطوى ذلك للعلم به، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب، وأتبعها نتيجة ذلك مما ذكر تأديب الأزواج له ﷺوتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء من الإباء، وختمها بأن ذكر الله يكون ملء القلب والفم وهو داعٍ إلى مثل ذلك لأنه سبب الإسلام، عطف على مسبب آية الولاية ما تقتضيه » [1] الصفات التي تجمع صفات المؤمن الكامل الإيمان الذي يقيم في كيان صاحبه ولاءً خالصاً لله ولرسوله ﷺ،وطاعةً مطلقةً لله ولرسوله ﷺ،فالمقصد من بيان الصفات ليس المسمى،وإنما الإذعان، والتسليم لله ولرسوله ﷺ،وآية الولاية التي قد أشرت إلى سبب نزولها في ص (١١٧)، ما هي إلا نموذج عملي وتطبيقي لتلك الصفات،وهي مقدّماً على إخلاء شعور المؤمن من أيّة لفتة إلى غير ما يقضي به الله ورسوله ﷺ من أمر، فيستقبل المؤمن ما تحمله الآية من أوامر وتوجيهات بقبول وإذعان .

«يقول تعالى ذكره: لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج١٩ص٣٥٤.

نهيا﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد».(١)

قوله: ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾أي ليس لهم«أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل من حقهم أن يجعلو رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره ، والضمير لم يوجد لأنه وقع تحت النفي ، فعما كل مومن ومؤمنة»(٢).

ونفي الاختيار،وسلب المؤمن هذا الحق من القبول أو الرفض لا يكون إلا حين يقضي الله ورسوله ﷺ في أمر من الأمور، أما في غير ذلك فالاختيار لا بأس به ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وهذا الأمر ملزم لجميع المؤمنين والمؤمنات ولذا جاء بلفظ ﴿ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ليعم الجميع.

وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ بيان لحال من خالف واختار بعد ما قضى الله ورسوله أمراً،وأن معصية النبي ﷺ معصية لله تعالى،وأكده بالمصدر ﴿ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ أي بين الانحراف عن طريق الصواب.

وترى في الآية تعبيراً جديداً بعد التوجيهات،والأوامر التي ذكرت في السورة،والجديد أن التعبير كان قوياً في أداء المعنى، لأن فيه نبرة تهديد، فالشأن في المؤمن والمؤمنة حيال ما يقضي الله به ورسولهﷺ لا يقبل مساومة،ولا تردداً

---

(١) ابن جرير، تفسير الطبري ج١٩ص١١٢.

(٢) الزمخشري، للكشاف، ج٥ صـ٣٢٨.

ولا تحيزاً، ولا تلكؤاً،بل الاستجابة الكاملة،والإذعان المطلق،والتسليم التام بحكمه وقضائه في كل أمر من أمور الحياة،وجاء ترتيب الآية بين آيات فيها آداب،وأحكام،وإبطال لعادات الجاهلية فكانت ألفاظها ووحدة نظمها متناسقة.

وهي قاعدة في أن الأمر لله ولرسوله ﷺ لا سيما أنه سيُذكر بعدها إبطال التبني الذي وردت الإشارة إليه في صدر السورة،وجاء التفصيل في الآية لإبطاله من جذوره، وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسول الله ﷺ الذي تحمل العبء،وواجه المجتمع الذي كان يحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة .

وقد تزوج النبي ﷺ بزينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، مطلقة متبناه زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولم يقع التوافق بينهما وهي حكمة من الله تعالى في إبطال التبني الذي وقع بهذه الصورة التي لابد أن يكون النبي ﷺ فيها هو القدوة،والأسوة،حتى يأخذ المسلمون بهذا الأمر،ولا يتحرجوا منه،ولذا قال سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ نافياً عنه الحرج،ليقوم بما أخذ الله عليه من ميثاق في إبلاغ كل شيء أُخبر عنه ولم ينه عن إفشائه،« ثم ذكّر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبتاً على الحق،وليدفع عنه ما حاك في صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب»[1]

فقال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

---

(١) المراغي، تفسير المرغي،ج٨ص١٤ .

وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

أي اذكر يا محمد حين تقول: ﴿ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي زيد بن الحارثة أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي بالعتق من الرق والتبني حين استشارك في فراق زوجه ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ أي أمسك زينب بنت جحش[1] وهذا من حبه ﷺ له بتوجيه النصح إليه في أمر منه صلاح حياته وعدى الفعل (أمسك) بـ (على) لأنه ضمن معنى الضم أي: اضمم عليك زوجك[2]، وقيل فيه ما يشير إلى أن زيداً رضي الله عنه كان يشكو لرسول الله ﷺ وهو ضائق، وكان يبدي الرغبة في إرسال زوجته ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يقول وخف الله في الواجب عليك في زوجتك ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ أي تضمر وتسر في نفسك ما الله مظهره ومبينه وجاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على التحقيق والثبوت ما الله ﴿ مُبْدِيهِ ﴾ ولم يقل (ما يبديه الله) موافقة لحال الواقع، ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي تخاف من اعتراضهم وهو ما يعقب الطلاق، وبما أن محمد يتزوج مطلقة متبناه وما يتقوله المنافقون ومن في قلوبهم مرض من هذا الزواج، وليس هو عتاب للنبي ﷺ ولا لوم، ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين «وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان

---

(١) انظر :البغوي، تفسير البغوي ج٦ صـ٣٥٥.

(٢) انظر :الألوسي، روح المعاني ج٢١ صـ٢٧٧.

يخشى من قالة الناس:أنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه فهذا هو الذي أخفاه في نفسه،وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرج ما أحله له لأجل قول الناس »[1] ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ .

«لم يرد به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق فإنه عليه السلام قد قال: «**أنا أخشاكم لله وأتقاكم له**»، ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله تعالى أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء»[2] عن عائشة رضي الله عنها «قالت لو كتم النبي ﷺ شيئاً مما أوحي إليه لكتم هذه الآية ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ﴾»[3] قد كثر الكلام حول الآيات وسبق في ذلك آثار كثيرة يقول ابن كثير: « هنا آثار عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها»[4] وهذه الروايات وغيرها مما نقله بعض أهل التفسير في كتبهم « التف حولها بعض المستشرقين، وأضافوا إليها الكثير، فصار موضوع

---

(١) ابن القيم، بدائع التفسير، للإمام ابن قيم الجوزية، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي،ج٣ ص ٤٢٦ .

(٢) البغوي، تفسير البغوي ج٦ ص٣٥٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزوجل (ولقد رآه نزلة أخرى) وهل رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء برقم ١٧٧ ،ج١ صـ١٤٠ ، والبخاري في كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء برقم ٧٤٢٠ ،ج٤ ص(٤٤٩) لكن عن أنس رضي الله عنه.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ ص١٧١ .

زواج النبي ﷺ الذي هو في حقيقته تكليف ثقيل وأحد أعباء الرسالة التي حملها محمد ﷺ حكاية غرام، وقصة هوى، بدأت بتلك النظرة التي وقعت من محمد على زينب»[1] ومما أرى أنه يحرر الوجه الصحيح لهذه الحادثة ما ذكره صاحب الظلال فقال: «ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك فيما يحمل من أعباء الرسالة مؤنة إزالة آثار نظام التبني؛ فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، ويواجه المجتمع بهذا العمل، الذي لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به، على الرغم من إبطال عادة التبني في ذاتها!.

وألهم الله نبيه ﷺ أن زيداً سيطلق زينب؛ وأنه هو سيتزوجها، للحكمة التي قضى الله بها، ولم يكن أمراً صريحاً من الله. وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه، ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده في نفسه، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة الناس به. حتى أذن الله بكونه. فطلق زيد زوجه في النهاية، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب، فيما سيكون بعد. لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد لا تحل له. حتى بعد إبطال عادة التبني في ذاتها، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء. إنما كان حادث زواج النبي بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة. بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار.

---

(١) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص٣٣٩.

وفي هذا ما يهدم كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث؛ والتي تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات!

إنما كان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.. وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها رسول الله ﷺ فيما حمل؛ وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية. حتى ليتردد في مواجهته بها وهو الذي لم يتردد في مواجهته بعقيدة التوحيد، وذم الآلهة والشركاء؛ وتخطئة الآباء والأجداد! »[1] .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ بيان واضح للمقصد الشرعي من هذا الزواج وقد ذكر زيد باسمه لبيان شرفه وفضله «قال السهيلي: كان يقال له زيد بن محمد فلما نزع عنه هذا الشرف حين نزل ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخِصِّيصة لم يكن يخص بها أحدا من أصحاب محمد ﷺ وهي أن سماه في القرآن، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم نوه به غاية التنويه ﴿ وَطَرًا ﴾ «قال ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع»[2] ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أي زوجها الله من فوق سبع سموات ولذلك كانت تفخر بذلك، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: « إن زينب بنت جحش كانت

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥ ص ٢٨٢٨-٢٨٢٩.

(٢) القرطبي، أحكام القرآن، ج٧ص ١٢٥.

تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات»[١] .

عن أنس رضي الله عنه قال: «لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد « **فاذكرها على** ». قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت فى صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبى فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن قال فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار فخرج الناس، وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدرى أنا أخبرته أن القوم خرجوا أو أخبرني - قال - فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب» [٢]

« ولما ذكر سبحانه التزويج على ما له من عظمة ذكر علته دال على أن الأصل مشاركة الأمة للنبي ﷺ في الأحكام وألا خصوصية إلا في دليل فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب:«وكان عرشه على الماء» برقم ٧٤٢١ ، ج٤ صـ٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم، في كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس برقم ١٤٢٨ ، ج٢ ص،٨٤٩ .

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ﴾ أي ضيق ﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ أي الذين تبنوا بهم وأجروهم في تحريم أزواجهم مجرى أزواج البنين »[1].

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي أن أمر الله نافذ لا راد له، فهو سبحانه الذي يقضي في خلقه فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى به، ولذا الحكم في الأمر أنه مفعول إشارة إلى أن النبي ﷺ سيفعله وإن كان يجد في نفسه حرج، وترى في الألفاظ في الآية ما يتناسب، ويتناسق مع الحدث الذي قدره الله عز وجل، ولم يكن للنبي ﷺ أثر شخصي فيه مثل قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ فكان قدر الله على الرسول ﷺ أن يواجه ما وقع له من مجتمعه الجاهلي بثبات وقوة وعدم النظر لمقولاتهم ليتحقق إبطال تلك العادة المتجذرة في قلوبهم وعوائدهم، وقد تحقق ذلك بقوة من له الأمر كله، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ « استئناف لزيادة بيان مساواة النبي ﷺ للأمة في إباحة تزوج مطلقة دعيّه وبيان أن ذلك لا يخل بصفة النبوءة، وفي هذا الاستئناف ابتداء لنقض أقوال المنافقين أن النبي ﷺ تزوج امرأة ابنه»[2].

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج١٩ ص٣٦٠.

(٢)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ص٤٠.

وقوله:﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ قد قطع الله الطريق على من يعيبون على النبي ﷺ في زواجه بأن حكم الله في الأنبياء قبله أن لا حرج على أحد فيهم فيما أحل الله لهم فأنت لست بدعاً من الرسل في الأخذ بأمر الله وامتثاله على وجه.

وقوله:﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ هو تعقيب وتأكيد على قوله:﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي أن ما فرض الله للنبي ﷺ أمر قد قدره الله، فهو كائن لا محالة، وعند المقارنة بين قوله:﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ وقوله:﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ نلحظ على أن الفاصلة الثانية أوكد من الأولى، وذلك لأن فاصلة الآية الثانية أشمل وأكثر للأعباء والصعاب التي يواجهها النبيون وأهل البلاغ، لأنها تشمل كل ما يتصل بذلك من أذى وعناء، فناسبها التوكيد الذي يؤكد وقوع قدر الله(١).

وقوله:﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ « جملة(الذين يبلغون) إلى آخرها يجوز أن تكون في موضع الصفة للذين خلوا من قبل، أي الأنبياء، وإذ قد علم أن النبيﷺ متبع ما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله علم أنه متصف بمضون جملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١)انظر :أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ٤٨٩-٣٤٩.

﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بحكم قياس المساواة»[1] فالتبليغ للرسالات هي سنّة وطريقة للأنبياء عموماً مع عدم الالتفات إلى ما يكون إزاء هذه الرسالات المبلغة، من استجابة لها أو إعراض عنها، إنهم يبلغونها، ولا يعملون حساباً لما يلقاهم به السفهاء والجهال لأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يخافونه ولا يخافون أحداً سوى الله فلا يمنعهم اعتراض أحد من ابلاغها لأنهم يخشون الله، لذا ناسب وصفهم بها، ثم قصر الخشية التي تكون منهم على الله، أي هم لا يخشون أهل البغي وأهل الضلال ولو كانت في أيديهم الصولة والدولة. سيصدعون بأمر الله الذي أخذ عليهم القيام به، فالقلوب قد تعلقت بمن هو أحق بالخشية والرهبة التي تزال بها كل خشية يخشاها المخلوق في دنياه وأخراه، وهذا الوصف ناسب ما ذكر به النبي ﷺ أثناء الحدث إثارة له وإلهاء، فهو أخشى خلق الله، فكان الذكر هنا مؤكد أن الخشية صفة من صفات الأنبياء الذين بلغوا رسالات ربهم، فحري بكل داعية أن تكون صفة له، في قيامه بإبلاغ دعوته، دعوة تقوم على الثبات في المبادئ لأنه يخشى الله، ودعوة تقوم على الجرأة الواضحة مع الحكمة التي لا مداهنة فيها ولا ملاينة لأنه يخشى الله، دعوة تقوم على الصمود وبيان الحق جلياً واضحاً لأنه يخشى الله ولا يخشى فيه لومة لائم، فالأنبياء تخلقوا بذلك وكان همهم كلهم حسابهم عند الله وما يكون لهم من الجزاء ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

---

(١) ابن عاشور ،التحرير والتنوير ج٢٢ صـ٤٢.

قوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

جاءت هذه الآية لتقرر حقيقة أفادتها الآيات بأن الدعي ليس ابناً، وأن النبي ﷺ لم يكن أباً لأحد أبوة نسب، وإنما صلته بكم صلة المبلغ رسالة ربه، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فهو ﷺ انقطعت أبوة النسب بينه وبين أحد من الرجال، فإن المؤمنين جميعاً ينتسبون إليه نسباً أولى وأقرب من النسب بحكم أنه رسول الله المبلغ عن ربه رسالته الذي قام بها خير قيام شاملة كاملة فكان خاتم النبيين، ورسالته خاتمة الرسالات جميعاً، مهيمنة عليها، فلا هدى بعد هذا الهدى الذي أتى به محمد ﷺ، ولا نور يستضيء به أحد غير النور الذي أتى به محمد ﷺ، ولا نجاة لأحد لم يتبع محمداً ﷺ، ولا زالت الآيات تتوالى في كل توجيه أو حدث تعرض أعظم الصفات للنبي ﷺ، التي تدعو الناس جميعاً إلى معرفة قدره وتوقيره وتعظيمه ﷺ .

وتأمل إلى التناسب والتناسق الذي ختمت به قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش مطلقة متبناه، أولاً بوصفين عظيمين﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ رفعاً لقدره ﷺ، وإجلالاً له عن أقاويل المبطلين والمرجفين في القدح من شخصه أو تنقص من قدره ﷺ، فهو صفوة الصفوة، وأعظم العظماء، وأتق الأتقياء، وكل ذلك سيبقى له مع بقاء الليل والنهار، وستبقى هذه المواقف وغيرها من المواقف التي ذكرها الله في كتابه عن نبيه ﷺ خالدة على مر العصور والأزمان، برونقها وجمالها، مما تحلت به من إبراز شخصية النبي الكريم ﷺ، وطاعته لربه، وإذعانه وتسليمه له، وصفاء سريرته، وتقديم مراد ربه على مراد

النفس، أو مراد الخلق، مع صبره وحكمته وعدم النظر إلى ترهات المبطلين الذين يسعون لإخماد دين الله وإبقاء الناس على جهالتهم وضلالهم، والذين لا يخلو منهم أي زمن، وستبقى يستظل بها كل داعية ومسلم يرجو لدعوته التوفيق والقبول.

قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ « انظر الفاصلة التي ختمت بها الآية الكريمة، حيث أشارت إلى عموم علمه، وإحاطته بالأشياء كلها، وهذا متناسق تماماً مع خاتمية محمد ﷺ، لصفحة النبيين، ورسالات السماء، من حيث إن الخاتمية تعني امتداد شريعته بأصولها وفروعها، على الساحة الزمنية الباقية من الدهر، فكان لابد من الإشارة إلى عموم علمه بهذه الساحة، وعلمه بصلاحية هذه الرسالة الخاتمة لهذا الزمن كله »[١] .

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ تضمنت الآيات السابقة حكماً لنقد عادة تجذرت في قلوب أهل الجاهلية، فكان مبعث ظنون، ومثار شغب عند المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فكثر إعراضهم وإرجافهم حياله، مما يخشى أن يسري لقلوب أهل الإيمان منه شيء، وجههم الله تبارك وتعالى إلى ذكره سبحانه لينشغلوا به، وليكون لهم حماية عظيمة من غبار تلك الظنون، وليقع في قلوبهم التعظيم لله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ مما يدفعهم للاقتداء برسوله ﷺ، والقيام بإبلاغ دينه، لتسلك طريق الخير وتخرج من الظلمات إلى النور « قول

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٣٥٥.

تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرًا كثيرًا، فلاتخلو أبدانكم من ذكره في حال من أحوال طاقتكم ذلك﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾) يقول: صلوا له غدوة صلاة الصبح، وعشيًّا صلاة العصر» (١) .

« وذكر الله اتصال القلب به، والاشتغال بمراقبته؛ وليس هو مجرد تحريك اللسان، وإقامة الصلاة ذكر لله، وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة، فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه، ويتصل به قلبه. سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر، والمقصود هو الاتصال المحرك الموحي على أية حال .

وإن القلب ليظل فارغاً أو لاهياً أو حائراً حتى يتصل بالله، ويذكره ويأنس به. فإذا هو مليء جاد، قار، يعرف طريقه، ويعرف منهجه، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه» (٢).

«﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره وتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما تحضرهما ملائكة الليل والنهار، وتلتقي فيهما كأفراد التسبيح من بين الأذكار مع إدراجه فيها لكونه العمدة بينها وقيل: كلا الأمرين متوجه إليهما كقولك: صم وصل يوم الجمعة وبتفسير الذكر الكثير بما يعم أغلب الأوقات لا تبقى حاجة

---

(١)ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ ص١٢٣.

(٢)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥ ص٢٨٧١.

إلى تعلقهما بالأول»[١] «وعن ابن عباس أن المراد بالتسبيح الصلاة أي بإطلاق الجزء على الكل، والتسبيح بكرة صلاة الفجر، والتسبيح أصيلا صلاة العشاء وعن قتادة نحو ما روى عن ابن عباس إلا أنه قال: أشار بهذين الوقتين إلى صلاة الغداة وصلاة العصر، وهو أظهر مما روى عن الحبر، وتعقب ما روى عنهما بأن فيه تجوزا من غير ضرورة وقد يقال: إن التسبيح على حقيقته لكن التسبيح بكرة بالصلاة فيها، والتسبيح أصيلا بالصلاة فيه، فتأمل، وجوز أن يكون المراد بالذكر المأمور به تكثير الطاعات، والإقبال عليها، فإن كل طاعة من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة، وأصيلا أي الصلاة في جميع أوقاتها، أو صلاة الفجر والعصر، أو الفجر، والعشاء لفضل الصلاة على غيرها من الطاعات البدنية ولا يخفى بعده»[٢].

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ « تعليل للأمر بذكر الله، وتسبيحه بِأن ذلك مجلبةٌ لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه، وهو صلاته، وصلاة ملائكته. والمعنى: أنه يصلي عليكم، وملائكته إذا ذكرتموه ذكراً بُكرة وأصيلاً.

---

(١)أبو السعود، إرشاد العقل السليم في مزايا الكتاب الكريم، ج٥ص ٣٤٠.

(٢)الألوسي، روح المعاني، ج٢١-٢٢ ص٣٠١.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ لإفادة التقوِّي، وتحقيق الحكم، والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل ﴿ يُصَلِّى ﴾ من قول: ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

والصلاة: الدعاء والذكر بخير، وهي من الله الثناء، وأمره بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة، أي اذكروه ليذكركم كقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (١) وقوله في الحديث القدسي: « فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي وإن ذكَرَني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم » (٢)، وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين فيكون دعاؤهم مستجاباً عند الله فيزيد الذاكرين على ما أعطاهم بصلاته تعالى عليهم، ففِعل ﴿ يُصَلِّى ﴾ مسند إلى الله وإلى ملائكته لأن حرف العطف يفيد تشريك المعطوف والمعطوف عليه في العامل، فهو عامل واحد له معمولان، فهو مستعمل في القدر المشترك الصالح لصلاة الله تعالى، وصلاة الملائكة الصادق في كل بما يليق به بحسب لوازم معنى الصلاة التي تتكيّف بالكيفية المناسبة لمن أسندت إليه.

ولا حاجة إلى دعوى استعمال المشترك في معنيه على أنه لا مانع منه على الأصح، ولا إلى دعوى عموم المجاز، واجتلاب ﴿ يُصَلِّى ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تكرر الصلاة وتجددها كلما تجدد الذكر والتسبيح، أو إفادة تجددها

---

(١) سورة البقرة آية (١٥٢)

(٢) أخرجه البخاري كتاب التوحيد،باب قوله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ برقم (٧٤٠٥). ج٤ صـ٤٤٥

بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم، وفي إيراد الموصول إشارة إلى أنه تعالى معروف عندهم بمضمون الصلة بحسب غالب الاستعمال: فإمّا لأن المسلمين يعلمون على وجه الإِجمال أنهم لا يأتيهم خير إلاّ من جانب الله تعالى، فكل تفصيل لذلك الإجمال دخل في علمهم، ومنه أنه يصلي عليهم ويأمر ملائكته بذلك»[1] .

«هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2]. وقال النبي ﷺ: «**يقول الله: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذكرني في مَلأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[3] .

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه .

وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٤٩.

(٢) سورة البقرة الآيات (١٥١-١٥٢).

(٣) سبق تخريجه صـ٢٧٣.

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم، وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار»[1] ولما كان فعل الملائكة منسوب إليه قال سبحانه ﴿ يُخْرِجَكُم ﴾ معلله لصلاة الله، وصلاة الملائكة أي بسبب صلاة الله وصلاة الملائكة يخرجكم من ظلمات الجهل، وظلمات الضلالة إلى نور الهدى واليقين، وترى هنا أن الظلمات جاءت على طريق الجمع، والنور جاء مفردة، وذلك لأن طرق الظلمات متشعبة، فالنفس عند زلتها تقع في ضلالات، وطرق متشعبة، وتحتار فيها أيها تسلك أما طريق النور فهو طريق فريد، لا تحتار فيها النفس، وتمضي وهي مطمئنة على سبيل واحد، قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ قدم ذكر رحمته بفعل (كان) بما يقتضيه من توكيد الخبر في ثبوت رحمته سبحانه للمؤمنين في الدنيا والآخرة، « أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة، وأما رحمته بهم في الآخرة، فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم»[2] ومن التناسق أنه ذكر جل وعلا صلاته على المؤمنين ثم ذكر رحمته «لأنها تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج ١١ ص ١٨٣.

(٢)المصدر السابق.

الخير لهم بالأقوال والأفعال والأَلطاف» [١] ومنه أنه ذكر الجزاء الدنيوي العاجل في قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ثم أعقب ذلك بيان بذكر الجزاء الآجل الأخروي في قوله:﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ والتحية: ما يقال من كلام عند اللقاء فرحاً وسروراً، وعده البعض من الدعاء (سلام) ما أجمله من دعاء، دعاء بالسلامة والأمن من أي مكروه، وكفى بها أنها تحية أهل الجنة﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ ﴿١٠﴾ ﴾ [٢] .

قوله:﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ «انظر كيف يخيل مثل هذا التعبير أن الأجر كأنه مائدة أعدت، يعني اكتملت، وعدّ ما فيها عداً، حتى لا يكون هناك ضرب من ضروب الأجر والتكريم ، إلا وقد جئ به في هذه القائمة المعدودة، ثم انظر إلى هذه المخالفة في صياغة الجملتين قال في الأولى :﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ فبناها على طريقة الاسمية، وجعلها مقطع كلام للإشارة إلى تمييز هذا الضرب من التكريم، وأنه صنف آخر غير الصنف الأول الذي دل عليه قوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ ، فالأول واقع في الدنيا، والثاني واقع يوم لقائه، ثم عطف عليه ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ لأنهما من وادٍ واحد، وفي سياق واحد.

هذه تحية ولقاء وتلك مائدة من الأجر معدة، وقد بنيت الثانية على الفعل ولم يقل: تحيتهم يوم يلقونهم سلام، وأجرهم أجر كريم معد، لأن في هذا

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٠.

(٢) سورة يونس آية (١٠)

التركيب إشعاراً بأن الأجر قد أعدّ فعلاً قبل اللقاء، والتحية لا تكون إلا عند اللقاء، فلا تناسبها هذه الصيغة، ثم انظر إلى الإسناد في قوله: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾، وكيف ترى ذا الجلال يعد تلك المائدة من الأجر لهذه الجماعة التي آمنت بالله، وكافحت في سبيل الخير»(١).

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ هذا النداء الثالث للنبي ﷺ فإن الله لما أمره بأوامر وتوجيهات في صدر السورة تثبيتاً له ﷺ، وترقية له في النماء والنقاء ليقوم بأعباء الرسالة والميثاق الذي كلف به، ناداه سبحانه نداءً آخر بما يتعلق بأزواجه، وماتخلل ذلك من أحكام تخص أهل بيته، وأحكام تخص المجتمع في إبطال عادة التبني، وكان ﷺ المثال الحي الذي أبطلت تلك العادة على يده، ولاقى ما لاقى ﷺ، ثم وعظ عباده المؤمنين بما به تقع السلامة من أراجيف المنافقين. « هذا النداء الثالث للنبي ﷺفإن الله لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو متعلق بأزواجه، وماتخلل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه، وزيادة رفعة مقداره وبين له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمم السالفة .

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٣٦٢.

وذُكر له هنا خمسةُ أوصاف هي: شاهد، ومبشّر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير، فهذه الأوصاف ينطوي إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة »[1] « والخيط لا يزال موصولاً بقصة زواجه من زينب، فإن هذه الأوصاف العالية، والمهام الكبار المنوطة به ﷺ، تتلاقى مع ما في قوله: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهي تنبيه على عظم مكانته، وأن رسالته في هذه الأرض رسالة أكبر من أن تجعله يُشْغَل بمثل ما يقول به المرجفون، وأنه أطهر وأبر من أن يكون منه ما حاكوه حول هذه الواقعة من ضلالات، وواضح أيضاً أن هذا الخيط واصل إلى بداية السورة، وربما لاحظت أن النغم، التي بدأت به الآيات من أولها يتردد هنا ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ، ويلاحظ أن الصلة بين قصة زيد، وما جاء في السورة هنا، ربما لم تكن في كل حال صلة مباشرة بينة، وإنما تغمض أحياناً، حتى لا تراها إلا إذا أمعنت، وواضح جداً أن قصة الأحزاب، إنما جاءت في سياق ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، وكذلك ما تبعها من أمر أمهات المؤمنين»[2] .

قوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ « أي لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة شاهداً، كقوله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٢.

(٢) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص٣٦٣ .

﴿ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١]، قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب » [٢].

« وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل، وقدمت البِشارة على النِذارة لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته .

والنذير: مشتق من الإِنذار وهو الإِخبار بحلول حادث مسيء أو قُرْب حلوله، والنبي ﷺ منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم» [٣].

قوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إلى منهج الله وشريعته، وهذه الدعوة تميزت عن غيرها من الدعوات أنها لله سبحانه، لا لمطلب دنيوي، وهذا هو نهج الرسل عليهم صلوات الله وسلامه أنهم لا يطلبون على دعوتهم أجراً، «فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإِسلام مما يتعلق بصفات الله لأن دعوة الله

---

(١)سورة البقرة آية (١٤٣) .

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١١ ص ١٨٧ .

(٣)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٤.

دعـوة إلى معرفتـه ومـا يتعلـق بـصفات الـدُعاة إليـه مـن الأنبيـاء والرسـل والكتـب المنزلة عليهم»(١).

قوله: ﴿ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ «أي بتيسيرِه. أُطلق عليه مجازاً لمَا أنَّه من أسبابِه، وقُيِّدَ بـه الدَّعوةُ إيذاناً بأنَّها أمرٌ صعبُ المنالِ وخَطبٌ في غايةِ الإعضالِ لا يتأتَّى إلا بإمـدادٍ من جنابِ قُدسِه كيفَ لا وهُو صرفٌ للوجوهِ عن القُبلِ المعبودةِ وإدخالٌ للأعنـاقِ في قلادةٍ غيرِ معهودةٍ » (٢) وفي هذا إشارة إلى أن ميدان الدعوة إلى الله تعالى كأنـه حرم مقدس، لا يلجه إلا من صدق مع الله تعالى، وأخلـص دعوتـه لـه وحـده دون سواه، وتعلم أدواتها التي يحتاجها ليخوض بحرها الزاخر الـذي يحتـاج إلى عتـاد حسي ومعنوي، ولما كان الداعي إلى الله يلزمه النور لظهور الأدلة، قـال: ﴿ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ « تشبيه بليـغ بطريـق الحاليـة وهـو طريـق جميـل، أي أرسـلناك كالـسراج المنير في الهدايـة الواضـحة التـي لا لـبس فيهـا والتـي لا تـترك للباطـل شـبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كـما يـضيء الـسراج الوقّـاد ظلمـة المكـان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع مـا كان قبله في الأديـان مـن مـسالك للتبـديل والتحريـف فـشمل مـا في الـشريعة مـن أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يـشبَّه بـالنور فناسـبه الـسراج

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٤.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٥ص٣٤٢

المنير. وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها آنفاً فهو كالفذلكة وكالتذييل» (١) .

وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل هو معطوف على محذوف تقديره هذا فضل الله عليك، فاهنأ به وبشر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ أي عطاء جزيلاً وهو الثواب الكثير من الله على طاعتهم إياه.

« ولما أمره سبحانه بما يسر نهاه عما يضر فقال ذاكراً ثمرة النذارة ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي ولا تطع قول كافر ولا منافق في أمر الدعوة، وألن الجانب في التبليغ، وأرفق بالإنذار وأصفح عن آذاهم، واصبر على ما ينالك منهم، وفوض أمرك إلى الله، وثق به فإنه كافيك جميع من دونك، حتى يأتيك أمره وقضاؤه، وهو حسبك في جميع أمورك، وكالئك وراعيك » (٢) علم من مقابلة أمر التبشير للمؤمنين بالنهي عن الكافرين والمنافقين الذين قد نهى عن طاعتهم، وقد تكرر في السورة وجاء على طريق الإلهاب والتهييج، فالرسول ﷺ لن يتبادر إلى الذهن أن يتصور منه ذلك، مع ما فيها من التحذير لأتباع محمد ﷺ من اتباع المنافقين والكافرين، وعدم طاعتهم أو مشاورتهم أو اتخاذهم أعواناً، فالحقيقة واحدة والعداء واحد، فالرسول ﷺ عاداه أقرب الخلق له من أجل هذا الدين، وكذا من أبرم معهم

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٥.

(٢)المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٢٠.

العقود والمواثيق فنقضوها عداء للدين، فعداؤهم إذاً مرتبط بهذا الدين وقيامه في كل زمن، فوجب التحذير منهم ومن كيدهم .

وقوله:﴿ وَدَعْ أَذَنٰهُمْ ﴾ "يجوز أن يكون فعل {وَدَعْ} مرادا به أن لا يعاقبهم فيكون {وَدَعْ} مستعملا في حقيقته وتكون إضافة أذاهم من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي دع أذاك إياهم. ويجوز أن يكون {وَدَعْ} مستعمله مجازا في عدم الاكتراث وعدم الاهتمام فيما يقولونه مما يؤدي ويكون إضافة أذاهم من إضافة المصدر إلى فاعله، أي لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك فإنك أجل من الاهتمام بذلك، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. واكثر المفسرين اقتصرو ا على هذا الاحتمال الأخير. والوجه: الحمل على كلا المعنيين، فيكون الأمر بترك أذاهم صادقا بالإعراض عما يؤذون به النبيء صلى الله عليه وسلم من أقوالهم وصادقا بالكف عن الإضرار بهم"[1] « قال مجاهد: أي أعرض عنهم، وقال قتادة: أي اصبر على أذاهم »[2] وفي كلا الحالين فإنه يتضمن من أهل هذا الدين والداعين إليه المزيد من الصبر، والاستمرار في الهدف الأسمى بالدعوة إلى الخير وعدم الانعطاف عنه، ومقابلة ما يلاقيه بالمجاهدة والمصابرة والمدافعة فإن كل ذلك في سبيل الله مما يلاقونه من دروب الأذى .

---

(١)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ صـ٥٨ .

(٢)ابن جرير، تفسير الطبري، ج١٩ ص ١٢٧ .

« ولما كان ترك المؤذي والإعراض عنه استسلاماً في غاية المشقة، ذكره بالدواء، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الملك الأعلى في الانتصار لك منهم، ولما كان الوكيل قد لا ينهض بجميع الأمور قال معلماً بأن كفايته محيطة ﴿ وَكَفَىٰ ﴾ وأكدّ أمر الكفاية بإيجاد الباء في الفاعل تحقيقاً لكونه فاعلاً، وميّز النسبة بالفاعل في الأصل لزيادة التأكيد في تحقيق معنى الفاعل ﴿ وَكِيلًا ﴾ فمن اكتفى به أنار له جميع أموره »(1) وتأمل التناسق الجميل في ألفاظ هذه الآيات تجد أنه مناسباً لمهمة النبي ﷺ « قد جاءت هذه الجمل الطلبية مقابلة وناظرة للجمل الإخبارية من قوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ إلى ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ فقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ناظراً إلى قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾..

وقوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لأنه جاء في مقابلة بشارة المؤمنين كما تقدم .

وقوله: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ كما علمت. وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾. وأما قوله: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ فلم يذكَر له مقابل في هذه المطالب إلا أنه لما كان كالتذييل للصفات

---

(١)البقاعي، نظم الدرر، ج ٢١ ص ٣٧٥.

كما تقدم ناسب أن يقابله ما هو تذييل للمطالب، وهو قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾» [١]

« ولما أمر سبحانه بإبلاغ أوامره من غير التفات إلى أحد غيره وكان من المعلوم أنه لابد في ذلك من محاورات، ومنازعات، لا يقوم بها إلا من أعرض عن الخلائق، لما هو مشاهد له من عظمة الخالق أمره سبحانه بالتوكل عليه، وأقام الدليل الشهودي بقصة الأحزاب وقريظة على كفايته لمن أخلص له، فلما أتم الدليل رجع إلى بيان ما افتتح به السورة من الأحكام المتعلقة بأزواجه عموماً، وبزواجه من زينب بنت جحش بعد طلاقها من متبناه، وإعادة الأمر بالتوكل فذكر أقرب الطلاق إلى معنى المظاهرة المذكورة في أول السورة بعد الأمر بالتوكل، فقال ناهياً لمن هو في أدنى أسنان الإيمان بعد بشارة المؤمنين قاطعاً لهم عما كانوا يشتدون به في التحجر على المرأة المطلقة لقصد مضاجرتها، إتمام التمكن من التحكم فيها، بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ﴾ » [٢].

قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ .

« قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها من قبل أن يمسها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها تتزوج من شاءت،

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص٥٩.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج ٢١ ص ٣٧٥.

ثم قرأ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ يقول: إن كان سمى لها صداقا، فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن سمى لها صداقا، متعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل»(١).

قوله:﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ «هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى:﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق»(٢) وكلمة ﴿ثُمَّ ﴾ جاءت هنا بمعنى مهم في تحديد أمر العدة فكأنها جاءت للنص على المتوهم الذي يظن أن العدة تجب على المرأة التي عقد عليها ثم طلقت قبل الدخول.

«ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلاّ في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به، ومن آداب القرآن: الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان. فإن قلت: لم خصّ المؤمنات والحكم الذي نطقت

---

(١) ابن جرير، تفسير الطبري، ج ٢١ ص ١٢٨.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج١١ ص ١٨٧.

به الآية تستوي فيه المؤمنات والكتابيات؟ قلت: في اختصاصهنّ تنبيه على أن أصل أمر المؤمن والأولى به. أن يتخير لنطفته، وأن لا ينكح إلاّ مؤمنة عفيفة، ويتنزّه عن مزاوجة الفواسق، فما بال الكوافر، ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحدة عدوّة الله ووليه، فالتي في سورة المائدة: تعليم ما هو جائز غير محرّم، من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات، فإن قلت: ما فائدة ثم في قوله: ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ قلت: فائدته نفي التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم: بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يبعد عهدها بالنكاح ويتراخى بها المدة في حبالة الزواج ثم يطلقها» [1].

قوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي تجامعوهن، ولما كانت العدة حق للرجال قال: ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ الخطاب في ﴿ لَكُمْ ﴾ للأزواج الذين جعلت العدة لهم، لما فيها من حفظ للأنساب فهو الأساس في تماسك كيان الأسرة، وتنقية الأنساب، ولتعيش الأسرة في صفاء وود ورحمة، ويعيشون حياة الصدق، والرقابة الدائمة لله تعالى حتى تتواصل قلوب الآباء بالأبناء في جو من الوثاقة، والاطمئنان، وحتى يقوم كل منهم بواجبه حيال الآخر « هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج٥ ص٣٣٩.

زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً »[١] لذا ناسب أن يؤكد النفي بإثبات الجار في قوله: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾ قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ «فاء التفريغ في قوله (متعوهن) لأن المتعة عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلقها وفي ذلك جبر للقلوب، ومس على كلوم الفراق.»[٢]

قوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ سبق فيها كلام ابن عباس رضي الله عنهما وترى في التعبير من هذه اللفظة في ختام الآية ما يوحي إلى المقصد الشرعي في دوام الألفة والمحبة بين المؤمنين، ومن باب أولى ما ينبغي أن يكون بين الزوجين من ستر للعيوب، ونبل للخلق.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ قد أشرت إلى سبب نزولها في ص(١٢١).

« أنه لما خاض المنافقون في تزوّج النبي ﷺ زينب بنتِ جحش وقالوا: تزوج من كانت حليلة متبنّاه، أراد الله أن يجمع في هذه الآية مَن يحل للنبي

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج١١ ص ١٨٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ صـ٦٢ .

تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون، ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتمالها على قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية، ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع، وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعة للأحوال، وذلك أوعب وأقطع للتردد والاحتمال.

فأما تقرير ما هو مشروع فذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ﴾، وأما تشريع ما لم يكن مشروعاً فذلك من قوله: ﴿ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ ﴾ »[1]

كما ناسب ذكر الآية بعد ما بين للمؤمنين أنه لا عدة في نكاح من طلقت قبل الدخول بها، بين ما شرف الله به رسوله ﷺ وخصه به من أمر التوسعة في النساء وأن زوجاته لا تحل لأحدٍ بعده.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ هذا النداء الرابع الذي خوطب به النبي ﷺ في السورة خاصٌ بشؤونه ﷺ ببيان ما أحلّ له من الزوجات والسراري.

قوله: ﴿ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ﴾ أي جعلناهن حلالاً لك، والإحلال ضد التحريم وقوله: ﴿ أَحۡلَلۡنَا ﴾ يدل على أن التحريم، والتحليل لله عز وجل، وما أحله الرسول ﷺ أو حرمه فهو بوحي الله عز وجل إليه «ولما كان المقصود من

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٦٣.

هذه السورة بيان مناقبه ﷺ وما خصه الله به مما قد يطعن فيه المنافقون من كونه أولى من كل أحد بنفسه وماله، بين أنه مع ذلك لا يرضى إلا بالأكمل، تبين أنه كان يعجل المهور، ويوفي الأجور فقال: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾» [1] وسمي المهر أجراً بمقابل الانتفاع والاستمتاع بالزوجة وهو واجب.

ومما أحله الله له من النساء أولاً: أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن «وهي الأجور هاهنا. كما قاله مجاهد وغير واحد، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونَشّا وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي، رحمه الله، أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها، رضي الله عن جميعهن » [2].

ثانياً: جاء في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ «أحل الله تعالى السراري لنبيه ﷺ ولأمته مطلقاً، وأحل الأزواج لنبيه ﷺ مطلقاً وأحله للخلق بعدد وقوله: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ أي رده عليك من الكفار والغنيمة قد تسمى فيئاً، أي مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة» [3].

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٣٧٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٩٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧ ص ١٣٤.

ثالثاً: ما جاء في قوله: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ « هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع.

وإنما قال: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ﴾ فوَحَّد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾، وله نظائر كثيرة »[1] «وقيل: لأن العم والخال جنس يشمل الواحد والجمع، وجمع العمة والخالة لأنهما مختومتان بالتاء الواحدة، فلو أفرد لأشعر أنهما عمة واحدة وخالة واحدة وقيل: أفردهما لحسن النظم والسبك »[2] فالآية « شملت العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات. يؤخذ من مفهومه، أن ما عداهنّ من الأقارب، غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٩٠.

(٢)اللاحم، سليمان بن إبراهيم، تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب، دار العاصمة الرياض، ص ١٤٢.

الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقًا، والأصول مطلقًا، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح » (١).

قوله: ﴿ ٱلَّتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ من المدينة فمن لم تهاجر منهن معه لم يجز له نكاحها. عن أم هاني « أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له، لأني لم أكن من المهاجرات وكنت من الطلقاء، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل » (٢)

رابعاً: ما جاء في قوله: ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ « قال مجاهد: بغير الصداق فلم يكن يفعل ذلك، وأحلّ له خاصة من دون المؤمنين » (٣) وفي قوله: ﴿ مُّؤۡمِنَةً ﴾ إشارة إلى أن هذه الهبة إنما أرادت بها المرأة المؤمنة التقرب إلى الله والاستظلال بظل رسول الله ﷺ والظفر بالقرب منه، بخلاف غيرها اللاتي يردن طلباً لمرضاة النفس ورغبة في الشهرة.

---

(١)ابن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج ٦ ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) سبق تخريجه صـ١٢٢ قال الألباني ضعيف إسناده جداً ضعيف الترمذي، والطبري في جامع البيان، ج ١٩ ص ١٣١ وصححه الحاكم ج ٢ ص ١٢٢ ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي في الدر المنثور ج ٦ ص ٦٢٨ نسبته لابن سعد وعبد ابن حميد وابن راهويه وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني المعجم الكبير ٢٤/ ٤٠٥ رقم (٩٨٥) و (١٠٠٧).

(٣)ابن جرير، جامع البيان، ج ١٩ ص ١٣٢.

قولــه: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « قــال عكرمــة: أي لا تحــل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل لـه حتى يعطيها شيئاً، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما » (١).

قولــه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾

«قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك، وما خصصناهم به من الحكم في ذلك دونك وهو أنا فرضنا عليهم أنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي عصبة وشهود عدول، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع » (٢). وقد بين الله الحكمة بهذا بقولـه: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أي لكيلا يكون عليك ضيق ومشقة في هذا النكاح، فالله سبحانه يعلم ما يحيط بالنبي ﷺ من ظروف تحتاج إلى التوسعة.

وقولـه: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ تـذييل لمـا شرعـه الله مـن الأحكـام للنبي ﷺ فما أراده من نفي الحرج عنه هو من متعلقات صفتي الغفران والرحمة والتعبير الذي جاء في ألفاظ الآيات يدل على إشارة مهمة في تناسق الألفاظ وتناسب معانيها « نجد ذلك في الانتقال إلى الغيبة في قولـه: ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ ولم يقل إن وهبت نفسها لـك، لأن هـذا التشريع خاصٌ بـه لوصفه نبياً،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٩٤.

(٢) ابن جرير، جامع البيان، ج ١٩ ص ١٣٧.

فالنبوة أساس في هذا الحل ونجد ذلك في هذا البدء الذي بدأت به الآيات ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ فالله الذي يملك التحليل والتحريم، وليس لمحمد في هذا الأمر شيء، وإنما الله الذي زوجه زينب، هو الذي أحل له الأزواج المذكورات، وقد ذكرنا هناك أن الإسناد إلى الله في قوله: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ ذو أهمية في تجريد محمد ﷺ من الفعل في هذا الأمر الخاص بشخصه، والذي كثرت فيه قال المغرضين، وكذلك هنا، فالأمر كله لله، وليس على محمد ﷺ إلا أن يمثل لهذا الأمر، وهذا البناء الذي أكدته «إن»، وبناء الخبر الفعلي على المسند إليه، إنما يحقق هذا المعنى، ويجرد محمداً ﷺ من الرغبة والفعل في هذا المقام، وتسبيح الله يعني أن تكون أعماله سبحانه مبنية على وجوه من الحكمة، وربما ظهر لنا منها ما يقنع نفوسنا، وربما لم يظهر، ومقتضى التسبيح ألا يسأل عن العلة، ولا عن الوجه، لأن هذا السؤال يتصادم مع العبودية ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾، ولكن الله سبحانه أشار إلى علة هذا الاستثناء، ووجه هذا التشريع الخاص بالنبي، وأن مقامه ﷺ في هذه الجماعة ربما يكون فيه شيء من الحرج، لو ضيق عليه في المصاهرة وعدد الأزواج. ونجد إشارة ثالثة في قوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ والجملة جاءت على سبيل الاعتراض، وهو اعتراض مهم

لأنه ينص على أن فريضة التعدد، إنما صدرت عن علم بالأحوال، والطبائع، فهو تقنين على الإدراك الكاشف، والعلم الدقيق بخفي النوازع والأحوال »(١)

« ولما ذكر هاتين الصفتين اتبعهما ما خففه عنه من أمرهن إكراما له ﷺ مما كان من شأنه أن يتحمل فيه ويتحرج عن فعله، فقال في موضع الاستئناف، أو الحال من معنى التخفيف في الجمل السابقة (ترجئ)»(٢)

قولـــه: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ فكان من رحمة الله برسوله ﷺ، وإحسانه إليه أن أخلى يديه من تلك الواجبات المفروضة على الرجال حيال الأزواج في المعاشرة والمباشرة حتى يتفرغ النبي ﷺ للمهمة العظمى التي كلفه الله بها وقد سقنا سبب نزول هذه الآية في ص (١٢٢)

وقوله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ فقال بعضهم: عنى بقوله: (ترجي): تؤخِّر، وبقوله: (تُؤْوي): تضمَّ.

قوله: ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ من ابتغى أصابه، ومن عزل لم يصبه، فخيرهن بين أن يرضين بهذا، أو يفارقهن، فاخترن الله ورسوله، إلا امرأة واحدة

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلة لسورة الأحزاب، ص ٣٧٥.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٣٨٤.

بدوية ذهبت، وكان على ذلك صلوات الله عليه، وقد شرط الله له هذا الشرط، ما زال يعدل بينهن حتى لقي الله.

والصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره جعل لنبيه أن يرجي من النساء اللواتي أحلهن له من يشاء، ويؤوي إليه منهن من يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاء والإيواء على المنكوحات اللواتي كن في حباله عندما نزلت هذه الآية دون غيرهن ممن يستحدث إيواؤها أو إرجاؤها منهن.إذا كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: تؤخر من تشاء ممن وهبت نفسها لك، وأحللت لك نكاحها، فلا تقبلها ولا تنكحها، أو ممن هن في حبالك؛ فلا تقربها. وتضم إليك من تشاء ممن وهبت نفسها لك أو أردت من النساء اللاتي أحللت لك نكاحهن؛ فتقبلها أو تنكحها، وممن هي في حبالك؛ فتجامعها إذا شئت وتتركها إذا شئت بغير قسم»[1].

فخير الله رسوله ﷺ بين قسمه وعدمه بعد أن كان واجباً عليه، ومن قسم لها ليس لها الامتناع من بعد التخيير لأن الله خيره في ذلك.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ ﴾ « أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارا منك لا أنه على سبيل الوجوب،

---

(١)ابن جرير، جامع البيان، ج ١٩ ص ١٤٠-١٤٣.

فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن »[١].

«وقوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿تَقَرَّ﴾ والحزن ضد الفرح والسرور، قوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ معطوف أيضاً على ﴿تَقَرَّ﴾ وترى فيها تناسق بديع حيث اعترض بجملة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بين قوله ﴿تَقَرَّ﴾ وقوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ لأن صلة ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بقوله: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ لأن قوله: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ لإثبات كمال ضده وهو قرار العين، ثم عطف بقوله ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ على ﴿تَقَرَّ﴾. تتابع الألفاظ في تجلية التخيير من الله عز وجل لنبيه ﷺ، قابلها بألفاظ تشعر بمراعاة أزواجه ﷺ وتطييب خواطرهن وتطمين قلوبهن، لأن من مقاصد الإسلام انشراح الصدور واطمئنان القلوب لتسعد في دنياها وأخراها.»[٢]

قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ « كلام جامع لمعنى الترغيب والتحذير ففيه ترغيب للنبي ﷺ في الإحسان إلى أزواجه وإمائه والمتعرضات للتزوج به، وتحذير لهن من إضمار عدم الرضا بما يلقينه من رسول الله ﷺ.

وفي إجراء صفتي ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ على اسم الجلالة إيماء إلى ذلك فمناسبة صفة العلم لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ظاهرة، و مناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود ترغيب الرسول ﷺ في أليق الأحوال بصفة الحليم

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٩٦.

(٢)اللاحم: تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب، صـ١٦١ .

لأن همه ﷺ التخليق بخلق الله تعالى وقد أجرى الله عليه صفات من صفاته مثل رءوف رحيم ومثل شاهد »[١].

ولما كان الأمر بالتخيير والرضى به متعلقٌ بالقلوب ناسب التعقيب على ذلك بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ لتكون القلوب مستودع خير وعدلٍ وإحسان، فإذا ظهر ذلك يثبت أهلها بالجزاء الجزيل، فالقلوب هي ملاك صلاح هذه الحياة وازدهارها، وإرواء النفوس من ينابيع الرحمة والمودة، وذلك إذا صلحت وخلصت النيات وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ دعوة للعبد المحب أن يحلم عمن يعلم تقصيره في حقه ومن ذلك الأزواج بأن يتحلوا بالأناة والرفق، والصبر والاحتمال، لما يقع في الحياة الزوجية، فالحياة يسرٌ وعسر، واستقرار واضطراب، واستقامة وعوج، ومن أرادها على ما يرغب يطلب أمراً غير واقعٍ أبدا «ولما أمره بما يشق من تغيير العوائد في أمر العدة، ثم بما قد يشق عليه ﷺ من تخصيصه بما ذكر خشية من طعن بعض من لم يرسخ إيمانه، وختم ذلك بما يسر أزواجه، وصل به ما يزيد سرورهن من تحريم غيرهن عليه شكرا لهن على إعراضهن عن الدنيا واختيارهن الله ورسوله فقال ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ ﴾»[٢] «ذكر غير واحد من العلماء -كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم -أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺورضي عنهن،

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٧٦.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٣٨٤.

على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺكما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن [الله] قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن.

عن عائشة رضي الله عنها قالت:« ما مات رسول اللهﷺ حتى أحل الله له النساء» [١].واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعا. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيرا منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم » [٢].

وقوله: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾ « أي ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن، بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند رقم ٢٤١٣٧، ج ٤٠ ص١٦٥، والترمذي في التفسير ج ٩ ص ٧٨-٧٩ وقال (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الحاكم ج ٢ ص٤٣٧ ووافقه الذهبي وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٠٥ رقم (٢٢٤١) قال حسين سليم أسد اسناده صحيح، وفي سنن النسائي ٦/ ٥٦ رقم (٣٢٠٥) قال الألباني صحيح الإسناد.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ١٩٧-١٩٩.

كانت بارعة في الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسرّاها وأولدها إبراهيم ومات رضيعاً»(١).

وترى في قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فيه إشارة إلى ما جبلت عليه النفوس من النوازع التي يريدها كل إنسان في نفسه، وهذا ما يؤكد بشرية محمد ﷺ وأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً، وأنه واحد من المرغوبين لله، ولن يكون خلاف ذلك، ولما أن الآيات مشتملة على الحدود ناسب التعقيب عليها بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ لأن الأمر موكلٌ إلى الرقابة التي في القلوب ومدى أثرها في حياة المسلم ليلتزم بحدود الله وهو تحذير عن مجاوزة حدوده، وتخطي حلاله وحرامه، فالله لا يعزب عنه علم شيء من ذلك، ولا يؤوده حفظ ذلك كله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ بعد تلك الأحكام المتعلقة ببيت النبوة وما ذكر فيها من آداب وأحكام تتعلق بالنبي ﷺ وبأزواجه رضي الله عنهن، قفاه في هذه الآية بآداب الأمة مع رسول الله ﷺ ومع أزواجه رضي الله عنهن

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٢٦.

وصدرها بقصة زواج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش والمشار إليها في ص (١٢٢) وما يتعلق بما أقامه الله من حراسة لهن من خارج بيت النبوة، بعد ما أمرهن من قبل بلزوم البيوت وترك التبرج أمرهن هنا بإرخاء الحجاب عليهن في البيوت ومنع غير النبي ﷺ من الدخول عليهن « ولما قصره ﷺ عليهن، وكان قد تقدم إليهن بلزوم البيوت وترك ما كان عليه الجاهلية من التبرج، أرخى عليهن الحجاب في البيوت ومنع غيره ﷺ مما كانت العرب عليه من الدخول على النساء لما عندهم من الأمانة في ذلك »[1].

« وترى الآية الكريمة تخاطب هذه الجماعة، التي كانت تتصرف هذا التصرف المؤذي لرسول الله ﷺ خطاباً رقيقاً، فتناديهم بصفة الإيمان، وهو الرابطة الوثقى بينهم وبين نبيهم الكريم، ثم تذكر الرسول ﷺ بلفظ النبوة، فتؤكد وتبرز هذا الترابط، وأغلب ظني أن هؤلاء الذين كانوا يتحينون وقت طعام رسول الله ﷺ لم يكونوا إلا رجالاً أحبوا نبيهم ﷺ، وتعلقت نفوسهم ببيته الكريم، وأرخى لهم في ذلك ما عُرف عنه ﷺ من كرم النفس، وسعة الصدر، ولما كانت بيوته ﷺ قبلة كل مسلم، كان من الضروري أن يكون هناك ضرب من التنظيم، ووضع الحدود في علاقتهم به ﷺ، وبذلك يكون دخولهم بإرادته هو، وهو الذي يعرف ما يحيط به، وقد جاءت صياغة الآية الكريمة على ضرب من التركيب والتداخل، من حيث كثرت فيها القيود، فلم يقل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٣٩٠.

يؤذن لكم فحسب، ولكنه قيّد الإذن بكونه إذناً لطعام، ثم ذكر قيداً ثانياً يتولد على هذا القيد، وهو كونهم غير ناظرين إناه، أي نضجه، فإذا أذن لهم إلى طعام، وكان ناظرين إناه، لا يكون ذلك إذناً، ولا يصح دخولهم » [١].

وقد جاءت المنهيات في الآية بصياغة فيها ضرب من التركيب والتداخل، من حيث كثرة القيود فكان المنهى الأول: هو نهي المؤمنين أن يدخلوا بيوت النبي إلا بعد استئذان وإذن، ليس كما كانوا يصنعون في بيوتهم في الجاهلية، فقيد الإذن بكونه إذناً لطعام، ثم ذكر قيداً ثانياً يتولد عن هذا القيد، وهو كونهم ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾. « قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه الله ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل » [٢] إلا إذا دعوا لذلك فليدخلوا بعد أن يستأذنوا ويؤذن لهم فإذا طعموا فلا يلبثوا ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ أي إذا أكلتم الطعام فتفرقوا واخرجوا من منزله. قوله: ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ بل تصريح بما فهم منه أي ولا طالبين الأنس للحديث « الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال [الله] تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾.

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلة لسورة الأحزاب، ص ٣٨٠-٣٨١.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢٠٦.

وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه، عليه الصلاة السلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه »[1] وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ وارد مورد العلة للحث على النهي السابق ولذلك فُصل عنه « وصيغ ﴿يُؤۡذِي﴾ بصيغة المضارع دون اسم الفاعل لقصد إفادة أذى متكرر،والتكرير كناية عن الشدة، وصيغ فعل ﴿يَسۡتَحۡيِۦ﴾ بصيغة المضارع لأنه مفرع على ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ ليدل على ما دل عليه المفرع هو عليه .

وفي هذه الآية دليل على أن سكوت النبي ﷺ على الفعل الواقع بحضرته إذا كان تعديا على حق لذاته لا يدل سكوته فيه على جواز الفعل لأن له أن يسامح في حقه، ولكن يؤخذ الحظر أو الإباحة في مثله من أدلة أخرى مثل قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ ولذلك جزم علماؤنا بأن من آذى النبي ﷺبالصراحة أو الالتزام يعزر على ذلك بحسب مرتبة الأذى والقصد إليه بعد توقيفه على الخفي منه وعدم التوبة مما تقبل في مثله التوبة منه، ولم يجعلوا في إعراض النبي ﷺ عن مؤاخذة من آذاه في حياته دليلا على مشروعية تسامح الأمة في ذلك لأنه كان له أن يعفو عن حقه لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾»[2] وقوله:

---

(١)المصدر نفسه ص ٢٠٧.

(٢) سورة المائدة آية (١٣).

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [(١)]» [(٢)] وتـأتي المنـاهي في الآيـة بنهـي المؤمنين عن أن يسألوا نساء النبي ﷺ شيئاً من متاع أو نحوه إلا مـن وراء حجاب فقـال : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ «يقـول: وإذا سـألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بـأزواج متاعًـا﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾يقول: من وراء ستر بينكم وبينهن، ولا تـدخلوا عليهن بيـوتهن﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يقول تعالى ذكره: سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تعرض في صدور الرجال من أمر النساء، وفي صدور النساء من أمر الرجال، وأحرى مـن أن لا يكـون للشيطان عليكم وعليهن سبيل » [(٣)]. وتقرر أن هـذا الحجاب أطهر للقلوب الطاهرة، وأزكى للنفوس الكريمـة الزكيـة فقـال :﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ « فـلا يقـل أحـد غـير مـا قـال الله. لا يقـل أحـد إن الاخـتلاط، وإزالـة الحجب، والترخص في الحـديث واللقـاء والجلـوس والمشاركة بـين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، واعـون عـلى تـصريف الغريـزة المكبوتـة، وعـلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المـشاعر والـسلوك.. إلى آخر مـا يقولـه نفر مـن خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. لا يقـل أحـد شـيئاً مـن هـذا والله

(١) سورة آل عمران آية (١٥٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٨٧.

(٣) ابن جرير، جامع التأويل ، ج ١٩ ص ١٦٦-١٦٧.

يقـــــــــــول: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾.. يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات. أمهات المؤمنين. وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتطاول إليهن وإليهم الأعناق! وحين يقول الله قولاً. ويقول خلق من خلقه قولاً. فالقول لله سبحانه وكل قول آخر هراء، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد!.

والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقوله الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول، وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا وأقطع من كل دليل »[1]. ولما نهى عباده المؤمنين عن المكث في بيوت النبي ﷺ وأنه يؤذي النبي ﷺ أتبع بالنهي عن أذاك للنبي ﷺ نهياً عاماً فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وتكون الجملة فيها نهي استبعاد من أن يقع من أحد من المؤمنين بالله، أذية لرسول الله ﷺ ولنسائه بالنظر إليهن فإن ذلك لا يجتمع معه إيمان، وهذا حكم والآخر « تحريم أزواج رسول الله ﷺ على الناس بقوله : ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وهو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ »[2] وقد عظّم تبارك وتعالى ذلك، وشدّد فيه

---

(١)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥ ص ٢٨-٧٨.

(٢)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٩٣.

وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي أذية نكاح أزواجه عند الله أمرٌ عظيم وخطب هائل لا يقادر قدره « وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ، وإيجاب حرمته حياً وميتاً، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه »(١).

وقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ «كلام جامع تحريضا وتحذيرا ومنبئ عن وعيد، فإن ما قبله قد حوى أمرا ونهيا، وإذ كان الامتثال متفاوتا في الظاهر والباطن، وبخاصة في النوايا والمضمرات كان المقام مناسبا لتنبيههم بأن الله مطلع على كل حال من أحوالهم في ذلك وعلى كل شيء، فالمراد من ﴿شَيْـًٔا﴾ الأول شيء مما يبدونه أو يخفونه، وهو يعم كل ما يبدو وما يخفى لأن النكرة في سياق الشرط تعم، والجملة تذييل لما اشتملت عليه من العموم في قوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾. وإظهار لفظ ﴿شَىْءٍ﴾ هنا دون إضمار لأن الإضمار لا يستقيم لأن الشيء المذكور ثانيا هو غير المذكور أولا، إذ المراد بالثاني جميع الموجودات والمراد بالأول خصوص أحوال الناس الظاهرة والباطنة، فالله عليم بكل كائن ومن جملة ذلك ما يبدونه ويخفونه من أحوالهم»(٢).

قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ لما أمر الله تبارك وتعالى الرجال عند سؤال النبي ﷺ من وراء حجاب في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وكان

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٧ ص ٣٣٠.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٩٥.

الأمر في الحجاب بالعموم خصّ من العموم بعض الأقارب أنه لا يحقّ الاحتجاب منها كما استثناهم في سورة النور عند قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... ﴾[1].

«ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين قال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما فإن المرأة تحلّ لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية »[2].

قوله: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعني به أرقاؤهن من الذكور والإناث ثم ينتقل الأسلوب في قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ إلى أمهات المؤمنين ليخاطبهن خطاباً مباشراً وفي ذلك غاية الاهتمام بالأمر بالتقوى في سياقٍ تقوم فيه الأوامر والنواهي على تطهير القلوب يقول لهن: « خفن الله أيها النساء أن تتعدين ما حدّ الله لكن فتبدين من زينتكن ما ليس لكن أن تبدينه، أو تتركن الحجاب الذي أمركن الله بلزومه، إلا فيما أباح الله لكن تركه، والزمن طاعته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي إن الله شاهد على ما تفعلنه من احتجابكن، وتركك الحجاب لمن أبحت لكن ترك ذلك له، وغير ذلك من أموركن، يقول: فاتقين الله في أنفسكن، لا تلقين الله وهو شاهدٌ عليكم بمعصيته، وخلاف أمره ونهيه، فتهلكن، فإنه شاهدٌ على كل

---

(١) سورة التوبة، آية (٣٠).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤ ص ١٤٩.

شيء »(١). « كما في الآية تأكيدٌ للمشاهدة الداخلية، وأنها من قبل الله مشاهدة تامة، ومنكشفة، تنفضح فيها كل سريرة من سرائر الضمير، وكل همسة من همسات القلوب.

وواضح أن نساء الأرض كلهن من وراء هذا الخطاب بالطريق الأولى، لأن نساء النبي أمهات المؤمنين، وقدوة طيبة لنساء الأرض، ويأتي الأسلوب معهن في هذه الصورة من الاهتمام، وضرورة مراقبة دواخل النفس، حتى يكون الحجاب حجاباً طاهراً، وأن يكون انقياداً قلبياً لله، لأن الحجاب حين يضرب على المرأة وهي نافرة كارهة لا يكون حجاباً إسلامياً، ولا تؤمن طهارته، وحياطته من الدنس، والتدليس »(٢).

ولما كانت هذه السورة وما اشتملت عليه من آياتٍ في إظهار شرف النبي ﷺ وبيان مكانته، ومناقبه، وخصائصه، التي أشارت إليها الآيات لإباحة تعدد الزوجات خلاف غيره، والتزوج ممن يهبن أنفسهن له من غير مهر، وتحريم أزواجه من أحد بعده بهذه الخصوصيات يعرف ما للرسول ﷺ من مكانة كريمة وقدرٍ عظيم فإذا عرف المسلمون هذا، ينبغي كذلك أن يعرفوا أن قدره لا يتوقف عند هذا الحدّ بل له عند ربه أكثر وأكثر منها قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ تجيء الآية بالجملة الاسمية

---

(١) ابن جرير، جامع التأويل، ج ١٩ ص ١٧٤.

(٢) ابو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٣٨٧.

لتقوية الخبر وافتتاحها باسم الجلالة لإدخال المهابة والتعظيم في هذا الأمر[1] « قال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عن الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون: يبركون »[2]. « المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملإ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً »[3]. والآية « تعليل لما أفاده الكلام السابق من التشريف العظيم الذي لم يعهد له نظير، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، وذكر أن الجملة تفيد الدوام نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث أنها جملة فعلية فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتاً مؤقتاً، وتأكيدها بأنّ للاعتناء بشأن الخبر، وقيل لوقوعها في جواب سؤال مقدر هو ما سبب هذا التشريف العظيم ؟

وعبر بالنبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختص به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر،

---

(١)انظر :ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢ صـ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب قول﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ... ﴾ ج٣ صـ٢٦٤ .

(٣)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢١٠.

وأكد ذلك الإشعار بأل التي للفعلية إشارة إلى أنه ﷺ المعروف الحقيق بهذا الوصف، وقال بعض الأجلة إن ذاك للإشعار بعلة الحكم، ولم يعبر بالرسول بدله ليوافق ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ »(١).

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ « هي المقصودة وما قبلها توطئة لها وتمهيدا لأن الله لما حذر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول ﷺ أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا، عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم لرسول الله ﷺ فيما بينهم وبين ربهم، فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة الفحوى، فجملة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمنزلة النتيجة الواقعة بعد التمهيد، وجيء في صلاة الله وملائكته بالمضارع الدال على التجديد، والتكرير ليكون أمر المؤمنين بالصلاة عليه، والتسليم عقب ذلك مشيرا إلى تكرير ذلك منهم أسوة بصلاة الله وملائكته »(٢).

قد جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ في صفة الصلاة عليه، ومنها ما ذكر عن كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ أَلاَ أُهْدِى لَكَ هَدِيَّةً، إِنَّ النَّبِىَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّى عَلَيْكَ قَالَ: « **فَقُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ**

---

(١) الألوسي، روح المعاني، ج ٢٢ ص ٣٤٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ٩٧.

بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » (١).

فحقوق النبي ﷺ على المؤمنين كثيرة وما هذه الصلاة منهم والسلام إلا بعض ما يقومون به حيال حقوقه في مقابل الإحسان الذي أحسن به عليهم في هدايتهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور، وهي علامة من علامات صدق محبته في القلوب، « ولما كان المراد من الصلاة والسلام إظهار الشرف، وكان السلام أظهر معنى في ذلك، وكان تحيته عند اللقاء واجباً في التشهد بلا خلاف، ودالا على الإذعان لجميع أوامره الذي لا يحصل الإيمان إلا به، وهو من المسلم نفسه، وأما الصلاة فإنها يطلبها المصلي من الله، أكدهما به فقال: ﴿ تَسْلِيمًا ﴾ أي فأظهروا شرفه بكل ما تصل قدرتكم إليه من حسن متابعته وكثرة الثناء الحسن عليه والانقياد لأمره في كل ما يأمر به، ومن الصلاة والسلام عليه بألسنتكم » (٢).

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ «لما أرشد الله المؤمنين إلى تناهي مراتب حرمة النبي ﷺ وتكريمه وحذرهم مما قد يخفي على بعضهم من خفي الأذى في جانبه بقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ، وعلمهم

---

(١) أخرجه البخاري،كتاب التفسير، باب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ برقم ٤٧٩٧ ، ج٤ صـ٢٦٤ ، وقال ابن كثير، هذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، تفسير القرآن العظيم ج١١ صـ٢١١.

(٢)البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٤٠٧.

كيف يعاملونه معاملة التوقير والتكريم بقوله: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، وعلم أنهم قد امتثلوا أو تعلموا أردف ذلك بوعيد قوم تسمو بسمات المؤمنين وكان من دأبهم السعي فيما يؤذي الرسول ﷺ فأعلم الله المؤمنين بأن أولئك ملعونون في الدنيا والآخرة ليعلم المؤمنين أن أولئك ليس من الإيمان في شيء وأنهم منافقون لأن مثل هذا الوعيد لا يعهد إلا للكافرين »[1]. قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ « جملة خبرية وأذية الله بوصفه بما هو منزه عنه وما لا يليق به، ويعصونه ويخالفون أمره، ويصدون الناس عن دينه وغير ذلك، وعلى هذا يدخل فيها كل من جعل لله شريكاً، أو جعل له الولد، أو من وصفه بالنقص، أو أنكر صفاته، أو ضاهى خلق الله عز وجل بالتصوير سواءً كان من اليهود أو النصارى أو المشركين أو غيرهم.وقوله:﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الواو عاطفة دالة على أن أذية الرسول ﷺ أذية لله كالطاعة، وأذية الرسول ﷺ سواء ما كان منها كما فعل المشركين في حال حياته أو ما قالوا عنه أو ما يقال عن أزواجه كعائشة رضي الله عنها أو في تزوجه صفية بنت حيي أو زينب أو غيرهن ومنها مخالفة أمره والصد عن اتباعه، وكل ذلك مما يتأذى به النبي ﷺ.[2] قوله:﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٠٣-١٠٤.

(٢) انظر :الألوسي، روح المعاني، ج٢٢ صـ٣٥٨، واللاحم، تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب صـ٢٠١-٢٠٢.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا وعيدٌ من الله للذين يؤذون الله ورسوله «بأن يطردهم من رحمته ويبعدهم من فضله في الدنيا وجعلهم يتمادون في غيهم، ويدسّون أنفسهم، ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التي ترد بهم في النار، وبئس القرار حيث يصلون ناراً تشوي الوجوه. قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أي وهيأ لهم عذاباً يؤلمهم، ويجعلهم في مقام الزراية والاحتقار والخزي والهوان»[١].

وتلحظ هنا أن العذاب قد أعد وهيأ لهم وجمع بين صنفين من العذاب الأول اللعن لعنٌ في الدنيا ولعنٌ في الآخرة، والآخر العذاب المهين في الآخرة مقابل فعله فالحامل لهم على الأذى هو الاستهانة فوعدهم بالعذاب المهين حساً ومعناً، حساً بما يقاسونه من حر النار ولهيبها وجحيمها وزقومها وزمهريرها، كما قال تعالى ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[٢] وتهينهم معنى، أي تحطم معنوياتهم من التقريع لهم والتوبيخ والتبكيت كقوله ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾[٣] فعذاب المؤذين شديد لشناعة فعلتهم.

ولما كان من إيذاء الرسول ﷺ إيذاء المؤمنين الذين اتبعوا هديه وساروا على نهجه ﷺ «ألحق حرمة المؤمنين بحرمة الرسول ﷺ تنويها بشأنهم، وذكروا

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٣٥.

(٢) سورة النساء: آية (٥٦)

(٣) سورة المؤمنون: آية (١٠٨)

على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسولﷺ. وهذا من الاستطراد معترض بين أحكام حرمة النبي ﷺ وآداب أزواجه وبناته المؤمنات»[1]. فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ « أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومَنْ أكثر مَنْ يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرَّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، عز وجل، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين»[2].

وفي قوله: ﴿ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ احتراسٌ من الأذى الذي ينال المؤمنين والمؤمنات بما كسبت أيديهم، فإنه لا يدخل في الحكم الذي ينال من يؤذونهم لغير ذنبٍ ارتكبوه فالمؤمن والمؤمنة قد يقع منهما ارتكاب حد فيحكموا عليهم فمن يقوم به لا يؤاخذ بما قام به وقوله: ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ ﴾ « بصيغة افتعل، ولم يقل: فقد حملوا، للإشارة إلى عظم ما احتملوه وكأنه أمرٌ لا يطاق حمله إلا بمزيد

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٠٥.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢٤١.

من الجهد، والمعاناة، وفرق بين أن تقول: حمله، واحتمله، فالبهتان المحمول كأنه حملٌ ثقيل تنوء به ظهورهم، وكذلك الإثم المبين، أعني البين الواضح، وكأنه يكون يوم القيامة كالشيء المُعْلَم، فيقال هذا بهتانهم فلاناً وكذبهم عليه، وكأنهم بين خلق الله في ذلك اليوم المشهود من الله والملائكة والأنبياء وصالح المؤمنين قد تجسدت أكاذيبهم، وآثامهم، واحتملوها على ظهورهم إعلاماً بافترائهم وبراءة ساحة هؤلاء المؤمنين.» (١)

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ بعد أن نهى سبحانه عن أذى المؤمنين اتجه الخطاب بالنبي ﷺ يأمره الله بأن يبلغ نساء الأمة بأن يتقين الأسباب التي تدعوا إلى أذاهم والتستر بستار لا ريبة فيه، ولا مطعن ولا مشابهة بغيرهن من الإيمان « بعد ما بين سبحانه سوء حال المؤذين زجراً لهم عن الإيذاء، أمر النبي ﷺ بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذائهم في الجملة من التستر والتميز عن مواقع الإيذاء فقال: ﴿ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾» (٢). ترى التناسق والترتيب في الآية قدم أزواج النبي ﷺ لما لهن من الوصلة في النكاح ولأن الغيرة عليهن أشدّ، ومسؤولية الزوج عنهن أعظم وثنى بالبنات وهنّ أربع فاطمة، ورقية، وزينب، وأم كلثوم رضي الله عنهن، لأن

---

(١) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٥ ص٣٥٢.

مسؤولية الوالد عن أولاده من بنين وبنات أعظم، وفي كلا اللفظين ترتيب للداعي إلى الله في دعوته حيال المدعوين. قوله: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من زوجات، وبنات، وأمهات، وأخوات، وعمات، وخالات، وغيرهن. وفي إضافة ذكر النساء بزوجات النبي ﷺ وبناته، تكريم ودافع للامتثال والتقيد بالأمر، وكذا إضافتهن إلى المؤمنين، مع مساواة الحقوق والواجبات عليهن وأن نساء النبي ﷺ قدواتٌ لهن في طريق الحقّ والهدى قوله: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ «يقول تعالى آمرا رسوله، ﷺ، أن يأمر النساء المؤمنات -خاصة أزواجه وبناته لشرفهن -بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء. والجلباب هو: الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد، وهو بمنزلة الإزار اليوم »[1]. قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ إشارة إلى أن هذا الزيّ الساتر الذي يتزيا به النساء عموماً هو معلمٌ من معالم المرأة الحرة العفيفة التي لا مطمع لأحدٍ فيها. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ صفح عما سبق من أذى الحرائر قبل ذكر هذا الأدب أو ما سلف منهن، من تركهن إدناء الجلابيب عليهن رحيماً بهن أن يعاقبهنّ بعد توبتهن بإدناء الجلابيب عليهن، والتذييل يقتضي المقام وإنهاء الغرض.

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢٤٢.

قولـــــه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما حذر الله من الأذية لله ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، وعقاب من يفعل ذلك في الآخرة، وهم أهل النفاق، جاء الأسلوب هنا مُهدّداً بنكال سريع، لأنه تهديد بعذاب ظاهر يتحقق في واقع حياتهم، بل وفي الأيام القريبة المقبلة، لأنه إجلاء لهم وطرد من أرضهم وديارهم، ويعزلهم عن أجواء المدينة الإيمانية، حتى لا يتسرب إليها هذا الداء الخبيث، الذي لا يتمشى مع أجوائها من المنافقين وممن في قلوبهم مرض من المؤمنين فقال سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ «وقد جاء التعبير مصدراً بأقوى ما يؤكد به المعنى، وهو القسم من الله سبحانه، وفي ذلك من التهديد ما لا يقادر قدره، ثم تراه يذكر في هذا الإطار طوائف ثلاثة: المنافقين، الذين في قلوبهم مرض، المرجفون في المدينة، وقد ذكرنا أن القرآن يصف المنافقين بمرض القلوب في كثير من سياقاته، ثم إن المنافقين أيضاً عرفوا بإشاعة قالت السوء في الجماعة المسلمة، وقد ذكرت الآيات السابقة طرفاً من إرجافهم في جيش المسلمين، وهذا يعني أن المنافقين المذكورين في هذه الآية في قلوبهم مرض، ومرجفون في المدينة، فكأنهم يطوون خبائث الطوائف الثلاثة، ولهذا قدمهم، ثم أردف الذين في قلوبهم مرض، وهم ضعاف الإيمان، أو هم الفسقة والزناة كما قال كثير من المفسرين، وإن كنا نميل إلى العموم الذي جاء عليه التعبير، أعنى من في قلبه مرض سواء أكان حقداً على الإسلام والمسلمين، أو كان ضعفاً في الدين، وظلمة في القلب، وإن تحصل أصل الإيمان، وهم الجماعة المحجوبة عن نور الحق، وأدب القرآن، وإن كانت في عداد المسلمين،

والمرجفون الذين يشيعون الأخبار المهتزة، التي لا صحة لها، ولا ثبات »[١] « ثم قال تعالى متوعدًا للمنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يعني: الذين يقولون: جاء الأعداء وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي: لنسلطنَّك عليهم. وقال قتادة، رحمه الله: لنحرّشَنَّك بهم. وقال السدي: لنعلمنك بهم.

﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾ أي: في المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين، ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ أي: وجدوا، ﴿ أُخِذُواْ ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾ »[٢]. ونلحظ تناسقاً في الألفاظ، فلما كان إخراجهم عن المدينة أعظم رتبة في أذاهم من غيره أشار إليه بأداة التراخي ثم ﴿ لَا يُجَاوِرُونَكَ ﴾ دون الفاء واستثناء ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لتأكيد نفي المجاورة أي لا يبقون معك في المدينة إلا مدة قليلة و﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ حال مما تضمنه ﴿ قَلِيلًا ﴾ من معنى الجوار، والتقدير لا جوارهم ملعونين وهو مستعمل هنا كناية عن الإهانة والتجنب في المدينة، أي يعامله المسلمون بتجنبهم

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢٤٣-٢٤٤.

عن مخالطته ويبتعدون هم من المؤمنين اتقاءً ووجلا ففيها إيجازٌ بعيد.[١] وبهذا الوعيد انكف المنافقون عن أذية المسلمين وعن الإرجاف فلم ولن يقع التقتيل منهم.

قوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ﴾ أي فهذه سنته سبحانه في المنافقين وكل من تمرد عن دين الله عزّ وجل في كل زمان إذا استمروا على كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن يسلط عليهم أهل الإيمان ويذلوهم ويقهروهم، وفيه وعدٌ كريم للمؤمنين إذا ساروا على طريق الله، وعلى سنة الله، بأن الله سيكفيهم شرّ كل عدوٍ للدين فهذا حكم الله للمفسدين في الأرض، وهو حكمٌ قائمٌ لا يتبدل أبدا ولا يتناءى عن الحكمة والمصلحة، ولا يقدر غيره على تغييره.

قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ لقد تعددت وتتالت في الآيات السابقة أصناف العذاب لأعداء الدين مما كان منه في الدنيا ومما وعدوا به في الآخرة، ذكرهم هنا بوقوع الساعة التي كانت من ضمن أسئلتهم التي يسألون عنها، بأنها واقعة لا محالة وسيجزون فيها ما كانوا يوعدون.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ١٥ ص ٤١٣. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٠٩-١١٠ بتصرف.

« بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث بالدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون، عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة، فذكرهم بيوم القيامة وبيّن ما يكون لهم في هذا اليوم »[١] « لما كان تهديد المنافقين بعذاب الدنيا يذكر بالخوض في عذاب الآخرة: خوض المكذبين الساخرين، وخوض المؤمنين الخائفين، وأهل الكتاب، اتبع ذلك بهذا.

فالجملة معترضة بين جملة ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وبين جملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ لتكون تمهيدا لجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾»[٢]. « لما بين حالهم في الدنيا أنهم يلعنون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها »[٣] قوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ « أي المشركون، عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزأ، واليهود على سبيل الامتحان، إذ كانت معمى وقتها في التوراة، فنزلت الآية بأن يرد العلم إلى الله إذ لم يطلع عليها ملكاً ولا نبياً، ولما ذكر حالهم في الدنيا أنهم ملعونون مهانون مقتولون بين حالهم في الآخرة فقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ بين نفي علم الساعة عن النبي ﷺ لأن (ما) يحتمل أن تكون نافية أي أنك لا علم عندك عنها ويحتمل أن تكون

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٤٠.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١١٢.

(٣) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ج ٩ ص ١٨٥.

استفهامية بمعنى أي شيء يعلمك بها حتى تسأل عنها قريباً أي لعلها توجد وتتحقق بعد وقت قريب»[١].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ في الآية تهديد لمن لم يصحح إيمانه وأصبح في عداد الكافرين من خلال بيان عقابهم عند الله من اللعنة وسوء الدار، حيث ينزلون أسوأ منزل في جهنم، وليس لهم وليٌ يقف إلى جانبهم ولا نصير « إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم عنه﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ يقول: وأعد لهم في الآخرة نارًا تتقد وتتسعر ليصليهموها﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ يقول: ماكثين في السعير أبدًا إلى غير نهاية﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يتولاهم، فيستنقذهم من السعير التي أصلاهموها الله﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ينصرهم، فينجيهم من عقاب الله إياهم. »[٢] ثم كشف القرآن صورة من صورهم في النار فقال: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ واستخدم في ذلك المضارع لأنه يحذر صورة الحدث صورة حية ومثيرة « ومعنى تقليبها: تصريفها في الجهات، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة، أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر، لأنّ

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، بتصرف ج ٧ ص ٣٣٥.

(٢) ابن جرير، الجامع في تأويل القرآن، ج ١٩ ص ١٨٨.

الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده »[1]. وهم في هذا العذاب لا يملكون إلا صرخات الندم والحسرة ويطلقون العويل الذي يمتد به الصوت المكروب على خلافهم لله ورسوله ﷺ ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ ومما يدل على زيادة حسرتهم وبلوغهم غاية التحسر تصديرهم الكلام بـ (يا) التي قد يراد بها التنبيه على زيادة حسرتهم أو قد يراد بها التمني وحذف المنادى مبادرةً لذكر التمني والأسى، التمني على طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ والأسى على عدم طاعته، كما أخبر عنهم في حال العصاة بقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾[2][3] « ثم إنك ترى في قوله: ﴿ فِي ٱلنَّارِ ﴾ هذه بياناً شافياً لموجب العذاب، فإن القوم الآن إنما يتكلمون كلاماً يصف الحقيقة لأن الأرض قد أشرقت بنور ربها وكشف الغطاء، وليست هناك زاوية في الأرض ولا في النفس مظلمة ولا مظللة بضباب من الشك، القوم هنا يصفون موجب العقاب وصفاً بيناً بعد ما تكتشف لهم الحقائق، والموجب هو أن تكون طاعة الإنسان في أرض الله لغير الله، وطائع الله هو الذي يطوع ويلين وينقاد لكلمة الله، وما دام قد انقاد إلى الله، فإنه لا يتأتَّى في العقل أن ينقاد إلى غيره، لأن الإنسان يتجه وجهة

---

(١)الزمخشري، الكشاف، ج ٥ ص ٣٥٤.

(٢) سورة الفرقان آية (٢٧).

(٣) انظر :اللاحم، تفسير آيات الأحكام في سورة الأحزاب، صـ٢٣٨.

واحدة، فإذا اتجه إلى الله، لم يتجه إلى غيره، وإذا اتجه إلى غير الله لم يتجه إلى الله، هذه قسمة عقلية لا تجد لها ثالثاً.

كما تشير الآية إلى أن هناك طوائف من خلق الله، يحاولون أن، يوجهوا طاعة الناس إليهم، ويصرفوها عن طاعة الله، وهذا يعنيى أنهم جعلوا أنفسهم أرباباً من دون الله، وأنهم يناوئون سلطان الربوبية، وينصبون أنفسهم في الأرض لذلك، هؤلاء كما نصت الآية هم السادة، والمفسرون يقولون في بيانهم: (الملوك والولاة الذين يتولون تدبير السواد الأعظم) وليس هذا يعني أن كل ملك، أو وال إنما هو شيطان في الأرض، يصرف عن وجهة الله، وإنما يكون كذلك إذا كان يدعو الناس، ويسوسهم على مبادئ المخلوقين ومنهجهم، أما إذا كان يدعو الناس، ويسوسهم على مبادئ الله وشريعة الله، فهو من الولاة الصالحين الماضين على طريق النبيين »[1]. « ثم ذكر بعض معاذيرهم بإلقائهم التبعة على من أضلّوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله ربنا ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ عطف على جملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فهي حال، وجيء بها في صيغة الماضي لأن هذا القول كان متقدما على قولهم: ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ﴾ ، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤساؤهم إلى جهنم والابتداء بالنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرع والابتهال. وجملة ﴿ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ خبر مستعمل في الشكاية والتذمر،

---

(١)أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٤٠٢.

وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبراءهم. فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾. ومقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به من الحقيقة إذ قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ . فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم، وهذا شأن الدهماء أن يسوّدوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه،ويغرون بمعسول كلامه،ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنبوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه وحرارة أوامه، عادوا عليه باللائمة وهم الأحقاء بملامه »[1]. « أي ملوكنا وولاتنا الذين يتولون تدبير السواد الأعظم منا ﴿وَكُبَرَآءَنَا ﴾ أي رؤسانا الذين أخذنا عنهم فنون الشر وكان هذا في مقابلة ما تمنوه من إطاعة الله تعالى وإطاعة الرسول فالسادة والكبراء متغايران، والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة، وقدموا في ذلك إطاعة السادة لما أنه كان لهم قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفي. قوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ أي جعلونا ضالين، عن الطريق الحق بما دعونا إليه وزينوه لنا من الأباطيل، والألف للإطلاق كما في ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾»[2].

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١١٧-١١٨.

(٢)الألوسي، روح المعاني، ج ٢٢ ص ٣٦٧.

قولـه : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ هـذا هـو الجزاء الـذي يجزى به الضالون سادتهم ورؤساء الكفر والـضلال مـنهم، فإنهم لا يملكـون مـا ينتقمون لأنفسهم إلا الدعاء بمضاعفة العذاب لهـم، وتلحظ في الآيات إشارات تلمح إلى التناسق في وحدة آيات السورة، وإرشاد المؤمن في كـل الـسياقات إلى أن يتجه إلى إله واحد كما جاء النفي باجتماع قلبين في جوف رجل واحـد، ليتجه بكليته إلى رب واحد وإلى مصدر واحد فتكون أعماله وأقواله وأفكاره وخلجات نفـسه مـستمدة مـن وحـي الله، فـيعظم الله في أوامـره ونواهيـه، ويكـون مطيعـاً لله ولرسـوله ﷺ طاعـة مطلقـاً، فبهـا سـبب النجـاة، وبـدونها كـان للكـافرين العـذاب والخلـود في النـار، والإهانـة في الـدنيا والآخـرة، لأنهـم بـاعوا أنفـسهم لـسادتهم وعطلوا العقل الذي وهبه الله إياهم، فلـم يـصغوا إلى آيات الله ولم يـستمعوا إلى دعوة الرسول ﷺ ولم يبصروا النور الذي جاء به، لأنهم تركوا مقـودهم لغـيرهم، وأسلموه الزمام فكانت العاقبة أنهم أضلوهم السبيل.

كـما نـرى في الآيـات مـن المقـابلات في قولـه: ﴿ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ في مقابلة ما تمنوه من طاعة، فبدل طاعة الله اطعنا السادة وبـدل طاعـة الرسـول أطعنـا الكبراء، فبد لنا الخير بالشر ولـذا قـالوا: ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ مقابـل طريـق الهـدى الذي جاء به الرسول ﷺ من عند ربه.

وفي قولـه: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ فالعـذاب يـضاعف مقابـل ضـلالهم في أنفسهم، وعـذاباً عـلى إضـلالهم لغيرهم، وفي قولـه: ﴿ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا

﴿ كَبِيرًا ﴾ مقابل العظمة في ﴿ سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ وكما فيها لطيفة « وهي أن الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصلاً لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ وزيادة اللعن بقولهم: ﴿ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ »(١)، فقد كانوا في الدنيا يذهبون بالنصيب الأوفر من متاع الدنيا، فليذهبوا كذلك بالنصيب الأوفر من العذاب واللعنة في الآخرة.

لما بين الله تعالى عقاب من يؤذي الله ورسوله في الدنيا والآخرة، فمن يقع منه ذلك مع ذكر شواهد كثيرة لهم في آيات السورة وخاصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، وبروز تلك الشخصيات المريضة الكافرة من اليهود والمنافقين، في مواقف التخذيل والتفريق والتخريب والإرجاف، حذر عباده المؤمنين منهم ومن صفاتهم ومن السير في طريقهم، وذكر مثالاً لأذيتهم أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه وهو موسى عليه السلام، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ « لما تقضى وعيد الذين يؤذون الرسول ﷺ بالتكذيب ونحوه من الأذى المنبعث عن كفرهم من المشركين والمنافقين من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ حذر المؤمنين مما يؤذي الرسول ﷺ وأن يكونوا مثل قوم نسبوا إلى

(١) الرازي، التفسير الكبير، ج ٩ ص ١٨٥-١٨٦.

رسولهم ما هو أذى له وهم لا يعبئون بما في ذلك من إغضابه الذي فيه غضب الله تعالى »[(١)].

قد أشرت إلى سبب نزول الآية في ص (١٢٦) والتي يخاطب الله فيها عباده المؤمنين ويحذرهم أن يكونوا كاليهود الذين آذوا موسى عليه السلام والذي أظهر الله براءته وكان عند الله ذو وجاهة. « يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه منكم، ولا بفعلٍ لا يحبه منكم، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله، فرموه بعيب كذباً وباطلاً، فبرّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، بما أظهر من البرهان على كذبهم، ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ، يقول: وكان موسى عند الله مشفّعاً فيما يسأل، ذا وجه ومنزلة عنده، بطاعته إياه »[(٢)]. والمتأمل في كتاب الله يجد أن هذه الفعلة من اليهود ضد موسى عليه السلام ليست هي الوحيدة فقد كذبوه وأذوه أذية شديدة، وكذا محمد ﷺ وقع له أذى من قومه، ولكن الله مكّن موسى عليه السلام وصدقه وعده، فكما صدق الله وعده موسى في قومه سيصدق الله وعده محمد ﷺ في قومه ويكبت أعداءه ويمكن له في الأرض، وكما كان موسى وجيها عند الله سيكون محمداً وجيهاً عند ربه في مقام رفيع عنده « وقد دلت هذه الآية على

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١١٩.

(٢)ابن جرير، الجامع في تأويل القرآن، ج ٢٢ ص ١٩٠.

وجوب توقير النبي ﷺ وتجنب ما يؤذيه وتلك سنة الصحابة والمسلمين »[1] فليكن للمنافقين والذين في قلوبهم مرض في هذا عبرة وموعظة، فإن انتفعوا من ذلك وصحت قلوبهم من مرضها فليأخذوا بأسباب النجاة والفلاح التي وجه إليها فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ " ولما نهاهم عن الأذى، أمر بالنفع ليصيروا وجهاء عنده سبحانه فكرر للنداء استعطافا وإظهاراً للإهتمام »[2]، والبدء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالنداء للاهتمام واستجلاب الإصغاء إليه، ولما يقتضيه الإيمان من مستلزمات متى ما تمسك بها تحقق له التقوى التي هي زمام كل خير في الأفعال والأقوال، وقد جعلها الله وصية للأولين والآخرين، وصدر الأمر بها لرسوله ﷺ قبل جميع الأوامر والنواهي في السورة وخص بها هنا أهل الإيمان، وعقب نهيهم عن أمر يتضمن الوعيد ليقوى الصارف عن الأذى « لأن هذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان؛ ليترادف عليهم النهي والأمر، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه »[3]. « ومجيء الأمر بالتقوى، والقول السديد بعد النهي عن إيذاء الرسول ﷺ يوحي

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٢٠-١٢١.

(٢) البقاعي، النظم والدرر، ج ١٥ ص ٤٢١.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ٥ ص ٣٥٧.

بأننا مطالبون بشيئين: ترك الكلام المؤذي وقول الكلام السديد، ولذلك صلته ببعضه بعضاً »(١) وليمثلوا لما أمروا به في قوله: ﴿ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي « قولوا في رسول الله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر، حقاً غير باطل، والقول السديد قال قتادة: الصدق وقال عكرمه: قولوا لا إله إلا الله »(٢).

« ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء. فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث: الرسول ﷺ من القول السديد، وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه. ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح، ومن القول السديد الأذان والإقامة قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾، فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها، وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب »(٣).

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج٨ ص٤٤٨٨.

(٢) ابن جرير، الجامع في تأويل القرآن، ج ١٩ ص ١٩٥.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٢٢-١٢٣.

« وما أعظمها من ثمرة للتقوى والقول السديد بشر الله بها عباده من أهل الإيمان الذين امتلأت قلوبهم بتقواه، وخشيته، فلا يقولون زوراً، ولا ينطقون بهتاناً وإنما قولهم الحق، ومنطقهم الصدق لاستشعارهم مسؤولية الكلمة، فالكلمة السديدة نحو الخير أساس صلاح الأمر كله، جاشت بها قلوب مخلصة عند سماعها، فانتبهت إليها الضمائر، والتفت نحوها العقول والقلوب، وتحركت الهمم، وكُشف العطاء، ومضى الركب على الطريق المستقيم، وإن المرء لتسقط في نفسه كلمة يسمعها أو يقرؤها من موجه مخلص فتدور في داخله، وتعظم حتى تغلب على نفسه، فتدير حركته، وتوجه وجهته، وتحدد أهدافه ومسيرته »(١). لذا كان الموعود لأهلها عظيم ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وترى تناسقاً بديعاً في المقابلة بين صلاح الأعمال التي هي جزاء على القول السديد، وغفران الذنوب جزاء على التقوى، فقد أشرنا إلى بيانها من قبل، ولما كان كل ذلك لا يتحقق إلا بالإذعان لله ولرسوله ﷺ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فإنها الفارق بين أهل الحق وأهل الباطل وبين أهل الهدى وأهل الضلال وبين المتقين والفجار، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولقد نطق بها أهل الكفر عندما دخولهم النار أن السبب الطاعة ولكن الطاعة والإذعان لمن ؟ إنها للكبراء والسادة، فكان لهم سوء المصير، أما أهل الإيمان فسبب تقواهم وقولهم السديد ونيلهم صلاح الأعمال والمغفرة هو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ

---

(١) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص ٤٠٦.

التي ندب الله جل وعلا إليها رسوله فتمثلت في حياته كلها، وبلغها لعباد الله بلاغاً وافياً، فظفروا بالفوز الذي عبر عنه بأنه ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فوز يصاحب أهل الطاعة في جميع أحوالهم، وأزمانهم، وأماكنهم.

قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ بعد التطياف الذي تناسقت ألفاظه وتناسبت معانيه في آيات السورة التي تحمل كماً من التوجيهات لرسول الأمة ﷺ وللمؤمنين للقيام بهذا الدين في منبعه الأول بالمدينة النبوية لتكون تلك التوجيهات هي الأسس لقيامه، والتي مرتكز ها على الطاعة لله ولرسوله ﷺ الشاملة الكاملة، ناسب الختام الإشعار بأن تلك التوجيهات جميعها أمانة وتكليف كلف بها الإنسان، وأن حصولها عزيز وشاق على النفوس، وأن الناس سيحاسبون عليها فمنهم المعذب ومنهم المنعم، « بعد أن بين عز اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله، وأن من يراعيها فله الفوز العظيم، وأن من يتركها يستحق العذاب، أردف ذلك عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاقّ على النفوس، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام»[1]، وقوله: ﴿ عَرَضْنَا ﴾ « العرض: حقيقته إحضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله وهي هنا

---

(١) المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٤٦.

استعارة تمثيلية لوضع شيء في شيء لأنه أهل له دون بقية الأشياء »[١]، « وعن ابن عباس الأمانة: الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة، وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها، وقال قتادة: الأمانة: الدين والفرائض والحدود، وقال بعضهم: الغسل من الجنابة، وقال مالك عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا مَنْ وفقه اللهُ، وبالله المستعان »[٢]، «قال ابن عباس: أعطيت الجمادات فهماً وتمييزاً فتخيرنا في الحمل، وذكر الجبال، مع أنه من الأرض، لزيادة قوتها وصلابتها، تعظيماً للأمر»[٣]، قوله: ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ «حمل الأمانة من قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد أن لا يؤديها إلى صاحبها، لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها، فمعنى ﴿ فَأَبَيْنَ أَن

---

(١)ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢ ص ١٢٥.

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١١ ص ٢٥١.

(٣)أبو حيان، البحر المحيط، ج ٧ ص ٣٣٧.

﴿ يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملاً لها لا يؤديها »[١].

« الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره، ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره، ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده، ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزغاته، ومجاهدة ميوله وشهواته، وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مريد، مدرك، يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق، إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر، الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع، وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة، ومن ثم ﴿ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ لطاقته، هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله، فأما حين ينهض بالتبعة، حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه، فإن يصل حقاً إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد، إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة، هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله »[٢]، ونلحظ في ألفاظ الآية ما دعى بعض

---

(١)الزمخشري، الكشاف، ج ٥ ص ٣٥٨.

(٢)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥ ص ٢٨٨٥.

المفسرين [1] الوقوف عنده كقوله: ﴿عَرَضْنَا﴾ فيه إغراء للسموات والأرض والجبال بالقبول، لأن المولى خالقها يعرض عليها، ثم فيه اهتمام بأمر الأمانة، الذي اسمها يدل على صلتها بالإيمان بالله، وفيها أن اختيار السموات والأرض والجبال لأنها أهول ما يرى الإنسان من خلق الله وأعظمها.

وقوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ هو سبب الإباء للشعور بفداحة الأمر وخطره وهو إدراك للمسئولية، وقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال: فأبين أن يقبلنها وقبلها الإنسان، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إشارة إلى جسارته وإقدامه على الأمر من غير رويةٍ وتقدير، فهو ظالم لنفسه، جهولٌ بقدراته، وما ينطوي عليه من ضعف بجعل أمر وفائه بهذه الأمانة أمراً صعباً وجهاداً شاقاً [2].

قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا تعقيب على قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ...﴾ واللام لام العاقبة، فمقتضى الأمانة التي حملها الإنسان هو أن يؤديها كما أؤتمن عليها، فإن هو قصّر في أدائها، أو ضيعها جميعاً، كان في موضع المساءلة والعقاب، وإن حفظها على قدر ما استطاع كان له المقام الكريم

---

(١) انظر : الرازي، التفسير الكبير، ابن عاشور، التحرير والتنوير، أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب (بتصرف).

(٢) انظر : أبو حيان، البحر المحيط، ابن عاشور، التحرير والتنوير، أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب (بتصرف).

في جنات النعيم، « أي وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا، لتلاقيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر في العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة »[1].

« أي حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك، فإن قال قائل : لم قدم التعذيب على التوبة ، نقول : لما سمى التكليف أمانة ، والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان»[2].

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فهو مقابل لقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ والذي جاء عليه النظم في الآية يحقق أولاً: أن حمل الأمانة، وأداءها كاملة مما لا يكاد يتحقق على وجهه كاملاً، إلا في صفوة مختارة من أنبياء الله ورسله، إذا فالمطلوب المقاربة والتسديد والاجتهاد على قدر الاستطاعة وما وقع من خلل فإن الله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وهذا ما يقتضيه ذكر الاسمين والصفتين العظيمتين لله تبارك وتعالى.

---

(١)المراغي، تفسير المراغي، ج ٨ ص ٤٦-٤٧.

(٢)الرازي، التفسير الكبير، ج ٩ ص ١٨٩.

ثانياً: أن الإيمان بالله هو ملاك الأمانة فمن آمن بالله حق الإيمان قام بالأمانة على وجهها وأمن بمشيئة الله أن يكون من المنافقين أو المشركين فيأمن من عذاب الله، وحريٌ أن يشمله مغفرة الله ورحمته ويناله الفوز العظيم، نسأل الله تعالى من فضله. « وبهذا الإيقاع الهائل العميق تختم السورة التي بدأت بتوجيه الرسول ﷺ إلى طاعة الله وعصيان الكافرين والمنافقين، واتباع وحي الله ، والتوكل عليه وحده دون سواه، والتي تضمنت توجيهات وتشريعات يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامي، خالصاً لله، متوجهاً له، مطيعاً لتوجيهاته، بهذا الإيقاع الذي يصور جسامة التبعة وضخامة الأمانة، ويحدد موضع الجسامة ومنشأ الضخامة ويحصرها كلها في نهوض الإنسان بمعرفة الله والاهتداء إلى ناموسه، والخضوع لمشيئته، بهذا الإيقاع تختم السورة، فيتناسق بدؤها وختامها، مع موضوعها واتجاهها، ذلك التناسق المعجز، الدال بذاته على مصدر هذا الكتاب»[1].

---

(١)سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥ ص ٢٨٨٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فها أنا أضع رحالي في بحثي المتواضع بعد أن عشت مع سورة كريمة من سور القرآن العظيم ظهر لي عدة نتائج أبرزها ما يلي :-

- أن ما وصلت إليه من تعريف للتناسق بأنه تسلسل الألفاظ ،والمعاني الواردة في السورة ،بحيث تكون كل جملة أخذة بعنان الأخرى ، ما هو إلا فهم فهمته من خلال إطلاعي وسماعي لكلام أهل العلم .

- تبين لي أن سورة الأحزاب ليس لها إلا أسم واحد ثبت به الخبر ، وهو توقيفي كغيره من أسماء سور القرآن الكريم .

- أنه لم يرد حديث صحيح في فضل سورة الأحزاب عن بقية سور القرآن، وفضلها كفضل سائر سور القرآن العظام .

- انعقد إجماع المفسرين على أن عدد آيات سورة الأحزاب ثلاثة وسبعون آية في جميع العدّ .

- بعد البحث والتأمل واستقصاء الروايات الواردة في غزوة الأحزاب ، خلص لي أن نزول سورة الأحزاب كان في نفس السنة التي وقعت فيها غزوة الأحزاب ، سنة خمس للهجرة النبوية .

- أن سورة الأحزاب سورة مدنية كلها ، لاجتماع الضابط الزماني لارتباطها بالغزوة ، والضابط المكاني وهو المدينة النبوية .

- أن علم المناسبات من العلوم المهمة التي تظهر جمال الترابط بين السور والآيات والكلمات ، فكأنها بنيان متصل يمْثُل به إدراك إعجاز كل حرف من حروف القرآن ليدل على الهداية في أعلى صورها .

- اتضح لي الترابط الوثيق بين سورة الأحزاب وسورة السجدة ، وكذلك سورة سبأ ، من حيث ما يتعلق بالموضوع الذي ختمت به سورة السجدة ، وما بدأت به سورة الأحزاب ، والترابط بين آخر مواضيع سورة الأحزاب ، ومواضيع بداية سورة سبأ ، مما كان عوناً على إدراك وحدة نسق السورة ، والمؤدي إلى وحدة موضوعها .

- من أبرز ما اختصت به سورة الأحزاب أنها السورة الوحيدة من سور القرآن التي اهتمت ببيت النبوة وبيان الآداب المترتبة حياله .

-أن من أعظم مقاصد السورة ما جاء في صدرها من أوامر وتوجيهات للرسول ﷺ وأمته تبعاً له عليه الصلاة والسلام ، بتقوى الله تعالى ، وأتباع الوحي المنزل ، والتوكل على الله ، وعدم طاعة الكافرين ، فهي الأساس الذي ترتبط به سائر ما في السورة من أحكام ،وأحداث وآداب متى ما صدق فيها العبد مع ربه ، وتوجه بها إليه ،نال التوفيق والتسديد والجزاء الحسن .

- أن هناك تناسق وتناسب بديع بين موضوعات السور تمثل حلقات عقد قد أحكمت في نسق واحد منتظم .

- من خلال تفسير آيات السورة تبين أنها واحدة في معانيها متناسقة في ألفاظها ، تمضي في سياق متآلف أشد التآلف ، بأسلوب يجري في نسق عام ، يلتفت بعض اللإلتفاتات ،يقف عندها وقفات ليعالج بعض العادات والقضايا ، ثم يستمر في سياقه العام البارز في السورة ، الذي يظهر وحدة تناسقها في موضوع واحد .

وختاماً أحمد الله حمداً كثيراً مباركاً فيه ، واسأله أن ينفعني والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح ، وأن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم ، لاحظ لأحدٍ فيه ولا نصيب ، وأن يجزى علماء الأمة السابقين واللاحقين خير الجزاء على ما قدموا للأمة من علوم ثرة انتفع بها كل مسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن اهتدى بهديهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

الفهارس العامة

أولا : فهرس الآيات القرآنية

ثانيًا : فهرس الأحاديث النبوية

ثالثًا : فهرس الآثار

رابعًا : المصادر والمراجع

خامسًا : فهرس الموضوعات

أولا : فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقمها	الصفحة
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾	البقرة	٢٣	٤٢
﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾	البقرة	٢١١	٤٠
﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾	البقرة	٢٤٨	٤٠
﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾	البقرة	٢٨١	٣١
﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾	آل عمران	٧٤	٩٣
﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾	آل عمران	١٥٩	٣٠٥
﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ﴾	آل عمران	١٨٨	١٠٤
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾	النساء	٥١	٥٥
﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾	الأنعام	١٤٥	١٠٥
﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾	الأنفال	٢٥	٩٣
﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾	التوبة	٦	١٢٨
﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾	يونس	١٠	٢٧٩
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾	هود	١٠٣	٤١
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾	الحجر	٩	٣١
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾	الحجر	٨٧	٣٩
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾	النحل	٩٠	٤٥
﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾	الاسراء	٩	٨
﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾	طه	١٢٣-١٢٦	٥
﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾	النور	٥٤	٨٤
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾	الفرقان	٣٢	٦٦
﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	الروم	٢٢	٤١
﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾	السجدة	١٣	٨٢

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾	السجدة	٣٠	٨٤
﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾	الاحزاب	٤	٨٢
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	سبأ	١	٨٦
﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾	ص	٢١	٢٤
﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾	ص	٢٩	٦
﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾	الأحقاف	١٧	١٠٦
﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾	الحجرات	١٣	١٦٩

ثانيا : فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الراوي	الصفحة
- أتاني جبريل فأمرني أن أضع	عثمان بن أبي العاص	٤٥
- ألا أعلمتك أعظم سورة	أبوسعيد بن المعلى	٣٩
- إن موسى كان رجلا حييا	أبوهريرة	١٢٦
- ضعوا آية كذا	أبوالدرداء	٤٤
- طلحة ممن قضى نحبه	معاوية بن أبي سفيان	١١٢
- فإن ذكرني في نفسه ذكرته	أبوهريرة	٢٧٦
- فقولوا اللهم صل على محمد	كعب بن عجرة	٣١٢
- لما نزلت آخر آية	ابن عباس	٣١
- ما من مؤمن إلا وأنا أولى..	أبوهريرة	٢٠٢
- من حفظ عشر آيات..	أبوالدرداء	٣٩
- من قرأ سورة الأحزاب..	أبي بن كعب	٣٥
- نزلت هذه الآية في خمسة..	أبوسعيد الخدري	١١٥
- هن حولي كما ترى يسألنني..	جابر بن عبدالله	١١٣
- يا علي من قرأ سورة الأحزاب..................................	علي بن أبي طالب	٣٦

ثالثا : فهرس الآثار

الأثر	الراوي	الصفحة
ـ كائن تقرأ سورة الأحزاب........................	أبي بن كعب	٣٣
ـ نزلت سورة الأحزاب بالمدينة........................	ابن عباس	٣٣
ـ فقدت آية من الأحزاب........................	زيد بن ثابت	٣٣
ـ كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان................	عائشة	٤٨
ـ أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد........................	ابن عمر	٦٠
ـ والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله...........	ابن مسعود	٧٠
ـ سورة الأنعام نزلت عليه........................	ابن عباس	٧٢
ـ كان رجل من قريش يدعى ذا القلبين من دهية................	ابن عباس	١٠٨
ـ أن أبا حذيفة ممن شهد بدر........................	عائشة	١٠٩
ـ ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد................	ابن عمر	١١٠
ـ لئت رأيت قتالًا........................	أنس بن النضر	١١٠
ـ وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاة زيد..........	ابن عباس	١١٨
ـ أن هذه الآية (وتـخفي في نفسك)........................	أنس	١١٩
ـ لو كان رسول الله كاتمًا شيئًا من الوحي................	عائشة	١٢٠
ـ كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن................	عائشة	١٢٢
ـ لما تزوج رسول الله ﷺ زينب........................	أنس	١٢٣
ـ لما رجع النبي ﷺ من الخندق........................	عائشة	٢٣٩
ـ إن زينب بنت جحش........................	أنس	٢٦٨
ـ لما انقضت عدة زينب	أنس	٢٦٨
ـ ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له................	عائشة	٣٠١

رابعا: المصادر والمراجع

١ إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار، المعجم الوسيط، دار النشر: دار الدعوة ،تحقيق مجمع اللغة العربية.

٢ ابن أبي شهبة،السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة.

٣ ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.نواسخ القرآن،تحقيق: محمد أشرف علي الملباري،الجامعة الإسلامية بالمدينة، رسالة ماجستير، أشراف د: أحمد إبراهيم مهنا.

٤ ابن الجوزي، الموضوعات، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ج١، ص٣٩١-٢٤١.

٥ ابن الزبير: أحمد بن إبراهيم الثقفي. البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق د/ سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي.

٦ ابن القيم: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي. زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة.

٧ ابن القيم، التفسير القيم لابن القيم، جمعه محمد ونيس الندوي، لجنة التراث الغربي، بيروت.

٨ ابن القيم، بدائع التفسير، للإمام ابن قيم الجوزية، جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي.

٩ ابن تيمية.أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد.

١٠ ابن جرير: محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، تحقيق د عبد الله التركي، دار عالم الكتب.

١١ ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ، صحيح بن حبان، ترتيب علي بن بلبان، مؤسسة الرسالة.

١٢ ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني. فتح الباري، دار الريان، القاهرة.

١٣ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. المحلى،دار الفكر للنشر.

١٤ ابن حزم:جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس،دار المعارف.

١٥ ابن حنبل: أحمد أبو عبد الله الشيباني. مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة.

١٦ ابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ.

١٧ ابن سلام: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. فضائل القرآن، حققه مروان العطية وآخرون، دار ابن كثير –دمشق –بيروت.

١٨ ابن عاشور: محمد بن الطاهر ابن عاشور. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون.

١٩ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد الحضرمي الأشبيلي، تاريخ ابن خلدون.

٢٠ ابن عقيلة: محمد بن أحمد المكي. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، مجموعة رسائل جامعية، مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٢١ ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٢ ابن كثير ،الفصول في سيرة الرسول ﷺ، اسماعيل ابن كثير الدمشقي ، تحقيق باسم الجوابرة ، وسمير أمين ، مكتبة المعارف .

٢٣ ابن كثير. البداية والنهاية،تحقيق د/ أحمد أبو ملحم و مجموعة،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ .

٢٤ ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السيد محمد ومجموعة، دار عالم الكتب بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة.

٢٥ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري. لسان العرب، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠م .

٢٦ ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري.السيرة النبوية، دار الجيل بيروت، ١٤١١هـ .

٢٧ أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث الإسلامي.

٢٨ أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. البحر المحيط، تحقيق د/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث .

٢٩ أبو داود:سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي دواود، دار الكتاب العربي –بيروت .

٣٠ أبو موسى ،محمد محمد أبو موسى ،دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، مكتبة وهبة، القاهرة .

٣١ أبو نُعيم.أحمد بن عبد الله الأصفهاني، الحلية.

٣٢ أبوحفص، عمر بن علي الدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، مكتبة الباز، مكة المكرمة، تحقيق عادل أحمد، وعلي محمد.

٣٣ الأزهري، أبومنصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م .

٣٤ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة / تحقيق علي بن محمد البجاوي، دار الجيل –بيروت ١٤١٢هـ ص٥٤

٣٥ الألوسي ،شهاب الدين محمود الألوسي ، روح المعاني ،دار أحياء التراث العربي .

٣٦ ابن حجر ، هدي الساري ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، و محب الدين الخطيب ، دار المعرفة بيروت ١٣٧٩هـ .

٣٧ الباقلاني: أبو بكر ابن الطيب. الانتصار للقرآن،تحقيق د/ محمد عصام القضاة، دار ابن حزم .

٣٨ بطاش كبري زاده. أحمد بن مصطفى.مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الباز –دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ .

٣٩ البقاعي ، مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور ، ابراهيم بن عمر البقاعي ، حققه د/ عبد السميع محمد أحمد ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .

٤٠ البقاعي: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٤١ البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨هـ .

٤٢ البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي. سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤.

٤٣ البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي الشافعي، دلائل النبوة .

٤٤ الترمذي. محمد بن عيسى أبوعيسى السلمي. الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث –بيروت.

٤٥ تفسير البغوي / أبو محمد الحسين البغوي ، حققه مجموعة من المحققين ، دار طيبة ، ١٤١٧هـ .

٤٦ تفسير السراج المنير / محمد بن أحمد الشربيني / دار الكتب العلمية –بيروت – ص٤٦ .

٤٧ تفسير غريب القرآن.،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة.المحقق :السيد أحمد صقر.دار النشر : دار الكتب العلمية. سنة الطبع ١٩٧٨م .

٤٨ الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري. الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٤٩ الجرجاني: عبد الله بن عدي الجرجاني أبو أحمد الكامل في ضعفاء الرجال ، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، المكتبة الوقفية.

٥٠ الجعبري: إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل، برهان الدين، أبو محمد الجعبري، الخليلي الشافعي.

٥١ الجوهري ، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطاء ، دار العلم –بيروت ، ١٤٠٧هـ

٥٢ الحاكم: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٩٠م.

٥٣ الخطيب البغدادي.أحمد بن علي أبوبكر. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٤ الخطيب: عبد الكريم الخطيب. التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر.

٥٥ الداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي. البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث - الكويت - ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م.

٥٦ دراز ، النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ، دار طيبة.

٥٧ دروزة، التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية.

٥٨ الدوسري: د/ منيرة بنت ناصر الدوسري. أسماء سور القرآن وفضائلها، رسالة دكتوراه، مطبوع، دار ابن الجوزي،١٤٢٦هـ.

٥٩ الرازي: أبوعبدالله محمد بن عمر.التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار إحياء التراث.

٦٠ الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، الحسين بن محمد بن المفضل،تحقيق عدنان داوودي ، دار القلم دمشق ، دار الشامية – بيروت ، ١٤١٢هـ .

٦١ رباني: محمد شفاعة، المكي والمدني، موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف.

٦٢ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٦٣ الزحيلي: د وهبة. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق:دار الفكر، ٢٠٠٣م.

٦٤ الزرقاني، محمد عبد العظيم الزرقاني. مناهل العرفان، دار إحياء الكتب العربية.

٦٥ الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي. البرهان في علوم القرآن، دار الفكر،١٤٠٠هـ.

٦٦ الزمخشري:أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري. الكشاف

٦٧ السباعي. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر

٦٨ السباعي. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر.

٦٩ السعدي،تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي _ عنيزة.

٧٠ سعيد حوى،الأساس في التفسير، دار السلام.

٧١ سميح. عمران سميح نزال. الوحدة التاريخية للسور القرآنية،، صـ ١٠٠، دار القراء، الأردن،١٤٢٧هـ.

٧٢ سيد قطب. في ظلال القرآن،دار الشروق، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٧٣ السيوطي ، الدر المنثور ، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م

٧٤ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. الإتقان، بيروت:المكتبة العصرية،١٤٢٤هـ.

٧٥ الشنقيطي. محمد الأمين المختار، أضواء البيان، مكتبة ابن تيمية.

٧٦ الشهاب ،أحمد بن محمد ، حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ،دار صادر ،بيروت.

٧٧ الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني. فتح القدير، دار عالم الكتب للنشر – الرياض، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٧٨ شيخ زاده ، محمد بن مصلح القوجي ، حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ، دار الكتب العلمية بيروت.

٧٩ الطبراني المعجم الكبير / سليمان بن أحمد الطبراني – تحقيق حمد بن عبد المجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤هـ

٨٠ الطبقات الكبرى لأبن سعد ، محمد بن سعد البصري الزهري – دار صادر –بيروت ص٥٤

٨١ عبد الباقي. محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار الفكر.

٨٢ عبد الرزاق موسى: عبدالرزاق على موسى.المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز، مكتبة المعارف، الرياض.

٨٣ عبد الكافي: عمر بن محمد بن عبد الكافي. عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، تحقيق:خالد حسن أبو الجود، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، رسالة علمية إشراف أ.د. أحمد المعصراوي.

٨٤ الفصول في سيرة الرسول ﷺ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير.

٨٥ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد النجار، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

٨٦ القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ.

٨٧ القرطبي:أبو عبدالله محمد بن أحمد.الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب،١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٨٨ القسطلاني هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك.المواهب اللدنية.

٨٩ القطان. مناع بن خليل. مباحث في علوم القرآن،مؤسسة الرسالة.

٩٠ القنوجي.صديق بن حسن.أبجد العلوم، دار ابن حزم –بيروت ١٤٢٣هـ.

٩١ اللاحم ، سليمان بن إبراهيم ، تفسير الآيات الأحكام في سورة الأحزاب ، دار العاصمة الرياض.

٩٢ المباركفوري:صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مكتبة الرشد، الرياض.

٩٣ محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، بيروت: دار إحياء التراث.

٩٤ المدخلي: إبراهيم بن محمد المدخلي. مرويات غزوة الخندق، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ١٤٢٤، رسالة ماجستير بإشراف د / عبد المحسن العباد.

٩٥ المراغي: أحمد مصطفى. تفسير المراغي، دار الفكر،١٣٩٤هـ.

٩٦ المزي: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي.تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٩٧ المزيني. خالد بن سليمان. المحرر في أسباب نزول القرآن، رسالة دكتوراه إشراف د على سليمان العبيد، دار ابن الجوزي ١٤٢٩هـ.

٩٨ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، شرح صحيح مسلم للنووي، مؤسسة قرطبة ١٤١٢هـ.

٩٩ مصطفى مسلم.مباحث في التفسير الموضوعي، دار العلم –دمشق ١٩٨٩م.

١٠٠ المعجم الأوسط، تحقيق:طارق بن عوض الله الحسيني، دار الحرمين _ القاهرة.

١٠١ مكي: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي. الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المنار، جده.

١٠٢ النحاس: أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي. الناسخ والمنسوخ، تحقيق د/ محمد عبدالسلام محمد، مكتبة دار الفلاح _ الكويت.

١٠٣ النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري،دار الكتب العلمية،بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٩١م.

١٠٤ الهويمل: تركي بن سعد بن فهيد.خواص القرآن الكريم،رسالة علمية للدكتوراه، بإشراف د/ بدر بن ناصر البدر، دار ابن الجوزي ١٤٢٩هـ.

١٠٥ الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت.

١٠٦ الواحدي. علي بن أحمد. أسباب النزول.

خامسًا : فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص العربي .	٣
الملخص الإنجليزي .	٤
المقدمة .	٥
أهمية الموضوع .	٨
أسباب اختيار الموضوع .	٩
أهداف البحث في الموضوع .	١١
الدراسات السابقة .	١١
هيكل الموضوع .	١٥
الباب الأول: التناسق الموضوعي : مقدمات تعريفية .	٢٠
التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة لغة واصطلاحاً.	٢١
الفصل الأول: اسم السورة وفضلها وعدد آياتها وتاريخ نزولها .	٢٦
المبحث الأول: اسم السورة الكريمة وما اشتهر لها من أسماء .	٢٧
تمهيد .	٢٨
المطلب الأول: الفوائد والحِكم من تسوير السور .	٢٩
المطلب الثاني: مصدر أسماء السور .	٣١
المطلب الثالث: اسم السورة .	٣٣
المبحث الثاني: ما ورد في فضل السورة .	٣٥

المبحث الثالث: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك.	٣٨
تمهيد .	٣٩
المطلب الأول: تعريف الآية في اللغة والاصطلاح .	٤٠
المطلب الثاني: فائدة علم عد الآيات .	٤٢
المطلب الثالث: ترتيب آيات القرآن .	٤٤
المطلب الرابع: سبب اختلاف العلماء في عد الآيات.	٤٦
المطلب الخامس: عدد آيات سورة الأحزاب .	٤٧
المبحث الرابع: تاريخ نزول السورة الكريمة.	٥٢
الفصل الثاني: مكي السورة ومدنيها ومناسبتها لما قبلها ووجه اختصاصها بما اختصت به .	٦٤
المبحث الأول: المكي والمدني في السورة .	٦٥
تمهيد.	٦٦
المطلب الأول: تعريفات المكي والمدني .	٦٧
المطلب الثاني: فائدة العلم بالمكي والمدني.	٦٨
المطلب الثالث: السبيل الموصل للمكي والمدني	٧٠
المطلب الرابع: مدني سورة الأحزاب ومكيها .	٧٢
المبحث الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها .	٧٤
تمهيد .	٧٥
المطلب الأول: تعريف المناسبة في اللغة والاصطلاح.	٧٦
المطلب الثاني: ثمرة علم المناسبات .	٧٨

المطلب الثالث: أنواع علم المناسبة .	٧٩
المطلب الرابع: شرف هذا العلم وفائدته .	٨٠
المطلب الخامس: مناسبة سورة الأحزاب لما قبلها .	٨٢
المطلب السادس: مناسبة سورة الأحزاب لما بعدها .	٨٦
المبحث الثالث: وجه اختصاص السورة بما اختصت به من موضوعات.	٩١
تمهيد .	٩٢
المطلب الأول: تعريف خواص القرآن الكريم لغةً واصطلاحا .	٩٣
المطلب الثاني: ما اختصت به سورة الأحزاب من موضوعات .	٩٦
الفصل الثالث: أسباب نزول السورة ومقاصدها .	٩٩
المبحث الأول: أسباب النزول الواردة في السورة .	١٠٠
تمهيد	١٠١
المطلب الأول: تعريف أسباب النزول ومفهومه لدى العلماء	١٠٢
المطلب الثاني: فوائد أسباب النزول	١٠٣
المطلب الثالث: أسباب النزول الواردة في السورة	١٠٧
المبحث الثاني :مقاصد السورة .	١٢٨
الباب الثاني، التناسق الموضوعي : دراسة تطبيقية .	١٣٧
الفصل الأول: مناسبات السورة الكريمة .	١٣٨
المبحث الأول: مناسبة اسم السورة لموضوعها .	١٣٩
المبحث الثاني: مناسبة فاتحة السورة لموضوعاتها .	١٤٣

الفصل الثاني: موضوعات السورة الكريمة وتناسقها .	١٤٧
تمهيد .	١٤٨
المبحث الأول :توجيهات خاصة بالنبي ﷺ فيما يتصل بنفسه ،وبالمؤمنين . ويشمل الآيات (١ – ٢٧) .	١٥٣
المبحث الثاني : بناء بيت النبوة وبيوت المؤمنين . ويشمل الآيات (٢٨ – ٥٥) .	١٦٣
المبحث الثالث :مكانة النبي ﷺ وعظم أثم إيذائه وإيذاء المؤمنين . ويشمل الآيات (٥٦ – ٧٣) .	١٧٧
الفصل الثالث : تفسير آيات السورة في ضوء تناسقها الموضوعي .	١٨٨
الخاتمة: وتشتمل على نتائج الدراسة الكلية .	٣٣٩
الفهارس العامة .	٣٤٢
فهرس الآيات .	٣٤٣
فهرس الأحاديث النبوية .	٣٤٥
فهرس الآثار .	٣٤٦
المصادر والمراجع .	٣٤٧
فهرس الموضوعات .	٣٥٨